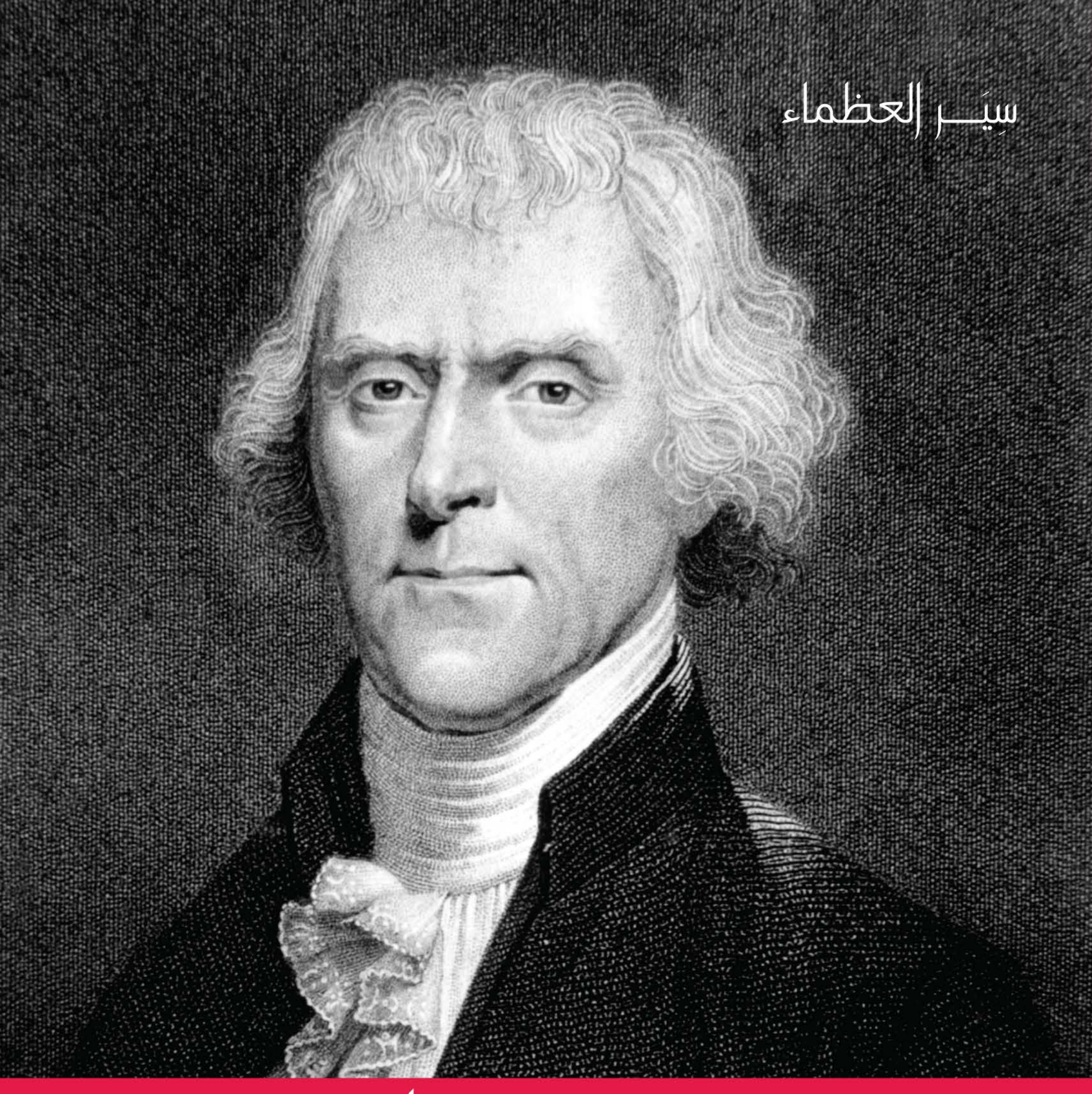
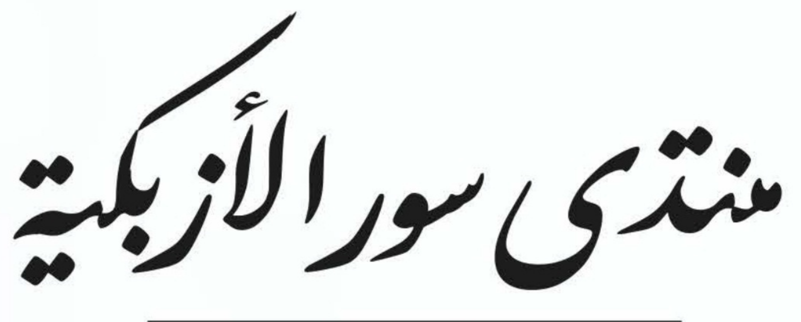


توماس جيفرسون

وإعلان استقلال أمريكا

كريستوفر هيتشنز



توماس جيفرسون

توماس جيفرسون

وإعلان استقلال أمريكا

تأليف: كريستوفر هيتشنز

ترجمة: رشا سعد زكي

مراجعة: عايدة الباجوري



توماس جيفرسون
وإعلان استقلال أمريكا

كريستوفر هيتشنز

Thomas Jefferson
Author of America

Christopher Hitchens

الطبعة الأولى ٢٠٠٨
ISBN 978 977 6263 12 3

كلمات عربية للترجمة والنشر
٤٣ شارع ابن قتيبة، حي الزهور، مدينة نصر، القاهرة ١١٤٧١
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalematarabia@kalematarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalematarabia.com

هيتشنز، كريستوفر
توماس جيفرسون وإعلان استقلال أمريكا / كريستوفر هيتشنز . -
القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
١٨٤ص، ١٦٫٥×٢١سم
تدمك: ٣ ١٢ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
1- أمريكا - الملوك والحكام
2- جيفرسون، توماس ١٨٢٦-١٨٤٣
3- الولايات المتحدة - تاريخ - العصر الحديث - توماس جيفرسون، ١٨٠١-١٨٠٩
أ- العنوان
٩٢٣٫١٧٣

إهداء

إلى براين لامب: فرجيني عظيم، وأمريكي عظيم
ديموقراطي بارع، وجمهوري فاضل
ناضل من أجل ناخبين مثقفين

المحتويات

شكر وتقدير

أوجه شكري بصورة رئيسية للفقيد ويليام أبليتون كووليدج William Appleton Coolidge من توبسفيلد، بماساتشوسيتس Massachusets وهو سليل مباشر لإيلين وايلز كووليدج، Ellen Wayles Coolidge حفيدة توماس جيفرسون Thomas Jefferson من توماس مان Thomas Mann ومارثا جيفرسون راندولف Martha Jefferson Randolph وهو الذي قدم منحة أتلانتك كروسينج Atlantic Crossing التعليمية في جامعة باليول Balliol College، بأكسفورد، التي كانت سببا فى مجيئ إلى الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٧٠م، والتي تجعلني — كما أعتقد مستفيدًا بصورة غير مباشرة من النظام المتميز في مونتيتشيللو.

وفي يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط عام ٢٠٠٤م، دُعيت لإلقاء أربع محاضرات وندوتين عن توماس جيفرسون في كلية جيمس ماديسون James Madison بجامعة ميتشيجن ستايت Michigan State. وقد زودني منتدى وحلقة مناقشة ليفراك LeFrak عن العلوم والمنطق والديمقراطية الحديثة، بجوٍّ من الترحيب مثير للرهبة، وأود بحرارة شديدة أن أشكر رؤساءها؛ آرثر ميلزر Arthur Melzer وجيري واينبرجر Jerry Weinberger وريتشارد زينمان، على منحي الفرصة لاختبار آرائي واستنتاجاتي ممن هم من ذوي العقول والخبرات التي تفوقني.

وقد كانت ريحًا طيبة تلك التي جعلتني على اتصال، منذ عدد من السنوات، بالبروفيسورة أنيت جوردون ريد Anette Gordon Reed من

جامعة نيويورك، التي كان سعيها وراء الحقيقة في دراستها لجيفرسون نموذجًا للموضوعية التاريخية، والتردد الجدلي، والحس الأخلاقي.

إن القرار بقضاء مدة معينة «منغمسًا» إما في أعمال جيفرسون أو في الأعمال التي تتحدث عن جيفرسون، هو قرار يستحيل الندم عليه، وتنفيذه من الصعوبة بمكان. فلا يستطيع أحد أن يزعم الآن امتلاكه لذلك الكنز الثمين من المعرفة.

و من المؤكد أنه يجب على كل من يهتم بالأمر أن يرفع القبعة لجوليان بويد Julian Boyd محرر الطبعة السابعة والعشرين من الكتاب الذي لا يزال صداه قويًّا «أوراق توماس جيفرسون» The Papers of Thomas Jefferson الذي أُعد للصحافة في جامعة برينستون Prinston University. وأن يرفعها كذلك للسيرة الذاتية المكوّنة من ستة أجزاء «جيفرسون وعصره» Jefferson and His time لدوماس مالون Dumas Malone وإنه لمن المشرف — وإن كان ليس أمرًا مبهجًا — أن أسجل اختلافي مع ثانيهما. أما أبرع وأفضل ما كُتب من سيرة حياة جيفرسون الموجزة فهي تلك التي كتبها ميريل بيترسون Merill Peterson، يليها — كما أعتقد عن يقين من موافقته الشخصية — العمل الذي قدمه آر بي بيرنشتين R. B. Bernstein.

ويعد كتاب «بور» Burr لجور فيدال Gore Vidal أفضل إحياء للأحداث في ذلك الوقت، ويعتبر عماد الارتكاز في فن كتابة الرواية التاريخية التى تتربع على عرش اعماله. أما «العلاقة الطويلة» The Long Affair لكونور كروز أوبراين Conor Cruise O'Brien الذي هو الأكثر بلاغة بين الأعمال الروائية المعادية لجيفرسون، يليه العمل الذي قدمه ألبرت جاي نوك Albert Jay Nock. وأعتبر «الذئب من أذنيه» The Wolf by the Ears لجون تشيستر ميلر John Chester Millar، أفضل ما كتب عن قضية الاسترقاق تنوعًا وتنويرًا. أما الموضوع المُهمل بشدة والخاص بحرب البربر، فإنني أجدني قد اعتمدت بكل امتنان على كتاب «حرب جيفرسون» Jefferson's War لجوزيف ويلان Joseph Whelan، وعلى كتاب «إلى سواحل طرابلس» To the Shores of Tripoli لأيه بي سي ويبل A. B. C. Whipple، وعلى كتاب «جون بول

جونز» لإيفان توماس Evan Thomas، بل اعتمدت أكثر على كتاب «الأسرى» Captives لليندا كولي Linda Colley، الذي ذكرني مرة أخرى بأن معظم قصة جيفرسون يمكن العثور عليها في الكتب التي تهتم ظاهريًّا بموضوعات أخرى. وينطبق نفس الشيء على «الشجاعة الجاسرة» Undaunted Courage، وهي رواية ستيفن أمبروز Stephen Ambrose لرحلة لويس وكلارك الاستكشافية، وعلى السيرة الحياتية الاستثنائية لتوماس بين Thomas Paine التي كتبها جون كيين John Keane، وعلى الحياة النموذجية لألكسندر هاملتون Alexander Hamilton التي كتبها رون تشيرناو Ron Chernow، وعلى كتاب «تطرف الثورة الأمريكية» The Radicalism of the American Revolution لجوردون أس وودز Gordon S. Woods وعلى كتاب «الأصول الأيديولوجية للثورة الأمريكية» Ideological Origins of the American Revolution، وعلى رواية تيودور درابر Theodor Raper المبدعة بصورة مذهلة عن الثورة الأمريكية؛ «صراع على القوة» A Struggle for Power، التي تلقي الضوء على التطرف بطريقة أخرى. ويجب على من يدرس جيفرسون أن يدرس أيضًا إدموند بيرك، وهو إقرار واضح يضعني من جديد في موضع المَدين لكونور كروز أوبراين Conor Cruise Obrien بكتابه «اللحن العظيم» The Great Melody، ولديفيد بروميتش David Bromwich لمراجعته الشديدة الدقة لكتابات بيرك عن «الإمبراطورية والحرية والإصلاح» Empire, Liberty, and Reform.

ويعد كتاب «أبناء جيفرسون: قصة أسرة أمريكية» Jefferson's Children: Story of One American Family لشانون لانيير Shanon Lanier وجاين فيلدمان Jane Feldman واحدًا من أروع الأعمال التي نشرته «أمريكانا». فهو يجمع كل أحفاد توماس جيفرسون وسالي هيمنجز ممن لا يزالون على قيد الحياة، ويقدم صورهم بالإضافة إلى رواياتهم. ويحتوي الكتاب على مقدمة بقلم لوسيان كاي تروسكوت الرابع Lucian K. Truscott IV وهو حفيد مباشر «معتمد» من أحفاد جيفرسون — فهو الابن الخامس لحفيده — وقد أسهم بلباقته ونزاهته في تحقيق ذلك الاجتماع العائلي، الذي

ساعد على دحض الاعتقاد المؤسف لأسلافه بأن مثل هذا الحب والتعايش والتقدير المُتبادل لن يكون ممكنًا أبدًا. بتغيير أسماء الأبطال، يمكن القول إن القصة تتحدث عنك! Mutato nomine, et de te fabula narrator.

إنني بسرد المزيد من المصادر ربما أجازف بالوقوع في فخ التفاخر بدلًا من الشكر. لقد تعلمت أثناء قيامي بهذا العمل أن أي شخص يكتب عن أمريكا، إنما يكتب عن توماس جيفرسون بطريقة أو بأخرى، ومن ثَّم — كما هو الحال مع قاعة جيفرسون الرائعة في مكتبة الكونجرس، التي قضيت بها أيامًا كثيرة ممتعة في الربع قرن الماضي — فإنني أرغب بشدة في إضافة تلك الكلمات المحفورة، بكل ما تحمله من تناقض، التي تخلد ذكرى السير كريستوفر ورين في ساينت بول: أيها القارئ، إذا كنت تبحث عن نصبه التذكاري، فانظر حولك.

مقدمة

لنبدأ القصة من نهايتها: في الرابع والعشرين من يونيو/حزيران من عام ١٨٢٦م، كتب توماس جيفرسون Thomas Jefferson خطابه الأخير. ومن منزله بفيرجينيا، الذي يطلق عليه مونتيتشيللو Monticello، أرسل جيفرسون ذلك الخطاب ردًّا على دعوة وجهها له روجر سي ويتمان Roger C. Weightman — رئيس مجلس إدارة إحدى لجان واشنطن — لحضور الاحتفال الوشيك آنذاك بالذكرى الخمسين لإعلان الاستقلال Declaration of Independence. وقد أعرب جيفرسون عن عميق أسفه لعجزه عن السفر إلى العاصمة بسبب التدهور السريع في حالته الصحية. وعبر عن أسفه هذا تعبيرًا مفصلًا على النحو الآتي:

> «الواقع أنه كان ينبغي أن أكون أكثر الناس سعادةً بالحضور وتبادل التهاني بصورة شخصية مع تلك المجموعة الصغيرة التي تضم من تبقى من الرجال العظماء، الذين اشتركوا معنا ذلك اليوم في اتخاذ ذلك القرار الجريء الذي أحاطته الشكوك وقتها، والذي كنا بصدد اختياره لدولتنا؛ وهو إما الخضوع والاستسلام أو رفع سيوف المقاومة. وكان ينبغي أن أستمتع معهم بتلك الحقيقة التي نجد فيها بعض العزاء، وهي أن إخواننا من المواطنين — بعد مرور نصف قرن من التجارب والرخاء — ما زالوا يؤيدون القرار الذي اتخذناه من قبل. وليكن هذا القرار — كما أؤمن أنه سيكون — للعالم كله (أو بعض أجزائه في البداية، والبعض الآخر لاحقًا، ولكنه سيشمل

العالم كله في نهاية الأمر) رمزًا لنهضة الرجال لتحطيم تلك الأغلال التي حرضهم الجهل بالدين والإيمان بالخرافات على تقييد أنفسهم بها، وليستمتعوا بعدها بنعمة الحكم الذاتي وما يحققه من أمان. إن هذا النموذج الجديد الذي أحللناه محل القديم يرد إلينا حقنا المطلق في ممارسة التفكير العقلاني وحرية الرأي بلا قيود. لقد تفتحت العيون كلها، أو ما زالت تتفتح، على حقوق الإنسان. وإن نور العلم الذي انتشر وشاع قد فتح الأبواب بالفعل أمام الجميع لرؤية تلك الحقيقة الواضحة؛ وهي أن عامة البشر لم يولدوا وهم يحملون السروج على ظهورهم، ولم تولد قلة مصطفاة تنتعل الأحذية طويلة الرقاب والكعوب المدببة ليكون لها حق شرعي في التحكم في بقية الناس. وتلك هي الأسس التي ينبع منها الأمل لبقية الأشخاص. أما نحن، فلتكن الذكرى السنوية المتجددة لهذا اليوم فرصة ننشط فيها ذاكرتنا بتذكر تلك الحقوق، وبمعاهدة أنفسنا على الالتزام بها بنفس الإخلاص إلى الأبد.»

توفي توماس جيفرسون في الرابع من شهر يوليو/تموز التالي مباشرةً نتيجةً لإصابته بإسهال حاد وعدوى التهاب في المسالك البولية. وكانت آخر كلماته: «هل اليوم هو الرابع من يوليو؟» وفي نفس اليوم، توفي أيضًا خصمه اللدود جون آدامز John Adams، في كوينسي Quincy بماساتشوسيتس Massachusetts، وكانت آخر كلمات تفوه بها: «توماس جيفرسون لا يزال حيًّا»، أو على أقل تقدير: «توماس جيفرسون …» فقط. ومن المؤكد أن الكثير من القصص التي تروي الكلمات الأخيرة التي يتفوه بها الرجال العظماء قبل موتهم هي قصص مختلقة أو هي تلفيق وتدليس محض، إلا أن القصتين السابقتين تبدوان على قدر من المصداقية.

لقد توقف جيفرسون في الخطاب السابق عند كل المحطات الرئيسية في حياته السياسية. فهو لم يكن في حاجة إلى ذكر حقيقة قيامه بصياغة إعلان الاستقلال، الذي يعد بمنزلة المقدمة التي تأسست عليها فكرة حقوق الإنسان

لأول مرة في تاريخ البشرية، باعتبارها قاعدة لقيام الجمهورية. وإنما أصر على تكرار ذكر وجهة النظر التي تقول بأن الثورة الأمريكية تأسست على مبادئ عالمية، ومن ثَمَّ فمن المؤكد أنه يمكن تصديرها للدول الأخرى. وأعاد التأكيد على أهمية العلم والابتكارات العلمية باعتبارهما شرارة حركة التنوير، وقارنهما — باحتقار شديد — بالإيمان عن غير فهم، وسذاجة تفكير. إلا أن شكه المُعلن في مسألة الدين يعد أكثر نقطة مثيرة للدهشة نظرًا لأنه كتب وصيته بالفعل قبل ذلك التاريخ، وصمم شاهد قبره، وصرح لأطبائه بأنه صار على أتم الاستعداد لملاقاة الموت.

توجد سيرتا حياة فقط يستطيع المؤلف منهما دراسة الفكرة الكلية لقيام الولايات المتحدة منذ بدايتها، وإعادة النظر فيها أيضًا؛ وهما سيرة حياة كلٍّ من توماس جيفرسون وأبراهام لنكولن. ولنكولن — الذي كان لا يزال في السابعة عشرة من عمره وقت وفاة جيفرسون — كان حينئذٍ يقسّم وقته ما بين العمل كحطاب والتجديف بالمراكب والعبارات، صرح في وقت لاحق عام ١٨٥٩م قائلًا:

> «المجد كله لجيفرسون؛ للرجل الذي امتلك — في ظل الضغط الهائل الذي صنعه صراعه من أجل تحقيق الاستقلال القومي لشعب واحد — رباطة الجأش، والقدرة على التنبؤ الصحيح، والقوة الكافية لتقديم الحقيقة المجردة في وثيقة ثورية بحتة، تلك الحقيقة التي يمكن تطبيقها على كل الرجال في كل زمان. لقد نجح في حفظها في تلك الوثيقة، لتظل حتى يومنا هذا، وإلى الأبد، صوتًا موبخًا وحجر عثرة في طريق أية بادرة شؤم تلوح في الأفق وتنذر بظهور الاضطهاد والطغيان على السطح مرة أخرى.»

ولاحقًا، عندما تساءل لنكولن في خطابه الشهير في جيتسبيرج Gettysburg عمّا إذا كان النموذج المثالي الأمريكي يستطيع الصمود لوقت طويل، لم يتركز اهتمامه الأخلاقي على الدستور الفيدرالي Federal Constitution، بل على إعلان الاستقلال الذي صاغه جيفرسون (قبل عام ١٨٦٣م بسبعة وثمانين

عامًا). وقد كان هذا كرمًا بالغًا منه. أما اليوم، فإذا كنا ننظر بعين الرضا إلى تلك العبارات التي أنهى بها جيفرسون خطابه والتي تستنكر فكرة أن بعض الناس «يولدون بسروج على ظهورهم، وقلة منهم فقط يولدون منتعلين الأحذية الطويلة الرقاب ذات الكعوب المدببة»، فعلينا أيضًا أن ننتبه إلى أن جيفرسون نفسه لم يكن بحاجة لأكثر من مجرد النظر عبر نافذة غرفته كي يرى العبودية المتوارثة تتحقق بالفعل. ولكنه تعمد تأجيل تصفية هذه القضية المؤسفة تمامًا، بل حمّلها بكامل وعيه للأجيال التالية باعتبارها جزءًا من إرثه الذي تركه للأجيال التالية. وبعد سبعة وثلاثين عامًا من وفاة جيفرسون، وضع قتلى معركة جيتسبيرج وجرحاها (وهي معركة دارت أحداثها عشية الرابع من يوليو/تموز) معيارًا جديدًا لمفهوم الرهبة والخوف في الحروب الحديثة.

ومع ذلك، فلولا جهود جيفرسون، لما وُجد الاتحاد الأكبر Grand Union، ولو كان «نصفه من الأحرار ونصفه الآخر من العبيد» كي يناضل من أجل تحقيقه كلٌّ من لينكولن ودوجلاس، ولاحقًا لينكولن ودافيز، وفي النهاية جرانت ولي. وفي الرابع من يوليو/تموز من عام ١٨٠٣م، نشرت صحيفة ناشونال إنتليجنسر "National Intelligencer" بواشنطن أنباء صفقة شراء لويزيانا "Louisiana Purchase"، التي ربما تكون أعظم صفقة شراء أرض تمت في التاريخ، وافق نابليون بونابرت بموجبها على بيع كل المنطقة الواقعة بين نهر الميسيسيبي وجبال روكي للولايات المتحدة، وهي مساحة من الأرض لم يكن لها آنذاك موقع على الخريطة بكامل امتدادها شمالاً. ولم تؤدِّ تلك الصفقة — التي جاءت نتيجةً للمحاولات الدبلوماسية السرية والحذرة، والمعالجة الذكية السريعة لبعض المعوقات التي وضعها الكونجرس والدستور — إلى توسيع مساحة الولايات المتحدة بقدر ما أدت إلى تبدلها فعليًّا، فعلى أية حال، لقد تضاعفت مساحة أراضيها بتكلفة أربعة سنتات للفدان فقط. ولاحقًا في نفس اليوم، تلقّى الكولونيل ميريويذر لويس "Colonel Merriwether Lewis" آخر خطاب اعتماد له من الرئيس جيفرسون، واستعد للشروع في أكثر المغامرات التي يمكن تخيلها طموحًا لاستكشاف

مفهوم التنوير، دعك من محاولة تحقيقه! إن يوم الرابع من يوليو/تموز من عام ١٨٠٣م، يستحق مكانة أكبر من تلك التي يحصل عليها عادةً في قائمة الأحداث الفاصلة أو التواريخ الحاسمة في تاريخ البشرية. ولكن هذا التاريخ لا يمثل يوم حدوث واقعة معينة، وإنما هو يوم استكملت فيه خطة دقيقة وبُدِئَ في أخرى. وفي حين يميل مؤرخو العصر الحديث وما بعده إلى استخدام تعبيرات على غرار «ابتكار أمريكا» أو «تخيل أمريكا»، فإنه من الأصدق أن نقول: إن توماس جيفرسون قد «صمم» أمريكا، أو أنه صاغها.

ومن الجلي، والحال هكذا، أن جيفرسون يضم في شخصه بعض التناقضات الحقيقية أو الظاهرية. وهذا ينطبق على جميع الناس، وعلى كل الأشياء. بل إنه سيكون من المدهش حقًّا أن نجد شخصية تاريخية بارزة، أو بالأحرى أن نجد أمة، «لا» ينطبق عليها هذا القانون. إن جيفرسون لم يجسد المتناقضات في شخصه، وإنما كان «هو» التناقض بعينه، وسيبدو هذا واضحًا جليًّا في كل خطوة من تلك القصة التي تحكي أحداث حياته.

الفصل الأول

كل السياسات محلية

من فيرجينيا إلى فيلادلفيا

ولد توماس جيفرسون في الثالث عشر من أبريل/نيسان عام ١٧٤٣م (أو الثاني من أبريل/نيسان إلى أن اعتمد التقويم الجريجوري عام ١٧٥٨م)، لأسرة ذات أوضاع مستقرة تعمل بالزراعة، وتنتمي للطبقة الأرستقراطية بفيرجينيا. أما الأب بيتر جيفرسون، فكان يعمل في مسح الأراضي، ورسم الخرائط، ويقال إن أبوي بيتر من الأسر المهاجرة من مقاطعة سنودونيا "Snowdonia" شمال ويلز "Wales". وقد تزوج بيتر من جين راندولف "Jane Randolph" التي تعد أسرتها من الأسماء العريقة بمجتمع فيرجينيا التقليدي، ومن ثَمَّ فقد أدى الزواج إلى تحسين مكانته. وربما يكون احتقار جيفرسون البيِّن لوالدته وكراهيته لها — حيث لم يأت على ذكرها أبدًا طوال حياته تقريبًا — واضحين تمامًا، وربما تكون لامبالاته بالأرستقراطية ظاهرة للأعين كذلك، غير أنه عندما همّ بكتابة سيرته الذاتية الخاصة شديدة الإيجاز في عام ١٨٢١م، تكلم عن مسائل مثل صلة الدم، والأصل، و«شجرة العائلة» خاصةً ما يتعلق بوالدته، متظاهرًا باللامبالاة، حيث كتب عن تلك المسائل التافهة قائلًا: «فليؤمن بها من يشاء إيمانًا عميقًا، ويضفي عليها ما يشاء من مزايا.» وقد أسس جيفرسون الدعاوى الأمريكية بحق الولايات المتحدة في حكم ساكسونيا القديمة ذات الحكم الذاتي التي يفترض أنها تأسست على

يد الملكين الإنجليزيين هنجيست "Hengist" وهورسا "Horsa" — شبه الأسطوريين — اللذين غادرا ساكسونيا وأسسا صورة من صور الحكم الذاتي جنوب إنجلترا (لدرجة أنه كان يتمنى وضع صورتيهما التخيلية على أول الأختام العظمى للولايات المتحدة)، وهنا نجد أننا أمام حقيقة واضحة تتمثل في ولع جيفرسون — إن لم تكن في الواقع حاجته — بإنكار أحد أوضاعه الاجتماعية وادعاء آخر.

ومن العسير أن ننجح في اختراق ذلك الستار القاتم بأعيننا، الذي غالبًا ما يكون واضحًا (وأحيانًا أخرى لا يكون) عندما نجد شابًّا يتظاهر بتبجيل أبيه، ولا يبالي بأمه على الإطلاق، إلا أن الطبيعة الإنسانية لا تختلف اختلافًا جذريًّا من شخص لآخر، ولذا لا يدهشنا كثيرًا أن نكتشف شعور جيفرسون وهو ما زال في طور المراهقة بأنه صار عُرضة في وقت ما لتبديد طاقته وتضييع وقته مع صحبة منحلة. ونجد أيضًا واقعة مؤلمة في حياته العاطفية حدثت في قاعة أبوللو "Apollo Room" في حانة راليه "the Raleigh Tavern"، حين استجمع جيفرسون كل ما يملك من شجاعة للتقرب من أكثر فتاة يرغب الشباب في رفقتها وتدعى ريبيكا بارويل "Rebecca Burwell"، ولكن — للأسف — باءت محاولته بالفشل الذريع، وجعل من نفسه أضحوكة. (لدرجة أنه في الصباح التالي، كتب خطابًا لأحد أصدقائه يقول فيه: «يا إلهي! يا له من موقف!» ولاحقًا، أذيعت أنباء خطبة الآنسة بارويل — وهي أخت أحد زملاء دراسته وابنة أسرة عريقة من ذوي الأملاك بمقاطعة يورك — وتسبب ذلك الموقف في إصابة جيفرسون بأول نوبات الصداع النصفي التي لازمته بقية حياته.) وما من شك في أن إخفاقه في أول محاولة عاطفية على هذا النحو قد أصابه بإحباط كبير، وقد تلا هذا الموقف إخفاق آخر، مثل محاولته الفاشلة الحمقاء لإغواء زوجة صديقه جون واكر "John Walker". والسبب وراء اهتمامي بذكر هذه المواقف هو أن جيفرسون كان متوهج المشاعر في كل ما يتعلق بالنساء إلا أن تجاربه في هذا المجال علمته الحذر والحرص. الأمر الذي يستحق الإشارة إليه وتوضيحه من البداية، ولولا أجيال المؤرخين الذين كتبوا عن جيفرسون — ولا يزالون

حتى يومنا هذا — وكأنه لم يكن رجلًا بالمعنى الحقيقي، لما اهتممت بتدوين تلك الملحوظات.

وقد تعافى جيفرسون من حالة عدم الاستقرار التي لازمته في مقتبل حياته بثلاثة طرق رئيسية هي: الاهتمام بدراسة كلاسيكيات الأدب، ومتابعة دراسته للحقوق، والنجاح في حياته الزوجية. وقد التقت تلك المحاور الثلاثة في نقطة واحدة لتصنع ذلك الرجل الذي طالما أجله الأمريكيون، والذي كان جزءًا من التغيير البسيط الذي طرأ على خبراتهم، من صورته التي تظهر على الوجه الخلفي لعملة متواضعة تساوي خمسة سنتات فقط. إن ذلك البيت الذي يطلق عليه مونتيتشيللو "Monticello"، ذا الطراز المعماري الخاص بالمعماري الإيطالي بالاديو، الذي بُنِي على قمة أحد الجبال في غابات فيرجينيا (والذي بُني بحيث تواجه مقدمته مناطق الغرب الأمريكي التي لم تروض بعد)، يبدو وكأنه محور الارتكاز لحياة شخص كان من الممكن — لولا بعض الأحداث التاريخية — أن يعيش مكرسًا حياته تلك لزوجته وأسرته، ولممارسة الزراعة، والصيد، وقراءة الكتب والاطلاع، وللاهتمام بالإبقاء على حق امتلاك العبيد.

ولكن مسار حياة جيفرسون تغير تمامًا بفضل التحاقه بكلية ويليام آند ماري "William and Mary College" بمقاطعة ويليامزبيرج "Williamsburg" في المدة ما بين عامي ١٧٦٠ و١٧٦٢م. وفي هذا المكان، حالف جيفرسون الحظ كما لم يحالف شابًّا مثله من قبل، فقد أسعده الحظ بمعلميه الأجلاء. وبالأخص، أن جيفرسون كان له شرف التتلمذ على يد كلٍّ من دكتور ويليام سمول "Dr. William Small"، الاسكتلندي المولد ومدرس الأساليب العلمية، والأستاذ العظيم جورج ويث George Wythe، الذي كان يُدَرس القانون باعتباره وجهًا من أوجه التاريخ والمنطق والإنسانية، والذي فيما يبدو تبنى جيفرسون الشاب واعتبره أحد مريديه. وما أن اشتعلت جذوة طلب العلم في نفس جيفرسون، حتى صار من العسير إطفاؤها بقية حياته. وقد كان تعطشه للعلم لا يرتوي أبدًا، تمامًا كرغبته في امتلاك الكتب والاطلاع على محتواها. ومن بين الكتّاب الذين اهتم جيفرسون بأن ينهل من

علمهم آنذاك؛ اللورد بولينجبروك Lord Bolingbroke، وهو من رواد نقاد المسيحية المنظمة. لقد كان الجو العام في ذلك الوقت، لأي شخص على قدر ولو معقول من الثقافة، مفعمًا برياح الفكر التنويري التي هبت من إنجلترا واسكتلندا وفرنسا كذلك. (ذلك الفكر الذي عَبَر المحيط الأطلنطي، وفي طريقه مر على توماس بِين "Thomas Paine"، من بين آخرين، حاملًا خطابًا افتتاحيًّا للأستاذ العلامة دكتور بنجامين فرانكلين) وفيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، راعى جيفرسون الكتمان كما فعل في أكثر شئونه، فلم تصدر عنه أية تصريحات علنية يشجب فيها الدين، ولكن نفوره وابتعاده المبكر عن المسائل المتعلقة بالدين؛ مثل الوحي والروحانيات، كان يكشف بوضوح توجهه في مرحلة النضج من حياته.

ذات مرة، كتبت سوزان سونتاج "Susan Sontag" تقول: إن امتلاك صورة فوتوغرافية جيدة لشكسبير هو المعادل الحديث لامتلاك قطعة من خشب الصليب الحقيقي. فمن الطبيعي أننا لا نملك صورة فوتوغرافية لتوماس جيفرسون، إلا أن لدينا عددًا من الصور الشخصية المرسومة له في مراحل حياته المختلفة، ونملك أيضًا وفرة من الأوصاف التي أدلى بها من رأوه رأي العين. فمع قدومه إلى ويليا مزبيرج، كان قد بلغ طولًا يفوق عمره بكثير، بل يفوق المعتاد في ذلك الوقت؛ فقد تخطى طوله ستة أقدام ببوصتين. ولم يكن ثقيل الحركة، ولا رشيقًا بصورة خاصة، وكانت أطرافه طويلة وإن كانت مرتخية إلى حد ما. كان لون شعره يميل إلى الحمرة، وبشرته ممتلئة بالنمش، وكانت عيناه عسليتين، وشفتاه رفيعتين، وأنفه وذقنه حادين بارزين. فإذا كنا نتلاعب بالألفاظ، وسألنا: «إذا كنا نريد تشبيهه بحيوان ما، فأي حيوان يكون؟» فإذا فكرت في إجابة السؤال، تجد أنك شبه مجبر على التفكير في ثعلب ماكر.

وقد فرضت متطلبات الأسرة والمستوى الاجتماعي الذي ينتمي إليه جيفرسون على ذلك الثعلب الماكر أن يتزوج زيجة ذات شأن. وبالفعل، أقدم عليها جيفرسون في عام ١٧٧٢م عندما تزوج من مارثا ويلز سكيلتون "Martha Weyles Skelton" التي كانت تصغره بخمس سنوات. وصارت

مارثا سيدة مونتيتشيللو، وشاركت زوجها ولعه الشديد بالموسيقى (فقد تعلم العزف على آلة الكمان وهو في التاسعة من عمره). وهنا، تفرض ملحوظة مشئومة نفسها: فقبل زفافه ببضعة أشهر، كتب جيفرسون خطابًا لأحد أقرباء زوجته — وهو روبرت سكيبويز "Robert Skipwith" يرشح له فيه كلًّا من لوك Locke، ومونتيسكيو "Montesquieu"، وهيوم "Hume"، وبعض المبدعين الآخرين من كتاب حركة التنوير، وأظهر استحسانه الشديد للورنس ستيرن "Lawrence Sterne". ويبدو هذا الاستحسان أشد قوة في خطاب آخر أرسله لابن عمه بيتر كار ("Peter Carr") عام ١٧٨٧م، حيث وصف جيفرسون فيه أعمال ستيرن باعتبارها «أفضل ما كتب من دروس أخلاقية على الإطلاق.» وبالإضافة لما سبق، فنحن نعلم جيدًا ذلك الإعجاب المشترك الذي تبادله توماس ومارثا برواية ستيرن الشهيرة تريسترام شاندي "Tristram Shandy"، لدرجة أنهما كانا يقرآنها أحدهما على الآخر في تلك الليالي الطويلة. إذن، علينا أن ندرك من البداية الأمر الذي سيتضح أكثر وأكثر مع تطور القصة؛ ألا وهو، أننا بصدد التحدث عن رجل يفتقر كثيرًا إلى حس الدعابة والمرح.

ومع انتقال جيفرسون إلى مرحلة الرجولة، واكتسابه لعادات الرجل المهذب المثقف وشكله المميز، كان صراع تاريخي على القوة يدور حول الحدود الشمالية لمنطقة شمال أمريكا الخاضعة لبريطانيا. وقد كانت حرب السنوات السبع the Seven Years' War التي دارت بين فرنسا وبريطانيا، المعروفة في التاريخ الأمريكي باسم الحرب بين فرنسا والهند French and Indian War، إيذانًا بصراع نابليون اللاحق، وذلك بما سببته من معارك في مختلف القارات. فقد اشتبكت القوات البريطانية والفرنسية في أوروبا وأعالي البحار والهند وجزر الكاريبي. وتصارعتا بقوة أيضًا على كندا وبخاصة مقاطعة كيبك Quebec باستخدام الكتائب المحلية نوابًا أو وكلاء. وقد اعتُبر نجاح الجنرال جيمس وولف General James Wolf في الاستيلاء على تلك المقاطعة بمنزلة نقطة تحول في التاريخ؛ فقد تقرر — بناءً على ذلك الحدث — أن تصير اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية الأولى، وقد عمل بطريقة غير مباشرة

على تعجيل قيام الثورة الأمريكية، مما دفع الإمبراطورية البريطانية بدورها إلى إعداد أستراليا كوجهة بديلة للمُدانين والعمال الساخطين.

وفي لندن، اندلعت الخلافات الحادة حول مستقبل السياسة البريطانية المنتصرة. فقد جرى انتزاع شبه الجزيرة الهندية من قبضة فرنسا إلى الأبد؛ ولاحقًا، سوف تتيح معاهدة باريس عام ١٧٦٣م Treaty of Paris لبريطانيا السيطرة على واحدة أخرى على الأقل من ممتلكات فرنسا. ومن ثَمَّ، فقد تقلصت الخيارات المتاحة إلى خيارين فقط؛ إما جزر جوادلوب Guadeloupe، أو كندا. وقد انبرت طائفة لتحفيز دعاوى الاستيلاء على جوادلوب، باعتبارها جزيرة غنية بالسكر والبهارات والعبيد، وبناء على ذلك فإن ضمها للمملكة البريطانية سيتيح لبريطانيا السيطرة شبه الكاملة على حوض البحر الكاريبي. غير أن مجموعة أخرى أيدت الاستيلاء على كندا؛ باعتبارها أرضًا واسعة تصلح للاستقرار فيها، وهي على الأرجح غنية بالفراء والأخشاب والمعادن، وتمثل سوقًا مستقبليًّا عظيمًا للمنتجات الصناعية البريطانية. وقد بدت وجهة النظر الثانية — أكثر وجهات النظر تطلعًا للمستقبل واهتمامًا بالناحية التجارية — أقوى وجهات النظر وأكثرها إقناعًا من أكثر من ناحية، إلا أنها احتوت — مع ذلك — على نقطة ضعف غُفِل عنها؛ فلو أن المملكة البريطانية استولت على كندا، فلن تعود المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة بحاجة للاعتماد على الحماية العسكرية الإنجليزية ضد فرنسا. وبمجرد أن تخرج أمريكا من تحت تلك «المظلة»، تُرَى أي الأفكار المتعلقة بتقرير المصير ستبدأ في التغلغل في وجدانها؟ وقد سُجِّلَت هذه المجادلة بأسلوب يعبر عن قوتها في كتيب ويليام بيرك William Burke، (وهو زميل مقرب ولكن ليس قريبًا لإدموند الذي يفوقه شهرة)، حيث كتب يقول:

> «سيدي، لو لم تضع كندا أي عوائق أمام شعوب مستعمراتنا، فسوف يتوغل الناس، دونما قيود تقريبًا، إلى داخل البلاد. وسوف يدعوهم لذلك كل ما تتمتع به الدولة من مباهج وخصوبة ورخاء. وسوف تتزايد أعدادهم دون توقف بناءً على كل تلك الأسباب. فأي

العواقب ستترتب على وجود شعب ضخم مستقل شديد الصلابة يُحكم سيطرته على دولة قوية، ولا يكاد يتواصل تقريبًا مع إنجلترا؟ إنني أترك الإجابة لمخيلتكم. أتمنى ألا نكون قد كبدنا أنفسنا تلك التكلفة الهائلة، دون أن تكون لدينا أدنى فكرة عن كيفية المحافظة على ثمار عملنا هذا لأبنائنا في المستقبل. أما إن فعلنا ذلك حقًّا، فأتمنى أن نكون قد تصرفنا بأقل تكلفة ممكنة أو بالبصيرة الثاقبة.»

وقد كانت بصيرة ويليام بيرك بالفعل ثاقبة إلى أبعد حد، فقد استولت بريطانيا على كندا بالفعل، وقررت أيضًا تعويض التكاليف الضخمة لحرب السنوات السبع، التي كانت حماية المستعمرات الثلاث عشرة من ضمن أسباب قيامها، وذلك برفع الضرائب المفروضة على رعاياها الأمريكيين الذين يفترض بهم الشعور بالامتنان والعرفان. وقد أدى هذا لاندلاع ثورة، انتهت إلى انفصال سياسي عام ١٧٧٦م، حين انقلب ميزان القوة العسكرية ضد بريطانيا بسبب فرنسا التي صارت تريد الانتقام بسبب الإذلال الذي تعرضت له عام ١٧٦٣م. ويرى الكثير من المؤرخين أن ثمن هذه الحملة العسكرية على دولة فرنسا — التي كانت كنوزها قد استنزفت بالفعل — كان فادحًا، وعجّل بحدوث أزمة الإفلاس التي أجبرت الملك لويس على استدعاء مجلس العموم Estates General، وعلى البدء في حلّ النظام القديم ancién regime، مما أسفر في النهاية عن اندلاع الثورة عام ١٧٨٩م.

إذن، فالتحليل الذي قدمه بيرك يلقي الضوء على أغلب أحداث حياة جيفرسون السياسية الطويلة. لقد كان تحقيق الاستقلال لأمريكا ممكنًا من طريقتين: أولاً: بإجادة التلاعب بالخصومة الواقعة بين القوتين الاستعماريتين الرئيسيتين السابقتين، وهما: فرنسا، وبريطانيا. وثانيًا: عن طريق التعامل بسياسة النفس الطويل مع الإمبراطورية المتداعية للسقوط التي استطاعت في بادئ الأمر قهر أمريكا؛ إنها إسبانيا التي كانت فيما مضى دولة عظمى ولكنها صارت الآن تتهاوى بسرعة، إلا أنه لم يكن من الممكن تجاهل حقيقة أن تعداد السكان في أمريكا كان يقل عن الخمسة ملايين نسمة (وخُمسهم

تقريبًا من العبيد الأفارقة)، وكان تعداد فرنسا يبلغ سبعة وعشرين مليون نسمة، وتعداد بريطانيا يبلغ نحو خمسة عشر مليون نسمة. ومن ثَمَّ، فقد كان على تلك الدولة الجمهورية اليافعة أن تنظر دائمًا إلى المساحة الشاسعة من الأرض التي تأسست على أطرافها بصورة تعرض وجودها للخطر. وفي وسط مربع القوة هذا، برز جيفرسون باعتباره المرادف الجمهوري للملك الفيلسوف، الذي كان على استعداد للتضحية — ببرود — بكل المبادئ وبكل الولاءات تحقيقًا لهدف واحد أعظم؛ هو أن تستمر أمريكا دائمًا.

وقد تطلب الأمر بعض الوقت قبل أن تتحول حياة جيفرسون نفسها إلى السير بنفس السرعة ونفس الوتيرة التي أملتها الأحداث الجارية في الوقت ذاته. ففي عام ١٧٦٨م، أصبح عضوًا في برلمان فيرجينيا المصغر Virginia's House of Burgesses؛ وهو برلمان محلي ينعقد أحيانًا ويضم أعضاءً ينتمي معظمهم لطبقة جيفرسون الاجتماعية، وذلك دون خوض الكثير من عناء الانتخابات. ومع ذلك، فقد أخذ جيفرسون واجباته على محمل الجد، وشرع — حرفيًّا — في تنفيذ مشروع أظهر على ما يبدو كيف تحدد مسار حياته مبكرًا جدًّا. فقد انطلق في زورق صغير محاولًا استكشاف الأسباب التي تمنع فتح نهر ريفانّا للملاحة. ولاحقًا، حدد العقبات ووجد أنه من الممكن التغلب عليها، ثم بدأ تنفيذ خطة لتطهير مجرى النهر مما ساعد على التقليل من صعوبة عملية نقل التبغ والمحاصيل الأخرى التي كانت تُنقل حتى ذلك الوقت برًّا إلى نهر جيمس، الأكبر حجمًا وإن كان أبعد مسافةً. ومن الناحية العلمية والعملية أيضًا، فإن هذه المخاطرة تنبئ عن أحلامه الكبرى التي ستأتي لاحقًا، وهي نقل البضائع بحرًا عبر القارات، وتركيزه الدءوب على أهمية نهر الميسيسيبي. ومع حلول عام ١٧٧٣م، صار يعمل ماسح أراضٍ بمقاطعة ألبرمارل — وهي وظيفة برع جورج واشنطن في أدائها بصورة متميزة أيضًا — وقد شعر أنه استحق تلك الوظيفة عن جدارة، بغض النظر عن أن والده كان يعمل بها أيضًا.

وفي نفس العام، توفي والد زوجته؛ جون ويلز تاركًا لابنته (أي إنه بموجب القانون آنذاك ترك لزوج ابنته) ممتلكات ضاعفت من أملاك جيفرسون.

وذكر أيضًا في وصيته العبيد الذين يعملون في الأرض، ومن بينهم ابنة غير شرعية له — وهي — من ثَمَّ — نصف شقيقة لمارثا جيفرسون — وتدعى سالي هيمينجز "Sally Hemings". وفي نفس الوقت بدأ جيفرسون الشاب وزوجته ينجبان أطفالهما الذين بلغ عددهم ستة أطفال لم يتخط منهم مرحلة الطفولة سوى طفلين. وقد عانى جيفرسون، بطرق مختلفة جذريًّا، بقية حياته بسبب هذه الثروة الجديدة التي اكتسبها من أملاك وعبيد؛ فقد أورثته الديون والمسئوليات التي تخطت قدرته على التعامل معها. ومع ذلك، فقد كان بوسعه آنذاك أن يسعد بحظه الذي هيأ له امتلاك منزل رائع، وعائلة في نمو مستمر، واحترام أقرانه له، وفرصة التقدم على المستوى المهني.

ولو عاش جيفرسون في حقبة أخرى، لكان من الممكن أن يشتهر محليًّا باعتباره شخصًا مبتكرًا، علّم نفسه بنفسه، واكتسب سمعة في المناطق الريفية باعتباره رجلًا صارمًا وسيدًا عطوفًا على عبيده مع ذلك، وامتُدِح لولائمه العامرة، وجودة الخمر في بيته، وسعة اطلاعه ورحابة صدره. ولكن كان من الواضح أن هناك شيئًا ما بداخله يجعله نافد الصبر، ويحثه على البحث عن مجال أكبر لتفريغ طاقته. الواقع أن هذا الوقت بالتحديد هو وقت وقوع أزمة الإمبراطورية البريطانية في شمال أمريكا التي جعلت من الصعب على أي شخص — ما عدا المتبلد — أن يكتفي بحياته الخاصة فقط.

ومع ذلك، في عام ١٧٧٣م، كان جيفرسون لا يزال قادرًا على عمل توازن بين تلك الحياة الخاصة ومسئولياته العامة. وكان قادرًا أيضًا على تخيل موازنة — اتضح لاحقًا أنها موازنة وهمية — بين المطالب السياسية الخاصة بفيرجينيا بوجه خاص، والمستعمرات الثلاثة عشرة بوجه عام، واستمرارية الحكم الملكي في أمريكا الشمالية. وهناك بعض الأحداث التي كانت بمنزلة بروفات كاملة أنبأت بظهور حالة تمرد؛ ففي مايو/أيار عام ١٧٦٩م قام الحاكم البريطاني بحلّ برلمان فيرجينيا المصغر الذي يتسم بالهدوء في المعتاد وذلك في أعقاب رفض البرلمان الانصياع في مسألة الضرائب. ولكن أعضاء البرلمان، بمن فيهم جيفرسون نفسه، توجهوا بكل هدوء إلى قاعة أبوللو بحانة راليه — وهو نفس المكان الذي شهد رفض الآنسة بارويل المثير للغضب لدعوة

الرقص التي وجهها لها جيفرسون — وهناك أعادوا تنظيم أنفسهم مكوّنين «جمعية» هدفها الوحيد مقاطعة المنتجات التي يفرض البرلمان الضرائب عليها. (الواقع أنه يجب عمل دراسة مفصلة عن الدور الذي أدته الحانة في الثورة الأمريكية.) وبمعايير تلك الأيام، كانت كل الأحداث السابقة بمنزلة معارك طفولية بسيطة، فقد خبت جذوة التمرد بهدوء في عام واحد فقط، إلا أنها مع ذلك تبقى جديرة بالذكر لتخدم أغراضنا في سياق موضوعنا، بالإضافة لسببين آخرين: السبب الأول أن الحاكم الحاد الطباع، نوربورن بيركيلي Norborne Berkeley، بارون مقاطعة بوتيتورت، مع براعته؛ كان يعد بموجب اسمه ولقبه رمزًا مثاليًّا لتلك «القيود النورماندية» التي كانت مفروضة على الحريات في إنجلترا قديمًا، التي بدأ بِين وجيفرسون وكثيرون غيرهما في إعادة إحيائها باعتبارها بندًا من بنود الحملات الدعائية. والسبب الثاني أن فكرة الحرب الاقتصادية، المتمثلة في العقوبات الاقتصادية والمقاطعات، وفرض الحظر على السفن والبضائع؛ قد بدأت تختمر في عقل جيفرسون المتفتح.

ومع ابتعاد برلمان فيرجينيا المصغر عن إثارة المشاكل، على الأقل إذا ما قورن بالأوقات التالية، فإنه أتاح لجيفرسون الفرصة للاستماع إلى خطبة ثورية كاملة ألقاها باتريك هنري "Patrick Henry"، مع إقناع نفسه بأن موهبته الخاصة هي على النقيض من موهبة باتريك. ولأنه لم يكن يومًا متحدثًا بارعًا (وهذا وصف على أقل تقدير وفقًا للروايات المعاصرة)، فقد اكتشف في نفسه موهبة الكتابة الدقيقة لهوامش القوانين والإجراءات القانونية، وموهبة دمج الحجج القانونية بالسياسية، وموهبة تركيب الأفكار المعقدة بأسلوب واضح سلس. وقد تسببت المواهب السابقة — بالإضافة إلى موهبته كقارئ نهم — في استمرار احتياج البرلمان إليه، في الوقت الذي تصاعدت فيه حدة الخلافات مع الملك جورج الثالث لتصل إلى درجة الأزمة. وهكذا صار في عام ١٧٧٣م عضوًا مؤسسًا فعالًا في «لجنة المراسلة» بفيرجينيا؛ وهي وسيلة شرعية لتحقيق التواصل بين قوى المعارضة في المستعمرات المتباينة، وكانت بمنزلة بذرة «كونجرس القارات». أما القرار الرسمي بتأسيس تلك اللجنة (التي حملت أصداء «جمعية لندن للمراسلة»

عبر البحار) فقد كتبه جيفرسون. وفي العام التالي، بعد أن فرضت بريطانيا عقوبة جماعية على بوسطن، وبعد الجدل الشهير الذي دار حول مصير خطة شركة الهند الشرقية غير الحكيمة بإغراق السوق بالشاي — التي كان الغرض منها آنذاك هو الانتقام — أسهم جيفرسون في تقديم اقتراح باسم فيرجينيا لعمل يوم للتضامن مع أهالي ماساتشوسيتس. وبعد الموافقة على ذلك الاقتراح، قام الحاكم البريطاني الجديد، اللورد دانمور، بحلّ البرلمان المصغر مرةً أخرى، ومن ثَم توجه جيفرسون ورفاقه من جديد إلى حانة راليه لاستعادة نشاطهم ولمّ شملهم. ولاحقًا في عام ١٧٧٤م، اتخذ جيفرسون لنفسه اسمًا حركيًّا هو «مواطن فيرجيني»، عند كتابته للوثيقة التي تحمل عنوان «رؤية ملخصة لحقوق أمريكا البريطانية». وقد كان ذلك البحث الجدلي بمنزلة تمرين قانوني وأخلاقي ضروري، أو هو نوع من «الإنذار الأخير» للملك جورج لتحذيره من أن صبر رعاياه في المستعمرات قد قارب النفاد. وعندما أعيدت طباعة المقالة في لندن على شكل كتيب، كان لها تأثير ملحوظ على المناقشات التي بدأت وقتها في ويستمينستر. وجدير بالذكر أن إدموند بيرك — الذي كان من مؤيدي قيام مستعمرة نيويورك آنذاك — قد أسهم بنفسه في إعدادها للصحافة كجزء من مجهوداته الشخصية في تحقيق المصالحة.

وقد أظهرت مقالة «رؤية ملخصة» مدى الخسارة التي لحقت بمهنة المحاماة وعالم القانون عمومًا بترك جيفرسون لهما؛ فهو الرجل المناسب لمن يرغب في محامٍ بإمكانه الترافع في المحكمة عن أي من طرفي النزاع في أية قضية. غير أن جيفرسون أقام قضيته الأساسية على دعوى قَبَلية تمامًا، الأمر الذي ربما يعد غريبًا لرجل أوشك أن يشتهر بإعلانه لبعض المبادئ العالمية. فقد رأى جيفرسون أن مستوطني ساكسونيا القديمة في إنجلترا قد انتقلوا طواعيةً من القارة الأوروبية إلى جزيرة، وأن المستوطنين الأمريكيين في أمريكا الشمالية قد انتقلوا طواعيةً بدورهم من تلك الجزيرة إلى قارة أخرى. وقد حقق كلا الفريقين الحكم الذاتي، وأسسا مجتمعات مستقلة. وفي الحالتين، لم تحدث أية خسارة لأية حقوق؛ إذن فحرية ساكسونيا

هي حقها الفطري الأصيل ولا يمكن التنازل عنه للملك جورج، تمامًا كما لم يكن ممكنًا التنازل عنه للسكسونيين السابقين بألمانيا. بل الأحرى أن أي رجل إنجليزي يعيش في أي مكان يمتلك نفس الحقوق التي يمتلكها الرجل الإنجليزي الذي يعيش في إنجلترا ذاتها. ومِن ثَمّ، كان من السهل إثبات فكرة أن كلًا من الملك والبرلمان كانا يحكمان على أشخاص — تتشابه ظروفهم — بمعايير مختلفة؛ حيث يجري تقييد التجارة وفرض الضرائب وتوسيع نطاق السلطة القضائية للمحاكم البعيدة على الفرع الأمريكي فقط. وفي تعليق ساخر على تأثير الإجراءات السابقة على مواطني بوسطن المعاقبين ظلمًا، قال جيفرسون: إنهم الآن في طريقهم إلى «الدمار، الذي ستلحقه بهم (اليد غير المرئية) التي تحكم كل ما يتعلق بتلك الإمبراطورية العظيمة من قضايا خطيرة.» ولاحقًا في عام ١٧٧٦م، قام آدم سميث بنشر كتابه «ثروة الأمم»، الذي دافع فيه عن نظام التجارة الحرة، وأكد — عرضًا — على أن المستعمرات تمثل تبديدًا للموارد. وربما تكون نسخة شاردة من مقالة «رؤية ملخصة» قد وقعت في أيدي سميث مصادفةً، قبل أن يقدم نظريته عن «اليد الخفية».

وفي مقالة جيفرسون، فإن الحريات الأصلية التقليدية للسكسونيين الأصليين لم يجر إلغاؤها في أعقاب هزيمتهم على يد ويليام الغازي في هاستينجز عام ١٠٦٦م. بل الأحرى أن التاريخ الإنجليزي اللاحق كله كان بمنزلة معركة بطيئة، ولكن متواصلة بإصرار من أجل إعادة التأكيد على تلك الحقوق. ولاحقًا، عَبّر الشاعر الملحمي الأنجلو سكسوني كيبلينج Kipling عن تلك المعركة في قصيدته التي كتبها عام ١٩١١م بعنوان «نورمان آند ساكسون» أو (النورماندي والساكسوني)، حيث كتب فيها بعض وصايا بارون نورماندي يحتضر لوريثه في عام ١١٠٠م:

> «الرجل الساكسوني يختلف عنّا نحن النورمانديين، فأسلوبه غير مهذب.
> ولكنه لا يشكل خطرًا، إلا عندما يتكلم عن العدل والحق.

فإذا ما واجهك يومًا كالثور الهائج، ونظر في عينيك بعينين حزينتين،
ودمدم في وجهك قائلًا: «إن هذا ليس عدلًا»؛ فاترك السكسوني
لحاله يا بني.»

وقد تمثلت النقاط الفارقة في تاريخ ذلك الصراع القديم في الماجنا كارتا أو (الميثاق العظيم للحريات الذي أقره الملك جورج) وذلك في عام ١٢١٥م، والتحجيم الإجباري للحقوق الإلهية للملك مع نهاية الحرب الأهلية الإنجليزية، ونمو السلطة البرلمانية. وكان من الممكن أن يلجأ أعضاء حزب المحافظين الإنجليز إلى فكرة الدستور «غير المكتوب»، والفصل غير الرسمي بين السلطات، إلا أن جيفرسون — في إشارته المحايدة إلى «اليد غير المرئية» — بدأ صياغة المفهوم المستقبلي لوثيقة مكتوبة للحقوق، وربط نفسه بالتقاليد الأدبية والسياسية الإنجليزية المتشددة الممتدة عبر الذاكرة الشعبية لثورة الفلاحين عام ١٣٨١م، وبالمعركة التي قامت من أجل ترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية على يد كلٍّ من ويكليف "Wycliffe" وتيندِل "Tyndale"، وبالشعر المعادي لسلطة الملك الذي كتبه جون ميلتون — الذي خط بقلمه أيضًا تلك الجملة الجبّارة التي تقول «بالقواعد المعروفة للحريات القديمة.» أما النموذج المثالي لذلك العُرف الخاص بالمذاهب الإنجليزية الجمهورية والمعادية للإكليروسية، توماس بِين، الذي علم نفسه بنفسه والذي عمل صانع مشدات ومحصلًا للضرائب ثمّ طرد من عمله، فقد كان في هذا التوقيت بالتحديد منغمسًا في مناقشات مع زملائه من المنفيين ستؤدي به في النهاية إلى نشر كتيب «المنطق السليم» "Common Sense"؛ الذي يُعد أكثر المنشورات نجاحًا في التاريخ، حيث سيكون فيما بعد الحافز لاعتبار الاستقلال الممتلئ بالشجاعة والثقة بمنزلة التعويذة السحرية التي ستصنع الكبرياء الأمريكي الحديث.

إلا أنه في عام ١٧٧٤م، كان جيفرسون ومعظم رفاقه ما زالوا مصرين على اعتبار أنه من العدل والحذر أيضًا أن يوضحوا أوجه اختلافهم مع القصر، وأن يلتمسوا من الملك الإبقاء على الأسرة الأنجلو-ساكسونية تحت سقف إمبراطوري واحد؛ فقد صرح جيفرسون قائلًا: «إن أمريكا لم يهزمها

ويليام النورماندي، ولا خضعت أراضيها له أو لأحد من خلفائه.» وما من شك في وجود نبرة استعلاء في الأسلوب الذي صاغ به جيفرسون عبارته السابقة (الأمر الذي أثار بالطبع غضب الملك ووزرائه من ذلك الأسلوب الوقح)، إلا أن العرض الذي قدمه جيفرسون كان وجيهًا مع كل شيء:

> «فلنمنع تشريع أي قانون من قِبَل أي مشرع من شأنه أن ينتهك حقوق وحريات أي مشرع آخر. إن تلك هي المهمة التي أسعدكم الحظ بتوليها؛ ألا وهي المحافظة على توازن إمبراطورية عظيمة على قدر كبير من التوازن بالفعل. وتلك يا سيدي هي النصيحة التي يقدمها لك مستشارك الأمريكي الكبير، التي ربما تتوقف سعادتك وشهرتك المستقبلية على عملك بها، بالإضافة إلى الإبقاء على ذلك التناغم الذي من شأنه وحده أن يحافظ على استمرار تبادل المنافع بين كلٍّ من بريطانيا العظمى وأمريكا الناتج عن تواصل الدولتين. إن الانفصال عن بريطانيا لا هو رغبتنا ولا يحقق مصلحتنا.»

وكانت تلك هي تقريبًا آخر مرة يُنطق فيها ذلك الرأي الأخير بما يشبه الصدق. وقد أشار جيفرسون، في فقرة تحذيرية سابقة لتلك الفقرة، إلى وجود حشود هائلة من الفرق العسكرية البريطانية على أراضٍ أمريكية، وعلق عليها قائلًا: «إنها لا تتألف من أهل المنطقة، ولا سمحت لها سلطة قوانيننا بالتواجد.» وقد كان في هذا السياق تلميح إلى أن الكثير من الجنود المحتلين ينتمون إلى هانوفر أو إلى هيس. ولاحقًا، عندما تحدث جيفرسون عن المناقشات التي سبقت إعلان الاستقلال، ذكر اعتبارًا جغرافيًّا سياسيًّا واحدًا مفاده كالآتي: «إن الخطأ الفادح الذي وقعنا فيه كان عدم تحالفنا مع فرنسا قبل ستة أشهر، فبالإضافة إلى أن هذا التحالف كان سيؤدي إلى فتح الموانئ الفرنسية منفذًا لبضائعنا التي أنتجناها العام الماضي، فربما كانت فرنسا ستتوجه بجيوشها إلى ألمانيا، بحيث تمنع الأمراء التافهين هناك من إقناع مواطنيهم التعساء بمحاولة قهرنا.» وكان جيفرسون يضع في اعتباره دائمًا مسألة التوازن العالمي للقوى، وكان كثيرًا ما يسعده أن يرى

تفجر العداوات بين قوتين أو ثلاث قوى من القوى العالمية الرئيسية في ذلك الوقت.

غير أنه في المدة ما بين عامي ١٧٧٤م و١٧٧٦م، لم يكن بوسع الثوار الوطنيين الأمريكيين سوى الاعتماد على قوة سواعدهم. وبالطبع، فقد كان هناك الكثير من التردد المعتاد حول مسألة مقاطعة الدولة الأم، إلا أن ملك تلك الدولة الأم المتعجرف ومن حوله من وزراء محافظين سهلوا الأمر على الثوار المترددين عن طريق تتبعهم لكل عوامل الانقلاب الواضحة في مقالة جيفرسون المهذبة «رؤية ملخصة» وفي احتجاجات أخرى مشابهة ذات صلة، وأيضًا عن طريق تصرفهم وكأن هناك بالفعل حالة من التمرد؛ قد جرى حلّ المجالس المحلية، وترجل الجنود عن سفنهم، وأُعْلِنت تصريحات بتهمة «الخيانة». وقد خاض الجنود بعض المناوشات العسكرية المريرة خاصةً في ماساتشوسيتس. وبدأ رجال الدولة ورجال الملك في الرحيل إما إلى كندا أو إلى لندن. وفي يناير عام ١٧٧٦م، حققت مقالة بِين الجدلية الخالدة أعلى المبيعات فور صدورها. وبحلول الصيف، اجتمع الكونجرس في فيلادلفيا، حيث كان الموقف الأخلاقي، وكذلك العملي، لمؤيدي الثورة هو الأقوى في مداولات المجلس. وقد سطع نجم جيفرسون هناك بشدة، ولم يتوقف إلا هنيهة لحضور جنازة والدته التي لم يحبها قط.

لقد سبقته شهرته دائمًا مؤلفًا لمسودات القرارات، وكاتبًا ذا قدرة توضيحية عالية، بالإضافة إلى قدرته الفائقة على اقتراح التسويات. والواقع أن تعيين جيفرسون في اللجنة المسئولة عن صياغة إعلان الاستقلال نتج جزئيًّا عن إحدى التسويات. فالمسئول عن صياغة القرارات التي دعت المستعمرات الثلاثة عشرة إلى إعلان استقلالها، وإلى تكوين «اتحاد كونفيدرالي دائم»، وإلى السعي للحصول على اعتراف وتقدير الدول عبر البحار والتحالف معها، كان ريتشارد هنري لي "Richard Henry Lee"، وهو نفسه ينتمي لفيرجينيا. ولكن مسقط رأس ريتشارد كان يحتاج إليه، وفي نفس الوقت كان الكونجرس في حاجة إلى أحد مواطني فيرجينيا تمامًا كحاجته إلى بعض مواطني نيو إنجلاند، وبعض النواب عن المستعمرات الوسطى. وقد تألفت بقية مجموعة

صياغة المسودة من جون آدامز، وبنجامين فرانكلين، وروجر شيرمان من كنيتيكيت، بالإضافة إلى روبرت ليفينجستون من نيويورك.

ولا يوجد مثال آخر في التاريخ، باستثناء صياغة نسخة الملك جيمس المترجمة للإنجيل، صُهِرَت فيه الكلمات والأفكار العظيمة في بوتقة النثر الشعري على يد لجنة ما بأسلوب مبتذل قلَّل من قيمتها. وكما هو الحال مع انعقاد الاجتماع الكنسي غير العادي لعلماء الدين في قصر هامبتون كورت بتوجيه من الكاهن لانسيلوت أندروز "Lancelot Andrewes" عام ١٦٠٤م، والتجمع اللاحق للمثقفين والثوار في فيلادلفيا عام ١٧٧٦م، فإننا نجد جزءًا من التفسير في الظهور المتزامن لبعض الفلاسفة ورجال المواقف المؤثرة الذين اجتمعوا على فكر واحد، وذلك تحت ضغط حالة من التأزم والتحول المعترف بها. وهنا أيضًا، تستحق صفة التواضع أن نشيد بها؛ فالإصرار على القيام بأفضل عمل يمكن القيام به عمومًا كان تقويمًا رائعًا لحالة الزهو، إلا أن تواضع جيفرسون كان في بعض الأحيان لا يعبر عن حقيقة مشاعره. فلدينا الكثير من المواقف، على مدار طريق صعوده إلى قمة السلم السياسي، شكا فيها من أن الشرف عظيم جدًّا، وأن الحمل ثقيل جدًّا، وأن المكانة عالية جدًّا. (وكأنه كمتحدث باسم مجلس العموم قد جُرَّ جرًّا إلى ذلك المنصب يوم تعيينه فيه، أو كأنه أُجبر على تولي تلك المهمة القيادية.) إلا أنه كان يتعين على أحد ما تنفيذ المسودة الأولى، ونحن نعلم من كلام خصمه اللدود جون آدامز أن تحفُّظ جيفرسون قد جرى تجاوزه ببساطة في ذلك الموقف. ولقد اعتُبر جيفرسون بوجه عام أفضل الكتّاب، وأكثر المحامين دقة، وقد تراودنا الرغبة أحيانًا في رؤية نسخة من صياغة فرانكلين — التي ربما كانت ستحتوي على مزحة واحدة على الأقل — ولكن ذاك لم يكن هو حال نسخة جيفرسون.

مرت عدة سنوات قبل أن يُعرف جيفرسون باعتباره مؤلف إعلان الاستقلال، أو بمعنى آخر قبل أن «تتغلغل» الكلمات نفسها تدريجيًّا في وجدان الناس، ويصبح لها نفس الوقع الذي لا تزال تملكه حتى اليوم. ومن الدلائل الأخرى التي تثبت ثقة جيفرسون الشديدة بقدراته، بالإضافة إلى حسه التاريخي والبلاغي، استياؤه الدائم من التعديلات التي كان الكونجرس

يضيفها إلى نصه الأصلي. وقد قام بإعادة كتابة تلك التعديلات، كنص موازٍ، في سيرته الذاتية الخاصة، واهتم بدراستها وتفنيدها بدقة تمامًا كما فعل مع المصادر الفكرية التي استخدمها عندما انتقل للإقامة في نُزُل متواضع لمدة سبعة عشر يومًا، لم يقم فيها على خدمته سوى خادم واحد من خدمه في قصر مونتيتشيللو يدعى روبرت هيمينجز — وهو الأخ الأكبر لسالي.

إن أكثر الأعمال فعالية هي تلك التي تخبرك بأمور تعرفها بالفعل، وذلك كما لاحظ وينستون سميث، الإنسان البائس المضطهد في رواية (١٩٨٤م) لجورج أورويل عندما قرأ كتاب المعارضة المحرمة الذي يعتبر «سرّيًّا». (وفي قاموس «نيو سبيك» الذي تُختتم به هذه الرواية، هناك فقرة نثرية معينة مكتوبة كنموذج لما لا يمكن ترجمته إلى مصطلحات قاموس «نيو سبيك». وتبدأ الفقرة كالآتي: «إننا نؤمن بأن هذه الحقائق واضحة بذاتها بغير حاجة إلى دليل يثبتها …») وفي ذلك العام الذي قامت فيه الثورة، اشترك جيفرسون وبِين في امتلاك موهبة تلخيص ما هو مفهوم بالفعل على نحو شديد الكفاءة والإيجاز، ودَفْع جمهور متقد الحماسة بالفعل لاتباع منطق صارم. ولكن في الوقت نفسه كان عليهما التغلب على حالة من التذبذب وانعدام الأمان يصعب علينا الآن فهمها باسترجاع الأحداث الماضية. ولكن دعنا لا ننساق في مثل هذه الحالة وراء أفكار غير مؤكدة. إذن، فبعد تلك الفقرة التي تبدو متواضعة ولطيفة على نحو خادع، والتي تقر واجب تقديم تفسير كامل وإبداء «الاحترام اللائق»، فإن أول عبارات الإعلان الفعلي تقرّ بأن هناك حقائق محددة — أو هي كلمات حاسمة — تعد «واضحة بذاتها».

هذا الأسلوب — الموجز اللاذع، مع كونه منمقًا برشاقة ألفاظه — جمع بين اللغة السهلة الواضحة التي استخدمها توماس بِين وأساليب جون لوك "John Locke" الأكثر فخامة في الشرح، الذي استُلهمت بعض أفكار الإعلان من كتابه «الدراسة الثانية للحكومات المدنية» الذي نُشر عام ١٩٦٠م. (جدير بالذكر أن لوك، الذي كتب عن الاسترقاق أنه «أمر مشين وغير مقبول لأنه يعتبر الإنسان متاعًا يُمتَلك … حتى إنه لا يمكن تصور أي رجل إنجليزي، وبالتأكيد أي نبيل إنجليزي، يطالب به»، كان هو من كتب بنفسه مسودة «الدستور الأساسي»

لولاية كارولينا والخاص بامتلاك العبيد بصورة مطلقة عام ١٦٦٩م.) أما جيفرسون، فقد اختلف عن لوك في إرسائه لقواعد مبدأ المساواة بين البشر على أساس من حقائق الطبيعة الملحوظة، والظروف الإنسانية العامة. ولأن رأيه أصلًا تمثل في أن حقوق البشر نابعة من «تساويهم في الخلق»، فقد نجح في تعديل الفكرة التي تقول بأن «الخالق قد منح الإنسان حقوقًا معينة لا يسع الإنسان التنازل عنها»، محاولًا بذلك على الأرجح رأب الصدع بين المسيحيين والربوبيين. وفيما تحدث لوك عن «الحياة، والحرية، والممتلكات» باعتبارها حقوقًا طبيعية، كتب جيفرسون بأسلوب رائع عن «الحياة، والحرية، وملاحقة السعادة». وما زلنا نختلف حول مقصده في العبارة السابقة؛ فهل قصد السعي وراء تحقيق السعادة أم أن السعادة نفسها هي هدف يستحق ملاحقته؟ ولكن بالنظر إلى الوضع الاجتماعي المتميز الذي حظي به معظم النواب البرلمانيين في فيلادلفيا، فالواقع أنه من المدهش أن أيًّا من الفكرتين كان يجب أن تكون لها الأسبقية على فكرة المِلكية. لقد كانت هناك حاجة ماسة آنذاك للإلهام (وبعد أن تمت كتابة الدستور، عادت حقوق الملكية لمكانتها المعتادة)، إلا أن عبارة «ملاحقة السعادة» تنتمي لتلك الفئة المحدودة من العبارات الثمينة التي غيرت مجرى التاريخ، ويبدو أن النواب قد أدركوا ذلك بمجرد أن سمعوها.

والواقع أن توماس جيفرسون هو واحد من حفنة قليلة من الأشخاص الذين ارتبطت أسماؤهم بصورة من صور الديمقراطية. وفي تلك المدة، لم تكن لفظة الديمقراطية دارجة الاستخدام، وإن استُخدمت فلم يكن مدلولها إيجابيًّا دائمًا. (فقد كان جون آدامز يستخدم كلمة «ديمقراطي» بمعنى فاسد أو مُخرب.) ولكن الفكرة التي تقول إن الحكومة تنبع من الناس وأنها ليست هبة مهداة لهم ولا مفروضة عليهم، كانت على الأرجح أكثر النقاط تطرفًا في إعلان الاستقلال. وقد قارن جيفرسون لاحقًا الحكومة بالملابس باعتبارها «شارة البراءة المفقودة»، مستلهمًا ذلك التشبيه من أسطورة التعري الأول والخطيئة الأولى في جنة «عدن». وفي كتابه «المنطق السليم»، قال بِين: «إن المجتمع هو نتاج رغباتنا، والحكومة هي نتاج شرورنا.» وفي محاولة لإيجاد

حل وسط بين الحكومة باعتبارها شرًّا لا بد منه — أو شرًّا حتميًّا — وبين قائمة الشكاوى من المَلَكية الوراثية، قدم الإعلان عرضًا بفكرة «موافقة المحكومين» ومن هنا نشأت التجربة التي نطلق عليها الديمقراطية الأمريكية أو في بعض الأحيان ديمقراطية جيفرسون.

أما الجزء المتبقي من إعلان الاستقلال، فقد احتوى على لائحة اتهامات متعددة العناصر ضد الملك جورج الثالث لتجاوزاته العديدة والخسائر التي تسبب في إحداثها. ومن بين فقرات لائحة الاتهامات السابق ذكرها فقرة ذات أهمية خاصة لجيفرسون، فلم يكن ليرضى أبدًا أن يقوم أيٌّ من زملائه من أعضاء اللجنة بشطبها. أما الفقرة فهي:

> «لقد شنّ الملك (جورج) حربًا قاسية على الطبيعة الإنسانية ذاتها، منتهكًا أكثر حقوقها قدسية؛ حق الحياة وحق الحرية لأشخاص ينتمون إلى شعب بعيد لم يغضبه في شيء من قبل، حيث أسرهم وأخضعهم للاسترقاق في النصف الآخر من الكرة الأرضية، أو عَرضهم لميتة مأساوية أثناء نقلهم إلى هنا. إن حرب القراصنة تلك، والسلوك المخزي للسلطات «الكافرة»، هي حرب ملك بريطانيا العظمى «المسيحي». وبتصميمه على الإبقاء على سوق تباع فيها الرجال وتُشترى، فقد أساء استغلال قدراته التي تمنحه حق الرفض بهدف قمع كافة المحاولات التشريعية التي تسعى لمنع هذه التجارة البغيضة أو تقنينها. ويبدو من هذه الفظائع المحتشدة، التي لم تتلون بأية صبغة غير واقعها، أنه الآن يدفع أولئك الأفراد دفعًا لينهضوا من بيننا في ثورة، وليشتروا حريتهم التي حرمهم منها، بالقضاء على الأفراد الذين فرضهم عليهم. وبذلك يكون قد دفع ثمن جرائمه السابقة التي ارتُكبت ضد «حريات» شعب ما، بدفعه لارتكاب جرائم أخرى ضد «حياة» شعب آخر.»

والفقرة لها أهمية غير عادية؛ فهي توضح أن جيفرسون لم يستوعب فظائع امتلاك العبيد على الأراضي الأمريكية فحسب، وإنما أيضًا الأهوال التي

تضمنتها عملية النقل الإجباري للعبيد فيما بين أفريقيا وأمريكا، التي أودت بحياة الكثيرين دون رحمة. وتظهر الفقرة أيضًا، باستخدام كلمة «فرضهم»، أن جيفرسون عرف كيف يناشد لدى جمهوره حس الاعتداد بالمبدأ (فكيف يجرؤ الرجال السود على أن يحاربوا في صفوف البريطانيين، كما اعتادوا أن يفعلوا؟)، وأنه — بالتطلع إلى ما هو قادم — لم ير مستقبلًا للسود الأحرار في أمريكا. أما الإشارة إلى «القراصنة» و«الكافرة»، فتكشف عن وعيه المبكر بتجارة بيع الرقيق (النخاسة) «الإسلامية» التي ستستمر على يد ما يُطلق عليه السلطات البربرية في منطقة شمال أفريقيا الإسلامية؛ وهي أزمة أخرى سوف يكون لها دور لاحقًا في حياة جيفرسون العملية.

ومن ناحية، فمن الممكن قراءة الفقرة المحذوفة والشعور بالأسى تجاه حقيقة إعلان أمريكا لاستقلالها دون التبرؤ من «خطيئتها الأولى». فقد تجاهل البناءون إرساء حجر الزاوية، وترتب على ذلك من نتائج ما يقشعر له بدن القارئ، إلا أن جيفرسون ربما كان ساذجًا بعض الشيء، ومعتدًّا بمبدئه أيضًا إلى حد ما، عندما عزا حذف الفقرة السابقة إلى تأثير «جورجيا وكارولينا الجنوبية، اللتين لم تسعيا أبدًا للحد من عملية استيراد العبيد، بل على العكس، كانتا تأملان في استمرارها.» بل إنه سلّم بما هو أكثر من ذلك، في إشارة غير مباشرة — فالسطران التاليان مأخوذان من سيرته الذاتية التي نُشرت عام ١٨٢١م — حيث اعترف قائلًا: «إنني أؤمن بأن إخواننا في الشمال أيضًا قد شعروا ببعض الضعف في ظل هذا التقريع واللوم، فمع أنهم لم يمتلكوا سوى عدد قليل جدًّا من العبيد، فإنهم أسهموا بصورة كبيرة في توصيل العبيد لغيرهم.»

وقد كان هذا تعبيرًا ملطفًا عن الأمر في عام ١٧٧٦م. فقد كان من غير المعقول، سواء في ذلك الوقت أو غيره، أن يُلقى اللوم كله على الملك جورج في موضوع تجارة العبيد. فقد كانت المصالح الأمريكية في تلك التجارة، بالإضافة إلى الأرباح التي تحققها منها، موزعة على نطاق واسع مما يبرر هذا التأكيد. وكذلك، فإن الادعاء بأن الملك أخطأ في فرضه لتلك التجارة كان ملحوظًا في كتاب جيفرسون، «رؤية ملخصة»، الذي كان مقصودًا منه أن يكون محاولة

أخيرة لإصدار بيان كامل بالشكوى، وأن يكون أيضًا آخر جهد يُبْذل للتصالح، لذا فقد كان إقحام هذا الادعاء في تلك المرحلة الحاسمة سيبدو غريبًا بدون شك.

وقد كان جيفرسون يميل إلى الخلط بين قضية المَلَكية ومسألة الاسترقاق، على الأقل عند استعادة الأحداث الماضية. فنجده في سيرته الذاتية، يستعيد مرة أخرى أيامه السابقة في مجلس فيرجينيا التشريعي بعد عام ١٧٦٩م، ويقول: «لقد قمت بمحاولة، حينما كنت أنتمي لذلك الكيان، من أجل السماح بتحرير العبيد، وقد باءت محاولتي بالفشل. الواقع أنه في ظل وجود حكومة مَلَكية، لم يكن من المتوقع أن تنجح أية فكرة تحررية.» وعبارة «السماح بتحرير العبيد»، ومع أنها تبدو مبهرة، فإنها في حقيقتها لا تعني أكثر من مجرد إقرار قانوني بحق الأفراد في «عِتق»، أو تحرير ملكيتهم «الخاصة». ومع ذلك، فإنه من المبالغ فيه توقع تصديقنا أنه في ظل غياب الامتيازات المَلَكية، كان برلمان فيرجينيا المُصغر — الذي يتألف معظمه من مجموعة من أصحاب مزارع التبغ — سيوافق على منح الحرية لعبيدهم. أما العضو الذي تعاون مع جيفرسون على تقديم ذلك الاقتراح المتواضع، ويدعى ريتشارد بلاند "Richard Bland"، فقد اتُّهم بأنه «عدو لوطنه». (وليس عدوًّا لملكه، كما لاحظت.) مما يرغم المرء على الشعور ببعض الشك في أن الرجل الشاب كان يحطم سلاحًا أخلاقيًّا في معركة كان على يقين من خسارته لها. وربما يتخيل المرء أيضًا — بمساعدة حكمة مُستقاة من الماضي — أنه كَرِه «إقحام» — وهو اللفظ ذاته الذي استخدمه في إعلان الاستقلال — حشد من الأفراد السود في فيرجينيا من الأساس، وقد سعى لاشعوريًّا إلى إلقاء اللوم على أية سلطة بعيدة بشأن هذا التواجد الغريب، أو تلك الأفعى، في جنة عدن الأمريكية.

وهذا التأثير المتبادل، بين سياسات فيرجينيا والمُثُل العليا لدولة الولايات المتحدة الناشئة، سوف تشغل تفكير جيفرسون لسنوات عديدة تالية. وبعد أن أنهى عمله الخاص بإعلان الاستقلال، ورأى تلك النسخة المنقوصة منه يجري العمل بها، بقي جيفرسون في فيلادلفيا مع بُعدها عن أسرته الجديدة التي كانت في مرحلة النمو، والتي تقلص عددها بالفعل بسبب وفاة ابنته

الرضيعة، ولم يتهرب من أداء دوره في الأعمال اليومية الخاصة بالكونجرس التي كانت أكثر بطئًا. وكالعادة، كان جيفرسون رجل أفعال، بالإضافة إلى كونه رجل أفكار، وقد أسعدته كتابة تلك التقارير الشاملة. ولا يزال أحد هذه التقارير يتمتع بتأثير قوي؛ فقد أوصى جيفرسون باعتماد «الدولار» الأسباني، بقاعدته العشرية، باعتباره أكثر وحدة معقولة عملة أمريكية، وكانت وصيته ناجحة.

سبق أن أشار فريدريتش إنجيلز إلى القوة الثورية باعتبارها القَابِلة التي بفضل مجهوداتها وُلِد مجتمع جديد من جسم المجتمع القديم. وقد سخرت الكثير من الثورات الحديثة من هذا التشبيه، فدمرت العلاقات الاجتماعية الموجودة بالفعل، ولكنها فشلت في خلق مجتمعات متمدنة. أما في حالة أمريكا، فقد كان هناك نموذج عملي لنظام سياسي حقيقي متواجد وإن كان كامنًا، أو لا يزال في مرحلة الحمل، في إطار النظام السياسي البريطاني المتواجد بالفعل. فقد كانت هناك بالفعل حكومة، واقتصاد، وكونجرس، وإن كانت لا تزال في المرحلة الجنينية، قبل تحقيق الاستقلال بوقت طويل، وقبل أن يُعلن عنه أيضًا. وقد كان لهذه الدولة الكامنة الجديدة ونظامها طموحات تفوق واقعها الحالي آنذاك. وأُرسلت القوات الأمريكية، تحت قيادة بينيدكت أرنولد "Benedict Arnold"، وآرون بور "Aaron Burr"، من بين آخرين، لغزو كندا في ذلك الوقت المبكر عام ١٧٧٥م. (ومع الإخفاق التام الذي حققته تلك الحملة الشمالية، فإن جيفرسون وآخرين كانوا يميلون دائمًا إلى الادعاء بأن المقاطعات البريطانية والفرنسية السابقة في كيبك "Quebec" وأونتاريو "Ontario" التي فُقِدت، سوف تصبح جزءًا من الاتحاد في آخر الأمر.) الواقع أنه من ضمن النتائج المتناقضة التي ترتبت على الثورة الأمريكية أنها ساعدت على تعزيز قوة السلطات البريطانية والمَلَكية في مكان آخر في شمال أمريكا. وسواء نظرنا إلى الأمر باعتباره استكمالًا لحرب السنوات السبع أو للحرب الفرنسية والهندية أم لا، فإن هذا الهجوم الفاشل على الشمال يكشف عن الطموحات الاستعمارية، بل الإمبراطورية التي تخفيها تلك الجمهورية الجديدة بداخلها.

ومع حلول سبتمبر من عام ١٧٧٦م، شعر جيفرسون أن مكانه الصحيح كان هناك في فيرجينيا، فإن له بالفعل مقعدًا بمجلسها التشريعي. وبناءً عليه، فقد استقال من الكونجرس عائدًا لمسقط رأسه حيث وجد نفسه متورطًا من جديد في خلافات حول مبادئ أولية. فقد تبنت ولايته الأم دستورًا خاصًّا بها في غيابه، وشعر جيفرسون بضرورة إخضاع تلك الوثيقة للتساؤل بسبب ما تتضمنه من معالم محافظة راسخة. وبإمكاننا تصور مدى الأهمية التي علقها على ذلك الأمر إذا علمنا أنه في نفس الشهر الذي عاد فيه إلى ويليامزبيرج — أكتوبر ١٧٧٦م — تلقى إخطارًا بانتخابه من قِبَل الكونجرس مفاوضًا في معاهدة التحالف بين الولايات المتحدة وفرنسا، مما يُحتم رحيله إلى باريس، بصحبة كلٍّ من بينجامين فرانكلين، وسايلاس دين "Silas Deane". وقد عبر عن رفضه بكلمات أصبحت مألوفة لدينا الآن، حيث تحدث عن حاجته لقضاء المزيد من الوقت مع أسرته. ولم يكن جيفرسون بهذه الطريقة يحاول وضع رفضه في إطار مهذب؛ فقد كان هو وزوجته قد فقدا لتوهما طفلًا رضيعًا، وكانت مارثا في حالة يُرثى لها. لقد كانت حالة البيت في مونتيتشيللو تتطلب الاهتمام، إلا أن جيفرسون كان يرغب أيضًا في إثبات جدارته في الأوساط السياسية بفيرجينيا، التي كانت قد تحررت بالفعل من السيطرة الملَكية.

الفصل الثاني

حرب وثورة في فيرجينيا

كانت هناك ثلاث قضايا بارزة، من شأنها أن تثبت ما إذا كانت الثورة الأمريكية، على مستوى فيرجينيا، قد حققت بالفعل تغييرًا في النظام وليس مجرد تغيير للحاكم. أما القضايا الثلاث، فهي: حيازة الأرض، والعبودية، والتزام الدولة بالدين. وعلى رأس تلك القضايا الثلاث، كانت هناك مسألة أخرى؛ هي لمن يكون القرار؟ للشعب أم للسلطات التقليدية؟

أما أول هذه المعارك، فكانت إصلاح الأرض. وقد كان جيفرسون يبغض ذلك القانون المحلي، الذي يحمل معالم نورماندية ومعادية للساكسونية، والذي يؤيد وقف الأملاك، وحق البكر في الإرث (أي حق الابن الأكبر وحده في الإرث)، أو بصياغة أبسط، النظام الإقطاعي الإنجليزي. وهذا النظام معناه أن الأرض تظل من حق الأسرة المالكة لها إلى الأبد، وأنه في حالة وفاة أحد ملاك الأراضي دون أن يترك وصية، فإن أملاكه تئول برمتها إلى الابن الأكبر. وبعد جدال طويل تضمن خلافًا بين معلم جيفرسون القديم جورج وايث، وإدموند بيندلتون "Edmund Pendleton" الأكثر تمسكًا بالتقاليد، انتصر جانب جيفرسون في الخلاف، وفي النهاية، جرى إلغاء وقف الأملاك وحق البكر في الإرث، بعد الكثير من المماطلة من جانب اللجنة.

أما قضية الاسترقاق، فأقصى ما استطاع جيفرسون تحقيقه هو تقديم مشروع قانون يحظر استيراد المزيد من العبيد إلى فيرجينيا مستقبلًا، على أمل أن يتوقف «تزايد ذلك الشر»، كما عَبّر هو عن القضية، بهذه الطريقة، تاركًا مهمة «القضاء عليها نهائيًّا للجهود المستقبلية». (وفي تلك الكلمات

الأخيرة، يستطيع المرء سماع وقع أقدام جيش الجنرال لي "General Lee" بشمال فيرجينيا.) وبعد أن حقق جيفرسون مبتغاه، زعم لاحقًا أنه يجب منح كل من يولد بعد تاريخ معين حريته، ثم بعد ذلك يُرَحَّل. وقد عَبّر عن ذلك بصراحة شديدة عندما أتى على ذكر ذلك القانون في سيرته الذاتية، حيث قال:

> «إن أكثر الأمور التي وردت في كتاب الأقدار هي أن أولئك الناس في الأصل أحرار، وأنه من المؤكد أن هذين العرقين، اللذين يتساويان في كونهما أحرارًا، لا يمكن أن يعيشا في ظل نفس الحكومة. فقد رسمت الطبيعة والعادات والآراء بينهما خطوطًا من التمييز يستحيل محوها.»

وقد نقشة الكلمات الثمانية عشرة الأولى فقط من الفقرة السابقة على حجر وُضِع على النصب التذكاري لجيفرسون في واشنطن دي سي، وهو من إهداء فرانكلين روزفلت في أبريل من عام ١٩٤٣ في ذكرى مرور مائتي عام على ميلاد جيفرسون، وهي لحظة ساد فيها شعور بالتفاؤل تجاه قضية حقوق الإنسان.

وفي واقع الأمر تصبح الفقرة أكثر وضوحًا مع استطراد جيفرسون فيها محذرًا من أنه في حالة عدم تنفيذ عملية تحرير العبيد ونفيهم سلميًّا فسيجري تحقيق نفس النتيجة عن طريق الحرب، وأن «الطبيعة الإنسانية يجب أن ترتجف هلعًا من هذا الاحتمال القائم. ولا ينبغي علينا أن نعتبر قيام إسبانيا بترحيل أو «محو» قبائل المور "Moors" نموذجًا نحتذي به؛ فإن تلك الحادثة التاريخية بعيدة كل البعد عن حالتنا.» والفقرة السابقة تعطينا فكرة ما عن ذلك الشعور الرهيب بالذنب الذي عاناه ملاك العبيد، وشعورهم أيضًا بالهلع من احتمال انتقام العبيد منهم، لدرجة أن المتحدث باسم أولئك الأسياد، الذي يُعد أكثرهم تفتحًا، قارن العبيد الذين يملكهم بالجيوش الإسلامية في القرون الوسطى. ولم تكن بي حاجة للتأكيد على استخدام جيفرسون للفظة «محو»، لولا حقيقة أن هذا التعبير الملطف الذي

يحمل دلالة دموية عادةً ما يُحذف. النتيجة أنه في المدة التي قضاها جيفرسون في الأوساط السياسية بفيرجينيا، انتهت تمامًا عملية استيراد العبيد، وصار من السهل على الأسياد أن يحرروا عبيدهم أو يعتقوهم. وقد كان الإغراء بعتق العبيد قويًّا لدرجة أن جيفرسون نفسه قاومه بشدة، إلا في حالة الأطفال الذين أنجبهم من سالي هيمينجز.

وهناك مساحتان أخريان في القانون أفسحتا مجالًا أوسع لقناعات جيفرسون التنويرية. أما المساحة الأكثر وضوحًا بينهما، فكانت منطقة الحرية الدينية. فمنذ تأسيس فيرجينيا، التزمت بإنشاء كنيسة أسقفية "Episcopal Church" على غرار نموذج الكنيسة الإنجليزية. وكان هذا معناه إلزام جميع مواطني المستعمرة بالدفع مقابل الحفاظ على هذه السلطة الكَنَسية؛ تلك السلطة التي لم تكتف بدورها بالمطالبة باحتكار عملية الاعتراف لحسابها فحسب، وإنما أيضًا بأحقيتها في معاقبة المؤمنين الذين لا ينتمون للكنيسة الأسقفية، مثل المنتمين للكنيسة المعمدانية الإنجيلية، والمنتمين لجماعة الأصدقاء الدينية "Quakers" وربما يكون اجتماع استياء المواطنين الأثرياء الذي ادعاه الأساقفة والقساوسة المنتمون للكنيسة الأسقفية، مع الحالة العدائية التي نشأت عن تأييد الكنيسة للملك، قد بدا مغريًا بممارسة الضغط من أجل حرمان الكنيسة من التأييد الحكومي بعد عام ١٧٧٦م، إلا أن جيفرسون كان ينوي المضي قدمًا لما هو أبعد من ذلك، واقتراح تشريع يقضي بالفصل التام بين الدين والدولة — الذي أطلق عليه لاحقًا لفظة «الحائط». وقد تطور الأمر تدريجيًّا، حيث حدث بالتدريج إلغاء القوانين التي تجرم أية آراء أو ممارسات عقائدية (أو الامتناع عن أداء أية شعائر دينية)، والقانون الذي كان يجبر «المنشقين» على دفع ثمن المحافظة على الكنيسة القائمة، إلا أن أغلبية الهيئة التشريعية كانت لا تزال تنتمي للكنيسة الأسقفية. وقد وقعت حرب شرسة حول كلٍّ من تلك القوانين، ولكن أحدها لم يتفوق على القانون الذي اقترحه جيفرسون بإرساء دعائم الحرية الدينية، والذي قدمه لأول مرة عام ١٧٧٩م، وتنص فقرته الافتتاحية على الآتي:

> «مع إيماننا التام بأن الله القادر على كل شيء قد خلق عقولنا حرة؛ فلا ينتج عن كافة محاولات التأثير عليها — سواء بفرض أعباء أو عقوبات دنيوية، أو بتعجيزها تعجيزًا مدنيًّا — سوى التعود على النفاق والوضاعة، وهو في هذه المحاولات ابتعاد عن الخطة التي رسمها الإله العظيم الذي نعبده، والذي مع كونه رب العقل ورب الجسد، فإنه اختار ألا ينشر تعاليمه بيننا عن طريق فرضها قسرًا على عقولنا أو أجسادنا، وكان في مقدوره أن يفعل، وإن الافتراضات البعيدة كل البُعد عن الورع، التي وضعها المشرعون والحكام، سواء المدنيون أو الكنسيون، الذين مع كونهم غير معصومين من الخطأ ولا ملهمين بالوحي، فإنهم يفرضون سيادتهم على عقيدة الآخرين، معتبرين آراءهم الخاصة وأساليبهم في التفكير هي وحدها الصادقة المعصومة من الخطأ، ومن ثَمّ يحاولون فرضها على الآخرين؛ تلك الافتراضات نشأت عنها عقائد زائفة؛ ترعرعت وانتشرت في الجزء الأكبر من العالم، في كل الأزمنة.»

ثم استطرد جيفرسون قائلًا: «إن حقوقنا المدنية لا تعتمد بأي حال على عقائدنا الدينية، بأكثر مما تعتمد على معرفتنا بالفيزياء أو الهندسة»، وإن إخضاع العاملين في المناصب العامة للاختبارات الدينية لا ينطوي على ما هو أكثر من «تقديم الرِّشوة، ممن لهم السيطرة المطلقة على المنافع الدنيوية من أموال ومناصب رفيعة، لأولئك الذين سيتظاهرون بإعلان ولائهم وخضوعهم للدين؛ صحيح أنهم في الواقع مجرمون لا يسعهم الصمود أمام تلك الإغراءات الدنيوية، إلا أن أولئك الذين ألقوا الطُّعم في طريقهم لا يقلون عنهم إجرامًا.»

وقد تضمن الموقف الذي اتخذه جيفرسون شيئًا من النفاق؛ فلأنه كان «ربوبيًّا»، فقد كان يؤمن بأن الله لا يتدخل في الشئون والعلاقات الإنسانية على الإطلاق، ومن ثَمَّ فقد كان موقفه من ادعاء فرض سلطة دينية على القوانين المدنية موقفًا ضعيفًا. وقد ناقض نفسه في الجزء الختامي من مشروع القانون؛ فقد أقر بأنه في حين يستحيل منع أي مجلس نواب ينعقد بفيرجينيا مستقبلًا من

إلغاء القانون، فإن هذا الإلغاء سيُعَدّ مع ذلك «انتهاكًا لأحد الحقوق الطبيعية». (فالحقيقة أن جيفرسون كان دائمًا يؤكد على أن الكائنات الحية فقط هي التي تملك حقوقًا.) ومع ذلك، فقد كان موقفه الأخلاقي والمنطقي أفضل من خصمه باتريك هنري "Patrick Henry"، الذي اقترح بديلًا تعدديًّا؛ فقد قدم إمكانية دعم ممولي الضرائب «لكل» الكنائس المسيحية وليس إحداها فقط. وعند هذه النقطة، كان جيمس ماديسون "James Madison"، صديق جيفرسون المقرب وحليفه أيضًا، مستعدًّا للرد بـ«مذكرة احتجاج على التقدير الضريبي للدين»:

> «من ذا الذي لا يرى أن نفس السلطة التي بإمكانها توطيد المسيحية، دون جميع الديانات الأخرى، بإمكانها أيضًا، وبنفس السهولة، أن تؤسس طائفة من المسيحيين، دون كافة الطوائف الأخرى؟ وأن نفس السلطة التي تستطيع إجبار المواطن على المساهمة بثلاثة بنسات فقط من ممتلكاته لتدعيم مؤسسة بعينها، تستطيع أيضًا أن تجبره على الخضوع لأية مؤسسة أخرى أيًّا كانت؟ ... ما مدى النفوذ الذي تتمتع به المؤسسات الكَنَسية على المجتمع المدني؟ لقد تبين في بعض المواقف، أن تلك المؤسسات تمارس نوعًا من الاستبداد الديني على بقايا السلطة المدنية، وتبين في كثير من المواقف تأييدها لحكم الطغاة السياسيين، وأنها لم تكن يومًا من حماة حرية الشعب. إن الحكام الذين يتمنون القضاء على الحريات العامة، ربما يناسبهم كثيرًا أن يتخذوا لأنفسهم معاونين من رجال الدين. أما الحكومة العادلة، التي تسعى لتأمين الحريات وضمان استمرارها، فلا حاجة بها لهؤلاء.»

ومع أن حجة جيفرسون وماديسون كانت لها الغَلَبة في نهاية الأمر، فإن المعارضين حاولوا تعديل الفقرة الافتتاحية، واستبدال تعبير «الله القادر على كل شيء» في السطر الأول بتعبير «السيد المسيح». وقد رفضت الغالبية العظمى هذا التعديل، وقد أثنى جيفرسون على هذا الرفض باعتباره «دليلًا على

رغبتهم في أن يضم القانون تحت عباءة حمايته كلًّا من اليهود، وغير اليهود، والمسيحيين، وأتباع «محمد»، والهندوس، وغير المؤمنين من كافة الطوائف أيضًا.» وحتى عام ١٧٧٦م، كانت العقوبة التي تفرضها القوانين العرفية في فيرجينيا على «الهرطقة» هي الحرق.

وقد جرى التصديق على تشريع فيرجينيا قبل ميثاق الدستور في فيلادلفيا بعام واحد فقط، وكان له أثر بالغ في حذف أي ذكر لكلمة «الله» من الوثيقة النهائية، بالإضافة للاشتراط في المادة ٦ من القسم ٣ ألا يكون إجراء «أية اختبارات دينية» شرطًا لتولي المناصب الحكومية. وقد كانت هناك العديد من الحوادث السابقة المتناقضة التي كان بإمكان واضعي الدستور الاعتماد عليها، غير أنهم قد عجزوا، بسبب طبيعة تلك الحوادث، عن استغلالها كلها. وقد فرض دستور ماساتشوسيتس، الصادر عام ١٧٨٠م، حماية مماثلة، ولكن فقط على المسيحيين المناهضين للبابا، ومنحهم حق تولي المناصب. في حين عامل دستور نيويورك الصادر عام ١٧٧٧م اليهود بمساواة، بعكس المسيحيين الكاثوليك. أما في ماريلاند، فقد كان الوضع شبه معكوس، حيث حصل كلٌّ من المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت على حقوقهم، بعكس اليهود والربوبيين، وذوي الفكر الحر. وفي ديلاور "Delaware"، كان الموظفون في المناصب العامة يُطالبون بالقسم على الإيمان بالثالوث المقدس، وفي ساوث كارولينا، كانت «البروتستانتية» هي الديانة الرسمية. وقد كانت فيرجينيا هي كبرى ولايات الاتحاد الجديد، ولّما كان الكثير من أبنائها مشاركين في أحداث ١٧٧٦م، فقد كان لها وزنها واعتبارها على المستوى الثوري. وليس من محض الخيال أن نزعم أن تشريع فيرجينيا للحرية الدينية كان بالفعل هو البذرة التي ألهمت «إقرار» وثيقة التعديل الأول. أما المساحة الثانية التي استخدم فيها جيفرسون فلسفته التنويرية كأسلوب سياسي، فهي الجريمة والعقاب. فقد تأثر جيفرسون، مثل الكثيرين من مثقفي عصره، ببحث «عن الجرائم والعقوبات» "Dei delitti e delle pene"، للفيلسوف والمفكر سيزار بيكاريا "Cesare Beccaria"، وقد نُشر البحث في ميلان عام ١٧٦٤م، حيث نقل عنه بعض المقتطفات التي لا يقل عددها عن الستة والعشرين في مذكرة

خواطره الخاصة Commonplace Book التي نُشرت عام ١٧٧٦م. وقد اقتبس جون آدمز أيضًا من بيكاريا دفاعه الشهير عن الجنود البريطانيين الذين اتُّهِموا ظلمًا في مذبحة بوسطن. أما بنجامين فرانكلين، فكان يكن لبيكاريا عظيم الإعجاب. الواقع أن أحد أهم الأسباب التي دفعت ذوي الفكر المتطرف وذوي الفكر المتحرر أيضًا لإلقاء اللوم على الاستبداد الموروث في ذلك الوقت، هو لجوء النظام المَلَكي المبالغ فيه للتعذيب وعقوبة الإعدام. وقد فضح بحث بيكاريا مدى عقم هذه الممارسات وسخافتها، بالإضافة لساديتها، حيث شُجِبَت باعتبارها «قاسية وغير طبيعية» بلغة التعديل الثامن للدستور الفيدرالي.

وفي عام ١٧٧٨م، اقترح جيفرسون مشروع «قانون التناسب بين الجريمة والعقاب» على مجلس نواب فيرجينيا. وكتب جيفرسون فيه أن بيكاريا «أقنع العالم العاقل بعدم شرعية عقوبة الإعدام وعدم فعاليتها.» وكبديل لها، قدم نظام الأشغال الشاقة. وقد رفض صوت واحد ذلك القانون، ومع ذلك فقد جرى تشريعه عام ١٧٩٦م ولكن في صيغة أضعف. ومع استعداد جيفرسون التام سابقًا لقبول الحبس الانفرادي الذي يعد أسلوبًا غير آدمي، الذي عُدِّل لاحقًا عن بيكاريا في النظام العقابي الذي اقترحه جيريمي بينتام "Jeremy Bentham"، فقد استمر في الإلحاح على ضرورة التفريق بين جريمتي القتل والقتل الخطأ، التي أُعيدت صياغتها إلى القتل من الدرجة الأولى والثانية، وفي تركيز اهتمامه على فكرة «الحبس» باعتبارها مسألة علمية، تستخدم عقوبات متطورة وملائمة. ولكن مرة أخرى، لم يمتد تأثير أيٍّ من هذه القوانين المتحررة الدقيقة إلى ذوي الأصول الأفريقية.

كان جيفرسون في السادسة والثلاثين من عمره عندما أصبح ثاني حاكم لفيرجينيا، خلفًا لباتريك هنري — الذي كان قد استنفد أقصى عدد مرات حكم متوالية؛ أي ثلاث مرات — عام ١٧٧٩م. وقد جرى الانتخاب بصورة ودية مهذبة، وأقره مجلس العموم بفيرجينيا، مما منح جيفرسون فارقًا طفيفًا تفوق به على صديقه جون بايج "John Page". وربما كان جيفرسون سيسعد بتصميم عاصمة جديدة في ريتشموند، متيحًا لنفسه مجالًا

أكبر لإشباع نزعته المعمارية، ولكن الولاية كانت ما زالت في حالة حرب مع ملك بريطانيا العظمى، وقد ساد هذا الوضع طوال مدة حكمه. وبالفعل، نُقِلَت العاصمة من ويليامسبيرج إلى ريتشموند، كما تمنى جيفرسون، ولكن فقط لأن ريتشموند كانت أبعد عن البحر ومن ثَمَّ أقل عُرضة للهجمات البريطانية. (الواقع أنها لم تكن أقل عرضة بكثير؛ الأمر الذي أثبته بينيدكت أرنولد "Benedict Arnold"، عندما نجح في إحكام قبضته على المدينة في وقت قصير عام ١٧٨١م.) وقد اقتحم جنود اللورد كورنوالس "Lord Cornwallis" البريطانيون فيرجينيا بقوة كافية لسحق الماركيز دو لافاييت "Marquis de Lafayette" الجريء المندفع، ولم يمر وقت طويل حتى تخلت القوات الأمريكية المتحالفة عن ريتشموند، وانتقل مقعد الحكم إلى تشارلوتسفيل "Charlottesville"، مسقط رأس جيفرسون. وربما كانت حياته المهنية، أو حتى حياته نفسها، ستنتهي في ذلك المكان لولا رحلة بول ريفير "Paul Revere". فقد لاحظ أحد خيالة فيرجينيا الأذكياء، ويدعى جاك جويت "Jack Jouette"، طابورًا طويلًا من الجنود يتوجه مسرعًا صوب مونتيتشيللو بقيادة الملازم أول باناستر تارلتون "Banastre Tarleton" ومن ثَّم لكز حصانه ليحثه على الإسراع ليقطع أربعين ميلًا في ليلة واحدة حتى يتسنى له تحذير أهالي فيرجينيا من أن البريطانيين في طريقهم إليها، وأنهم سيصلون قريبًا جدًّا. وبالكاد استطاع جيفرسون أن يراقب بنفسه إخلاء حكومة الولاية ونقلها إلى حي ستانتون "Staunton" قبل أن يصل الغزاة إلى عتبة داره. وقد استغل عدد من عبيده الفرصة للفرار هربًا — وربما تكون الوعود البريطانية المثيرة للسخرية بعتقهم هي ما شجعهم على ذلك كما شجعت الكثيرين من قبلهم — وما أدى هروبهم إلا لتعريض سيدهم للمزيد من الإذلال.

وقد حدث هجوم تارلتون فيما بين شهري مايو / أيار ويونيو / حزيران من عام ١٧٨١م، وقد انتهى حكم جيفرسون قانونيًّا في الثاني من يونيو / حزيران. وجرى تأجيل إجراءات انتخاب خَلَف لجيفرسون لمدة عشرة أيام بسبب ظروف الحرب الطارئة، ومن ثَمّ فقد كان جيفرسون «يمثل دور» الحاكم فقط في قمة

الأزمة. ومن ثَّم، وربما لحرصه الزائد على الشكليات وارتباطه الشديد بالنظم القانونية، فقد قرر الانضمام لأسرته من جديد. وما من شك في أنه كان يرغب في أن ينأى بنفسه عن أية شكوك باستيلائه على السلطة في تلك الظروف الطارئة، إلا أنه بدلًا من ذلك اتُّهم بما هو أسوأ. فالواقع أنه، نظريًّا، قد تخلى عن منصبه في وقت الخطر. وربما لم يكن موقفه السابق ليثير كل تلك الضجة لولا أن حكمه قد اتسم بالاهتزاز والتردد دومًا، وخاصةً مع سعي جيفرسون الدائم للموازنة بين مطالبة الجنرال واشنطون بالمزيد من كتائب الجنود، ورفضه الشخصي لإجبار المواطنين الأحرار على التجنيد الإجباري. فالناس لا يكونون في أفضل حالاتهم عندما يشعرون بالرعب والهزيمة، والإذلال الذي لحق بهم عام ١٧٨١م، والذي تلقى جيفرسون اللوم عليه، كان من الممكن أن يوصم جيفرسون بوصمة الجُبْن بقية حياته السياسية. ومع ذلك، فقد كان هذا بمنزلة دفاع قوي وشامل وناجح عن سلوكه الشخصي، قُدِّمَ لمجلس نواب فيرجينيا بعد هزيمة كورنواليز واستسلامه في يورك تاون في شهر أكتوبر / تشرين الأول من نفس العام. ولو أن جيفرسون كان حاكمًا في أوقات الانتصارات السابقة، لغُفر له كل شيء. أما والحال هكذا، فقد ارتبط اسمه دائمًا بالهزائم والانسحاب من الحروب، وهناك من الأدلة ما يثبت أنه لم يتغلب أبدًا على الشعور بالمرارة الذي أصابه في ذلك الوقت. وقد كان التناقض الكبير بينه وبين ألكسندر هاملتون "Alexander Hamilton" — الذي تميز في أدائه ضمن صفوف العاملين في واشنطن، وتولى لاحقًا مهمة في يورك تاون تتطلب شجاعة وجرأة — أمرًا مثيرًا للحنق.

لقد كان سينسيناتس "Cincinnatus"، الذي استقال من منصبه الرفيع في روما عائدًا إلى الحياة في مزرعته، نموذجًا معروفًا ومثيرًا للاحترام في تلك الأيام، أما الدارس لشخصية جيفرسون، فسيجد — على العكس — فرصة كبيرة للتشكيك، بل قد يصيبه الملل، من دعاوى جيفرسون المتكررة بأنه قد زَهِد الاهتمام بالحياة السياسية. فالواضح أن جيفرسون لم يمل أبدًا من محاولات إقناعه بتولي المناصب الرفيعة ومداهنته أيضًا. غير أنه في عام ١٧٨١م، انسحب بالفعل من موقعه شاعرًا بقدر هائل من الألم، وعاقدًا العزم

على البقاء مع أسرته وكتبه وقصر مونتيتشيللو الذي لا يلبث أن يستقر على حال، والذي صار الآن في حاجة ماسة للمزيد من الاهتمام بعدما ألحقته به الإمبراطورية البريطانية — التي هُزِمت في آخر الأمر — من خسائر.

وفي مكتبته، بدأ جيفرسون في تحضير استطلاع الرأي الذي أرسله إليه الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا باربيه-ماربوا Francois Barbé-Marbois (الذي سيصير فيما بعد مفاوضًا في صفقة شراء لويزيانا) عام ١٧٨٠م. وقد كان هدف تلك الوثيقة، التي أُرسلت أيضًا إلى حكام ولايات أمريكية أخرى، هو الحصول على وصف كامل لولاية فيرجينيا. لقد سعت الوثيقة لمعرفة التاريخ الطبيعي، والموارد، وتعداد السكان، والقوانين الخاصة بولاية فيرجينيا. وما من فرصة أفضل من هذه، كان من الممكن توافرها يومًا لجيفرسون لكى يستعرض حجم معلوماته، بل اختبارها أيضًا. ومع أنه لم يكن في نيته منذ البداية نشر ملحوظاته عن ولاية فيرجينيا "Notes on the State of Virginia" — كما أن أحدًا غيره لم يقم بقراءتها إلا بعد ذلك بسنوات عديدة (وعندما نُشرت، شُوِّهت وأُسِيئت ترجمة معانيها) — فإن هذه المناسبة ربما تكون هي الوقت الذي قام فيه بمراجعة تلك الملحوظات وإعادة النظر فيها.

ولم يكن جيفرسون رجلًا ذا فكر تنويري بالمعنى المعتاد، من حيث الإيمان بالمنطق أو حتى العقلانية. وإنما كان أحد المؤمنين بأن خلاص الإنسان لا يقع إلا عن طريق التعليم والاكتشاف والابتكار والتجارب. وقد زخرت الثورة الأمريكية بكافة العوامل السابقة. فقد قضى توماس بين جزءًا كبيرًا من حياته العملية في تصميم جسر حديدي لتسهيل الانتقال والتواصل. ودكتور جوزيف بريستلي "Dr. Joseph Priestly"، وهو أحد الذين فروا من النظام الملكي واضطهاد الكنيسة الأنجليكانية، الذي انتقل من إنجلترا إلى فيلادلفيا بعد أن دمرت جموع الرعاع من مؤيدي «الكنيسة والملك» معمله، كان فيزيائيًّا وكيميائيًّا ذا شهرة واسعة. وسوف نذكر دائمًا بنجامين فرانكلين، لما وضعه من استنتاجات خاصة بالاستخدامات العملية للكهرباء، حتى لو لم يكن قد قدم شيئًا آخر. وجيفرسون أيضًا كان يعتبر نفسه عالمًا. فقد درس علم النباتات والحفريات والدورات الزراعية والحيوانات، وقدم عددًا وفيرًا من

الملاحظات حول ما شاهده. وصمم نوعًا جديدًا من المحاريث، بإمكانها أن تحفر أخاديد أعمق في التربة التي أنهكتها زراعة التبغ الخادعة باعتبارها موفرة. وكان مبهورًا باختراع منطاد الهواء، وتبين له، بمجرد رؤيته، أنه يصلح كوسيلة انتقال وأيضًا كأداة جديدة في الحروب. وكان يستمتع بمسح الأراضي والتنقيب عن المعادن، وعندما أصبح صيد الحيتان أحد العوامل المهمة في المفاوضات الخاصة بواحدة من الاتفاقيات التجارية، كتب بنفسه بحثًا عن الموضوع. وأرسل قصاصات عن زراعة البساتين من فيرجينيا إلى القنصل الفرنسي اللامع كريفكور "Crèvecoeur" في نيويورك، فيها مقارنة بين المشاهدات الخاصة بكل شيء؛ بدءًا من البطاطس وحتى شجر الأرْز. وبصفته رئيس الجمهورية، بذل الكثير من الجهد لتأييد الفكرة المُبتَكَرة لدكتور إدوارد جينير "Dr. Edward Jenner" باستخدام لقاح جدري البقر للتحصين ضد كابوس مرض الجدري، وكان ذلك بمساعدة دكتور بنجامين واترهاوس "Dr. Benjamin Waterhouse" من بوسطن — وهو أول من بدأ تنفيذ الفكرة في أمريكا — للتغلب على الصعوبات المبدئية التي واجهت عملية نقل اللقاح؛ فقد اقترح أن اللقاح يفقد فعاليته عندما يتعرض للدفء. ومن وقتها، صار اللقاح يحفظ في قوارير مياه مبردة، وجرى تطعيم الجميع في مونتيتشيللو بالعلاج الوقائي الجديد الرائع. (ولم يكن كل ما يفعله جيفرسون في أملاكه من باب استغلال المنصب.) ومن باب المقارنة، يجدر بنا ملاحظة أن دكتور تيموثي دوايت "Dr. Timothy Dwight"، الذي كان في ذلك الحين رئيسًا لجامعة ييل "Yale" ولا يزال يُثْنَى عليه حتى يومنا هذا باعتباره رجل دين أمريكيًّا، كان من أشد المعارضين لفكرة اللقاح باعتباره تدخلًا مدنسًا لحرمة خلق الله الكريم.

ومع كل ما تميز به جيفرسون من فضول فكري وحب للمعرفة، فقد عاش في زمن كان فيه الإنسان، مهما اجتهد في أن ينفذ ببصيرته، يعجز عن رؤية ما هو أبعد من الأفق الذي سرعان ما استكشفه داروين ووضع خارطته. لقد كان عصر العلوم الزائفة، العصر الذي اختلفت فيه الخيمياء "alchemy" بوضوح عن الكيمياء. وقد نجح جيفرسون في أن ينفذ ببصيرته

فيعرف بعض صور الدجل وادعاء العلم في تلك الحقبة — مثل التنويم المغناطيسي على سبيل المثال — إلا أنه كان لا يزال مقيدًا بالمعرفة المحدودة، ولكنه سعى سعيًا حثيثًا للحصول على تفسيرات ثابتة. وربما لا يكون لمعظم هذا الكلام أهمية تُذكر لنا الآن، ولكن بعضه من الممكن أن يسبب أضرارًا بالغة يتعذر إصلاحها.

ومن أعظم خبراء العلوم الزائفة في ذلك الوقت جورجز ليكليرك "Georges Leclerc" كونت دو بوفو "Compte de Buffon". لقد كان ذلك المخادع العجوز الذي تميز بثقافته العالية واجتهاده في العمل يعد الأفضل في مجالي التاريخ الطبيعي وعلم الحيوان، وقد أرسى دعائم فكرة أن أمريكا الشمالية هي أرض قاحلة أدانتها الطبيعة. فلا مناخها ولا تربتها يدعوان لإقامة أية صورة من صور الحياة إلا أكثرها سقمًا وهزالًا؛ فلا شيء يُرجى منها. ولا حاجة بنا لإضاعة الوقت في التفكير في نظريات بوفون إلا لكي نقول إنه لا يوجد ما ينافسها فيما تزعمه من حماقات شبه دينية ذات علاقة بنظرية الخلق، سوى المدرسة المعارضة لها. وقد أربكت بعض الظواهر، مثل اكتشاف وجود أصداف في مناطق مرتفعة من الأرض، أتباع الفرضية البحرية "Neptunists"، فاقترحوا، مثل بوفون، أن الأرض نشأت على معدلات مختلفة، حيث بدأت في صورة محيط هائل، وأكد معارضوهم «الباطنيون» "Vulcanists" أن تلك الأصداف انتقلت إلى أعلى بقوة الدفع الناتجة عن الانفجارات الداخلية. ولأن أمريكا قد نشأت أخيرًا نتيجة لانحسار مياه المحيط الهائل عنها، كما زعم بوفون، فإن كلًّا من حيواناتها ونباتاتها تماثل في ضعفها وحداثتها مواطنيها الهنود، ولسوف يصيب المهاجرين إليها أيضًا نفس الضعف والذبول. وقد تساءل مقلدو بوفون، مثل القس (آبى) راينال "Abbé Raynal"، بإشفاق عن السبب في أن أمريكا لم تنجب شاعرًا، ولا عالمًا رياضيًّا، ولا عالمًا جديرًا بأن يحمل لقبه. وفي سعيه المدفوع بحسه الوطني لدحض ذلك الادعاء، ذكّرني جيفرسون بالكولونيل روبرت شو "Robert Shaw" من كتيبة ماساتشوسيتس الخامسة والأربعين. لقد كان شو واحدًا من الأبطال الرمزيين في قصيدة روبرت لويل "Robert Lowell" «الموت في سبيل

الاتحاد» «For the Union Dead»، وقد قُتل على رأس فرق جنوده السود في اشتباك محموم جريء في جنوب كاليفورنيا، ولكنه كتب قبل موته — بأسلوب ربما يحسده عليه لويل نفسه — أن العبيد السابقين الذين حاربوا تحت قيادته، كانوا يحاربون من أجل «أولئك الذين لم يُكتب الشعر فيهم بعد». أما جيفرسون، فقد صاغ الفكرة على النحو الآتي:

«عندما يمر علينا كشعب زمن طويل كذلك الذي مر على الإغريق قبل أن يُنجبوا هوميروس "Homer"، أو ذلك الذي مر على الرومان قبل أن يُنجبوا فيرجيل "Virgil"، أو ذلك الذي مر على الفرنسيين قبل أن يُنجبوا راسين "Racine" وفولتير "Voltaire"، أو ذلك الذي مر على الإنجليز قبل أن يُنجبوا شكسبير وميلتون، وإذا ظل ذلك العار يَصِمُنا حتى ذلك الحين، فلسوف نتساءل عن الأسباب الكريهة التي أدت لعدم ذكر أحد، وهي أن أرجاء الأرض قاطبةً لن تكون قد أضافت اسمًا واحدًا لقائمة الشعراء السابقين.»

إلا أن أسلوب جيفرسون كان ينطوي على شيء من التحذلق التصنيفي، حيث اصطاد العديد من الحيوانات ووَزَنها، وأمر بالتنقيب عن الهيكل العظمي لأحد حيوانات الماموث، كي يثبت لبوفون أنه إذا كانت الفكرة في الحجم، فإن أمريكا لا تفتقر إلى القوة الطبيعية. (ويُحسب لجيفرسون أنه، مع فقرات المديح والثناء في أوجه الجمال الطبيعي في فيرجينيا التي وردت في ملاحظاته عنها، فلم يزعُم أبدًا تفوق أمريكا، سواء من حيث وفرة أوجه الجمال أو مستواها.) إلا أنه لم ينجح أبدًا في حل لغز المكان الذي أتت منه الأصداف المتحجرة.

ومع ذلك، فقد كان جيفرسون يتمنى فعلًا أن يؤكد على أن المواطن الهندي الأمريكي يتساوى تمامًا، من حيث القدرات الطبيعية والفطرية، مع أي مواطن أوروبي. ومن المحتمل أن جيفرسون — مثل الكثيرين من محبي التأمل وغير العسكريين — كان شديد الانبهار بالقوة الجسدية والحماسة القتالية لأولئك السكان الأصليين. وكان معجبًا بتفردهم ومعرفتهم العميقة

بالبَرية؛ وهما «خاصيتان» حُرم العبيد الأفارقة منهما بالذات. وبدا في بعض الأوقات وكأنه يثني على براعتهم الجنسية من ناحية، وعلى الأرجح يحسدهم عليها من الناحية الأخرى (وهي نقطة دائمًا ما كانت تختفي من أية مناقشات خاصة «بالعِرق»). وعلى أية حال، فقد أكد أنه إذا نجحت هذه الشعوب في التخلي عن معبوداتها الغريبة وثقافتها البدائية القائمة على الجني والصيد، فسوف تتمكن من التأقلم بسهولة. وعند هذه النقطة، ظهرت مشكلة رهيبة بدأت تفرض نفسها، بحيث تسببت في ارتداد جيفرسون إلى الأنثروبولوجيا الزائفة التي لم يكتمل نضجها بعد.

ولكن كيف تعوّد أبناء وبنات القارة الأفريقية على الاسترقاق بهذه السرعة؟ لقد كان هذا السؤال، بما يحمله من لمحة ازدراء، هو في الأساس سؤال جيفرسون. وقد أقنعته دراسته للماضي القديم بأن العبودية، مع كونها أكثر إرهاقًا وشقاءً في تلك العصور القديمة، فإن هناك عبيدًا مثل أبكتاتوس "Epictetus"، وتيرينس "Terence"، وفايدرس "Phaedrus"، استطاعوا إنتاج أعمال فنية وعلمية خالدة. ولكنه استطرد قائلًا: «ولكنهم كانوا من عِرق البِيض»، وكأن «العِرق» واللون هما الشيء ذاته، وكذلك كأن العبيد الرومان لم يكونوا داكني البشرة (وكأن بوفون ورايْنال، في نهاية الأمر، لم يكونا على دراية بأي شيء). وقد أدى الافتراض الأحمق الذي وضعه في البداية إلى استنتاج باطل للدفاع مع بعض التحفظ؛ كأنه «ظن يشوبه الكثير من عدم الثقة». أما الاستنتاج فهو أن «السود، سواء باعتبارهم عِرقًا مختلفًا أصلًا، أو بفعل الوقت والظروف، يقلون شأنًا عن البيض فيما يتمتعون به من هبات جسدية وعقلية.» ومن ناحية أخرى — أفصحت بدورها عن لمحة أخرى — أكد جيفرسون أن التذوق الجنسي للسود الذي يجعلهم يفضلون بعضهم بعضًا، يمكن مقارنته بتفضيل «إنسان الغاب». وقد حاول بعض المعلقين التماس العذر لجيفرسون على استخدام ذلك التعبير، على أساس أن تعبير «إنسان الغاب» كان يُعد آنذاك إشارة إلى «الإنسان الهمجي» الذي ينتمي إلى الجنس البشرى، والذي يُفترض أن المستكشفين قد «عثروا» عليه في غابات آسيا المُقفرة. ولكن حتى هذا لا

يزيد عن كونه مجرد إعادة صياغة لنفس الادعاء الباطل ولكن بأسلوب مختلف.

جدير بالذكر أن نقول — دفاعًا عن جيفرسون — إنه بطريقة ما لم يكن «عنصريًّا» أو «متعصبًا لجنسه»؛ فهو لم يعتقد ولو للحظة واحدة أن تلك الدونية المزعومة أو المفترضة للسود من الممكن استغلالها مبررًا للاسترقاق. بل الواقع أن جيفرسون كان مولعًا بالإشارة إلى الحمقى البيض الذين يدلون بآراء تبرر استعبادهم شخصيًّا من قِبَل أي شخص أبيض يستطيع أن يثبت تفوقه عليهم في الذكاء أو التعليم. وقد بلغت قناعته بالنقطة السابقة مبلغًا دفعه إلى كسر أحد قواعد الربوبية بالتحدث عن العقوبة الإلهية للآثام: «الحق أنني أرتجف هلعًا على دولتي عندما أفكر في أن الله عادل.» ولكن لو أنه باستطاعتنا افتراض وجود إله عادل، فما حاجتنا إذًا للتنوير الإنساني؟

ويبدو شعور جيفرسون بتأنيب الضمير — الذي تؤكده الحجج الحقيرة المتناقضة — واضحًا في أغلب فقرات مقالته عن ذلك الموضوع؛ حيث ورد فيها أنه لا بد من ترحيل السود فور منحهم حريتهم، وذلك لتجنيبهم «ذكرى عشرات الآلاف من صور الأذى التي تحملوها». إلا أننا نجده بعد ذلك، ببضعة أسطر فقط، يكتب عن العبيد بلا مبالاة واضحة أن «أحزانهم وقتية زائلة». وحتى يومنا هذا، لا يزال الأمريكيون من أنصار الهيمنة البيضاء يؤكدون أن السود هم «أناس من طين» لأن انعدام الضمير لديهم يمنعهم من الاحمرار خجلًا — فهم غير قادرين على استجماع «الدماء في الوجوه» كما اكتشف زعماء جماعة «العرق الآري» ”Aryan Nations“. وقد كتب جيفرسون متسائلًا: «أليس الخليط الرائع من اللونين الأبيض والأحمر، والتعبير عن كافة الانفعالات بازدياد درجة انتشار اللون أو انخفاضها في المرء، أفضل من تلك الرتابة الأبدية التي تسيطر على الملامح، وذلك الستار الأسود الراسخ الذي يغطي مشاعر تلك السلالة الأخرى؟» وهناك صيغ مكررة أخرى، أكثر حداثة، ومن نوع أكثر حماقة، يبدو أنها وجدت طريقها للظهور لأول مرة في «المذكرات»: «فيما يتعلق بالموسيقى، فهم بوجه عام يتفوقون على البيض في الموهبة؛ حيث يميزون بدقة النغمة والمدة الزمنية. أما بلوغهم مستوى

مساويًا في تأليف تعاقب أشمل لنغمات سريعة سواء للألحان أو للإيقاعات المعقدة، فذاك أمر لم يُثبت بعد.» (وفي تلك المرحلة، لم يكن جيفرسون قد علّم بعد أحد أبنائه من سالي هيمنجز استخدام الكمان ليصير فيما بعد موسيقيًّا بارعًا.)

الأمر الأكثر تأثيرًا هو البصيرة الثاقبة التي تمتع بها جيفرسون فيما يتعلق بالطبيعة الجنسية للعلاقة بين العبد والسيّد. وقد عَبّر عن ذلك السر القذر في صراحة مثيرة للإعجاب: «إن العلاقة الجنسية بين السيد والعبد في مجملها هي بمنزلة تعبير دائم عن أكثر المشاعر عنفًا وقسوة، وممارسة متواصلة للاستبداد من جانب، والخضوع المهين من الجانب الآخر. والرجل الذي ينجح في الإبقاء على أخلاقه وسلوكياته الحميدة دون أن يصيبها الانحراف في مثل هذه الظروف هو معجزة أكيدة.» وقد أضاف إلى ما سبق أنه حتى إذا كان السود في حالتهم الأصلية لا يستطيعون الرسم، أو كتابة الشعر، فبإمكانهم سد حاجتهم للموهبة الطبيعية إذا نُقِلَت جرعة من الدم الأبيض لهم. ولكنه لم يؤمن يومًا إيمانًا تامًا بأن الشعراء السود أو العلماء السود، بدءًا من فيليس ويتلي "Phillis Wheatley" وحتى بينجامين بانيكر "Benjamin Banneker"، استطاعوا شخصيًّا أن ينتجوا شيئًا ذا قيمة، أو دون الاقتداء بمساعدة من يفوقونهم.

عندما شرع جيفرسون في كتابة ملحوظاته عن فيرجينيا، كان ما زال متزوجًا من امرأة بيضاء. وفي مدة قصيرة، صار أرملًا. فقد توفيت مارثا في سبتمبر عام ١٧٨٢م، وكانت سالي هيمنجز قد تولت — مع أخريات — رعايتها حتى آخر أيام حياتها. وقد كان من ضمن أسباب وفاة مارثا إنجابها لطفلتها السادسة؛ لوسي. ومن المؤكد أن مارثا، بينما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، انتزعت من جيفرسون وعدًا بألا يتزوج بعدها أبدًا. ويبدو أن قواه خارت تمامًا بسبب وفاتها، مع أن هذه الفاجعة قد حلّت به بعد سلسلة طويلة من الهزائم والإذلال شهدته الشهور الأخيرة من حكمه. وربما يفسر اجتماع الأحداث السابقة مع بعضها شهادات شهود مونتيتشيللو، الذين وصفوا حالته بأنها كانت أقرب للإنهاك العصبي. وربما

لا يكون ذلك صحيحًا أيضًا، فسرعان ما شعر بقدرته على العودة إلى دائرة الأحداث.

وجدد الكونجرس دعوته له، بعد فقدانه لزوجته بوقت قصير، ليكون مبعوثه عَبر البحار. وطُلب منه أن ينضم إلى جون جاي "John Jay"، وجون آدمز، وبينجامين فرانكلين في باريس للمساعدة في التوصل إلى معاهدة مع بريطانيا. وقد قَبِل العرض، ولكن نتيجةً لتأخره في المغادرة بفعل الثلوج التي أحاطت بالموانئ على الساحل الشرقي، عندما وصل وجدهم في غير حاجة لخدماته. أما معاهدة باريس فقد جرى الاتفاق عليها بسرعة أكبر مما توقع أغلب الناس. وفي ظل تلك المعاهدة، أقرّت لندن باستقلالية الولايات المتحدة، واعترفت بالحقوق الأمريكية في الصيد أعلى ساحل كندا وتنازلت عن المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال اللّيجاني "Alleghenies" ونهر الميسيسيبي "Mississippi". وقد كان حصول أمريكا على رقعة أرض بهذا الحجم تتطلب الكثير من العمل على أرض الوطن، وسرعان ما انطلق جيفرسون في طريقه لتمثيل فيرجينيا في الكونجرس الكونفيدرالي. وبوصوله إلى هناك وانغماسه في العمل، صار له تأثير قوي في تصديق أغلب الولايات على الاتفاقية (وهو ختام مناسب للعمل الذي بدأ بإعلان الاستقلال). وقد أسهم أيضًا في تأليف خطبة للكونجرس بمناسبة ذلك الحدث الجلل المتمثل في استقالة جورج واشنطن من منصبه قائدًا أعلى للقوات المسلحة، وهو تنازل تطوعي عن السلطة قوّى عزيمة كل من يؤمن بمزايا النظام الجمهوري.

وقد منح التوسع جيفرسون الفرصة لكي يطلق العنان لمشروعيه الرئيسيين؛ ألا وهما: زيادة مساحة الاتحاد، وتوسيع نطاق الديمقراطية. وبدأ المستوطنون في التدفق عبر جبال اللّيجاني وادعاء أحقيتهم في الأراضي بطريقة عشوائية. وبدأت بعض المجتمعات، مثل مجتمع كنتاكي — الذي كانت فيرجينيا تديره آنذاك — ترى نفسها في صورة ولايات مستقبلية. لقد كان الموقف في حاجة إلى التنظيم، وما من صفة يمكننا وصف عقلية جيفرسون بها أفضل من أنه منظم. فقد أوصى بتحويل كنتاكي إلى ولاية تتمتع بالحكم الذاتي، وقام برسم خرائط مؤقتة، باستخدام طريقة جريد

(أو طريقة الشبكات) "grid"، ذات خطوط عرضية حادة، لأربعة عشر ولاية أخرى. وقد عجّل هذا عمدًا، بل الواقع أنه تنبأ، بحدوث المزيد من التوسع غربًا — وربما يكون من الرحمة أن أسماء الولايات التي اقترحها جيفرسون (التي تضمنت تشيرونيسوس Cherronesus، وأسينينيسيبيا Assenenisipia، وميتروبوتاميا Metropotamia) قد رُفضت. لقد كان جوهر الخطة يتمثل في الإضافة للاتحاد بصورة تدريجية اختيارية، بدلًا من إقامة حكومة مستعمرات. ومرة أخرى، اضطر جيفرسون للجوء للتقاليد الأنجلو-ساكسونية، حيث اقترح تقسيم كل قطعة أرض جديدة إلى «مئات»، بحيث تمثل المائة عشرة أميال مربعة. ولم يحقق جيفرسون في هذه النقطة فوزًا كاملًا، مع أن الطبيعة المستطيلة للجغرافيا السياسية الأمريكية لا تزال تحمل طابعه (وفي نفس هذا الكونجرس أيضًا، شاهد جيفرسون تطبيق مشروع الدولار ذي القاعدة العشرية الذي وضعه بنفسه). أما القانون في الولايات الجديدة فكان سيمنح حق الانتخاب للذكور البالغين، في ظل ما صار يُعرف بمرسوم عام ١٧٨٤م "the Ordinance of 1784"، وسُمح بقدر كبير من الحكم الذاتي في مقابل الاعتراف بالسلطة القضائية للكونجرس، والاشتراك في تحمل مسئولية الدَّين الفيدرالي. ومع ذلك، فعند نقطة معينة، أراد جيفرسون توحيد المبادئ، فاقترح أنه «بعد عام ١٨٠٠م من التاريخ المسيحي، لن يكون هناك أثر لا للاسترقاق، ولا للاستعباد الإجباري.» وقد كان هذا هجومًا على العرف السائد أكثر جرأة من أي هجوم شنّه من قبل. وفي ذلك الموقف، لم يكن اعتراض أهل الجنوب، مع قوتهم وجبروتهم، هو السبب في إلغاء الخطة. فقد شعر مندوب نيوجيرسي بالاستياء في اللحظة الحاسمة، مما تسبب في رفض الاقتراح. وقد ناقض جيفرسون نفسه قليلًا عندما اهتم بمسألة العدالة والعقوبة الإلهية، حيث كتب يقول: «وهكذا، نجد أن مصير الملايين ممن لم يولدوا بعد صار معلقًا على ما ينطق به لسان رجل واحد، ولكن السماء ظلت صامتة في تلك اللحظة البغيضة.» فهل كان جيفرسون وقتها يرتجف هلعًا على دولته من فكرة أن يكون الله محايدًا؟

الفصل الثالث

الثورة في فرنسا

(ولقاء مع سالي)

بعد أن أنهى جون جاي مهمته في أوروبا، وعُيِّنَ وزيرًا للخارجية، صار اختيار توماس جيفرسون ليخلفه في منصب المفوض الرسمي الخارجي لأمريكا هو الاختيار المنطقي. وكان المفترض أن يتخذ جيفرسون باريس مقرًّا رسميًّا له، وكان عليه أن يواصل العمل على التفاوض حول المعاهدات والتحالفات مع الدول الأوروبية. وفي صيف عام ١٧٨٤م، توجه إلى فرنسا، مصطحبًا معه ابنته باتسي وطاقمًا صغيرًا من المساعدين. وهناك، انضم إلى جون آدمز وبنجامين فرانكلين ليكوّنوا بذلك فريقًا هو بالتأكيد أعظم فريق جمعته يومًا الدبلوماسية الأمريكية أو أية دبلوماسية أخرى، إلا أن تلك الكوكبة المتميزة لم تستمر وقتًا طويلًا؛ فقد أصاب فرانكلين الضعف والعجز، وصار يتمنى العودة لدياره. وفي النهاية، قرر الكونجرس الإبقاء على مفوضين رسميين فقط في أوروبا؛ آدمز في لندن، وجيفرسون في باريس. ومن تلك اللحظة فصاعدًا، انغمس جيفرسون في الحياة السياسية بصورة شبه متواصلة لمدة ربع قرن من الزمان.

إلا أن بداية تولي جيفرسون لعمله في باريس لم تكن مبشرة بالنجاح. فقد أُصيب بنوبة جديدة من نوبات الصداع النصفي، وعرف بأنباء الوفاة التي حدثت في مونتيتشيللو؛ وهي وفاة طفلته الرضيعة لوسي، التي عجّل مولدها

بوفاة مارثا، إلا أن تلك الأنباء المؤسفة على الأقل حملها إليه رسول مرموق، هو ماركيز دو لافاييت، الذي كان عائدًا من جولة لتكريمه كبطل في الولايات المتحدة. وقد كان الماركيز ينتمي للطبقة الراقية في المجتمع الباريسي وكان يحظى فيه بعظيم الاحترام، وكان لصداقته بجيفرسون أثر في تخفيف شعور جيفرسون بالأسى، فضلًا عن فتح بعض الأبواب أمامه. غير أن جيفرسون كان حريصًا دائمًا، فعندما كان يُسأل في المجالس المرموقة عمّا إذا كان بديلًا لفرانكلين، كان يصر على أنه لا أحد يستطيع أن يحل محل الطبيب العظيم — وإنما يخلفه فقط.

وقد كان مركز أمريكا في أوروبا ضعيفًا بوجه عام. فقد صورت الصحافة البريطانية، التي كانت وقتها واسعة الانتشار، الجمهورية الجديدة في صورة تجربة همجية فوضوية تظهر عليها كافة أعراض الفشل. وكانت التجارة الأمريكية ضعيفة، وقدراتها العسكرية لا تُذكر (أَوَلم تضطر فرنسا لخوض الكثير من المعارك لتحقيق استقلالها؟) وكان من الصعب الحصول على رصيد من الأموال نتيجةً للديون الهائلة التي تورط الأمريكيون فيها عندما كانوا يقترضون لتمويل الثورة. واضطر الدبلوماسيون الأمريكيون للتذلل لرجال البنوك في أمستردام، ومناشدتهم لمد مهلة سداد الديون المعلقة. وقد توالت الإهانات دون رادع، الأمر الذي اكتشفه جيفرسون وأثار غضبه العارم عندما انضم لجون آدمز للتفاوض بشأن معاهدة تجارية في لندن. فعند تقديم الرجلين للملك جورج الثالث في حفل استقبال في مارس عام ١٧٨٦م، عومِلا معاملة شديدة الوقاحة. فعلى ما يبدو، لم يكن الملك ذا الطبيعة المتقلبة (والذي سبق أن استقبل آدمز بحفاوة عند بداية تعيينه) قد نسي أو غَفر بعضًا مما ذكره جيفرسون عن جرائم الملكية "Lese-majesté" في مقالته «رؤية ملخصة»، فضلا عما انتقاه من تعبيرات في إعلان الاستقلال. وقد كان لانتقام جيفرسون الحَذِر من ذلك السلوك الملَكي الفظ، الذي تحقق في البيت الأبيض بعد ذلك بعدة سنوات، صداه البالغ.

أما الموقف الأمريكي تجاه العائلة الملكية الفرنسية فكان مختلفًا بوضوح؛ فإن فرنسا كانت حليفًا مخلصًا لأمريكا ضد بريطانيا أثناء الحرب الثورية،

وأيضًا لأن بنجامين فرانكلين عومل فعليًّا بإجلال واحترام في القصر الملكي وكذلك في المجالس الفكرية والعلمية الفرنسية، إلا أن جيفرسون — الذي قام بزيارات عديدة خارج باريس، كان يتحدث فيها إلى عامة الناس كلما أمكنه ذلك — كان على دراية تامة بأن النظام المَلَكي المطلق كان يواجه أزمة الإصلاح، أو بالأحرى أزمة الثورة. وقد مكّنته صداقته بلافاييت من الاتصال بعناصر من النبلاء — أو الطبقة الثانية — الذين كانوا على استعداد للتفاهم مع الطبقة الثالثة؛ أو الجماهير المحرومة من حقوقها الانتخابية. (ومن السهل أن نتخيل موقفه تجاه الطبقة الأولى؛ أو الكنيسة الكاثوليكية بما في حوزتها من ممتلكات هائلة، وباحتكارها للدين، بما في ذلك الاضطهاد الرسمي للبروتستانت واليهود. وفي الواقع إننا لسنا بحاجة لتخيل موقفه. فعندما كتبت له ابنته باتسي، التي ألحقها بمدرسة راهبات في أباي رويال دو بانتيمونت "the Abbaye Royale du Panthemont"، خطابًا تخبره فيه أنها ترغب في أن تصبح كاثوليكية وأن تنذر نفسها لتكون راهبة، أسرع بركوب عربته وتوجه بها مباشرةً إلى المدرسة حيث أخرجها منها على الفور وعاد بها إلى البيت.)

ولم يُثر فساد وتدهور النظام الاجتماعي والاقتصادي الفرنسي غضب جيفرسون بصفته مجرد مشاهد للأحداث. وكانت معظم المعاملات التجارية في قبضة ما كان يُطلق عليه «مجلس عموم الإقطاعيين» "Framers-General"، وهي جماعة سرية من ذوي الأملاك تدعمها الدولة، وقد انتقل إليها الحق في جباية الضرائب والرسوم. وكان من ضمن مهام جيفرسون كمفوض رسمي فتح السوق الفرنسية أمام الواردات الأمريكية — وخاصةً التبغ — الأمر الذي أولاه جيفرسون كمزارع من فيرجينيا اهتمامًا أكثر من وطني، إلا أن احتكار التبغ بقي في قبضة مجلس عموم الإقطاعيين القوية، وقد أسهمت سلسلة المفاوضات المرهقة حول التبغ وغيره من البضائع في تدعيم قناعة جيفرسون بأن النظام المَلَكي فاسد من أساسه.

وقد بدا لبعض الوقت اعتقاد جيفرسون بأن الإصلاح داخل الحدود الأمريكية هو كل ما هو مطلوب. وشجعه على ذلك لافاييت، الذي كان يحتفظ

بنسخة للعرض من إعلان الاستقلال وضعها في إطار مزدوج في منزله، وقد ترك الإطار الآخر خاليًا «بانتظار إعلان حقوق فرنسا». وبدا لبعض الوقت أن الأمور تتقدم في هذا الاتجاه، تقريبًا كما كان سيحدث عَبر المحيط الأطلنطي الواسع، لو أن الملك جورج الثالث استمع لصوت العقل. (في التقارير التي أرسلها لجون جاي، وصف جيفرسون الملك لويس بأنه إلى حد ما رجل شريف وإن كان واضح الضعف، وأنه واقع بشدة تحت سيطرة زوجته الملكة المستبدة؛ ماري أنطوانيت.) وقد وافق الملك على الاستماع لوفود المفوضين، وعلى إجراء تعديلات وظيفية، مثل نقل نيكر "Necker"، الليبرالي العقلاني، إلى وزارة المالية، وأخيرًا وافق على الاجتماع الأول للطبقات الثلاث منذ عام ١٦١٤م. وقد انعقد ذلك الاجتماع لمجلس العموم "Estates General" في الخامس من مايو/أيار عام ١٧٨٩م، وحضره جيفرسون في الجزء المخصص للزوار. والواقع أنه كان أكثر من مجرد متفرج يثير الموقف اهتمامه. ومع اتضاح حقيقة أن اجتماع المجلس لن تصدر عنه أية تسوية سلمية بين المصالح الثابتة ومصالح الثوار، اقترح جيفرسون على لافاييت والآخرين إعداد «مشروع وثيقة حقوق»، يعلنه الملك بنفسه كإشارة لحسن النوايا. ولما تلقى جيفرسون استجابة إيجابية، عمل على إعداد ذلك الصك بنفسه، حيث أكد فيه على حق المتهم في الخضوع للمحاكمة، وعلى حرية الصحافة، وعلى كسر الاحتكارات المالية، وعلى حق مجلس العموم في سن القوانين (ولو حتى بموافقة الملك). ولكن الوقت الملائم لمثل هذه المفاوضات كان قد انقضى بالفعل، وبدأ الملك في اتخاذ موقف متعنت. ومن جديد، نزع جيفرسون إلى إلقاء اللوم على الملكة حيث كتب في وقت لاحق ما يأتي:

> «إن هذه السيدة الملاك — كما رسمها بيرك في قصائده رسمًا مبهرجًا بخياله الذكي ولكن دون حس سليم — كانت شديدة الكبرياء، تحتقر كافة القيود، وتنقم من كل ما يعرقل تنفيذ مشيئتها، وتتهافت على تحقيق لذاتها، وكان لديها من الحزم ما يكفي للتشبث برغباتها حتى الموت … وإنني لطالما آمنت بأنه لولا وجود الملكة، لما قامت

أية ثورة ... فقد كان ينبغي عليّ حبس الملكة في أحد الأديرة، بحيث يُنزع من سلطتها القدرة على إلحاق الأذى، ووضع الملك في موقعه، مع الحد من السلطات الممنوحة له، التي أعتقد عن يقين أنه كان سيستغلها بأمانة وفقًا للمبادئ التي يعرفها.»

ومع أن كل ما سبق كان يبدو معقولًا في ذلك الوقت، وحتى بالنظر إلى الأحداث السابقة (كما يُعتبر تصحيحًا لأنشودة المديح الشهيرة التي كتبها بيرك تذللًا لماري أنطوانيت)، فإنه يلقي الضوء على المأزق الذي سيجد النبلاء الليبراليون ونبلاء المستعمرات أنفسهم فيه. فكم تبلغ الاحتمالات الفعلية بأن يتصرف الملك لويس بأسلوب أكثر وقارًا عند حبس زوجته في أحد الأديرة؟ وحتى بعد فشل المفاوضات، وبعد أحداث ١٤ يوليو/تموز ١٧٨٩م المثيرة الصاخبة، التي شهدها جيفرسون بنفسه، فقد استمر في اعتبار نفسه واحدًا من ليبراليي لافاييت، كما كان الحال. والواقع أن أولئك الليبراليين، مع أوضاعهم المتقلقة المتداعية بشدة التي كان أغلبهم على غير دراية بها، كانوا من الثوار قلبًا وقالبًا. وقد أشرف ماركيز دو لافاييت على تدمير سجن الباستيل الذي جرى الاستيلاء عليه، وأعطى مفتاحه الضخم لتوماس بِين، ليحمله عَبر المحيط الأطلنطي ويقدمه هدية شخصية لجورج واشنطن. ثم قدم للمجلس الوطني «إعلانًا لحقوق الإنسان والمواطن»؛ وهو إحدى الوثائق المؤسسة للعالم الحديث، التي كان لجيفرسون نصيب في كتابة مسودتها. والإحساس الذي تملك جيفرسون بكونه جزءًا من مشروع عظيم وطموح مثل هذا، يفسر اللامبالاة التي استقبل بها إعدام بعض النبلاء الرجعيين وتقطيع أوصال بعضهم الآخر، فقد اعتبره ثمنًا بخسًا من الدماء بالنظر للظروف الجارية. ففي النهاية، ألم يلغِ المجلس كافة الامتيازات الإقطاعية والكنَسية بضربة واحدة؟ وقد استضاف جيفرسون في أغسطس/آب حفل عشاء نظمته جماعة لافاييت، متخطيًا بذلك — إلى حد ما — حدود واجباته الرسمية كوزير للخارجية، تلته مناقشة دوّنها جيفرسون باعتبارها «تستحق عن جدارة أن توضع في مكانة موازية لأرفع وأسمى حوارات العصور القديمة، كما قدمها

لنا كلٌّ من زينوفون Xenophon، وأفلاطون Plato، وسيسيرو Cicero.»
وقد اتفقت المجموعة على بقاء الملك في الحكم، مع تمتعه بحق الرفض المطلق للتشريعات، على أن يكون للمجلس كيان منفرد. وقد كانت تلك بالكاد هي روح فيلادلفيا بما تحويه من فصل للقوات. ولكن، مع نهاية سبتمبر/أيلول عام ١٧٨٩م، كان جيفرسون على متن السفينة بأمان قاصدًا طريق العودة إلى دياره. ولن يمر وقت طويل قبل نفي لافاييت وزملائه من النبلاء نفيًا إجباريًّا، ووضع توماس بين في الحبس الانفرادي الذي أقره ماكسيميليان روبزبيير Maximilien Robespierre محكومًا عليه بالإعدام. وربما يكون من أوجه التناقض، أن جيفرسون صار في وقت معين أكثر ولعًا بالثورة الفرنسية في الوقت الذي اشتدت فيه حدتها؛ الأمر الذي شكّل منعطفًا مميزًا في المرحلة التالية من صعوده للسلم السياسي.

وقبل أن نسدل الستار على المشهد في باريس، دعنا نأخذ موضوع سالي هيمنجز في الاعتبار. ففي باريس، التقى بها جيفرسون، وبدأ معها علاقة عاطفية استمرت لعدة سنوات، ونتج عنها العديد من الأبناء، وقد عرضته لفضيحة مدوية — وتسببت دون داعٍ في إرباك أجيال من المؤرخين الأمريكيين.

وقد كانت سالي هيمنجز حفيدة واحد من ملّاك العبيد البيض، وابنة آخر؛ هو جون وايليز "John Wayles". والسيد وايليز هو أيضًا والد زوجة توماس جيفرسون؛ مارثا. إذن، فالزوجة والعشيقة اللاحقة كانتا في الواقع أختين غير شقيقتين، إلا أن القول بوجود تحريم ما على تبادل العلاقات الجنسية «بين الأعراق المختلفة» أو بمعنى آخر «اختلاط الأجناس» في مونتيتشيللو هو أمر ينطوي على مبالغة شديدة. ومع أن سالي — كما سأدعوها من الآن فصاعدًا — كانت بالتأكيد من العبيد لأنها أحد ممتلكات جيفرسون القانونية، فإنها لم تتعرض أبدًا لإهانة وذل القيام بالأعمال الميدانية والضرب بالسياط. فقد كانت منذ طفولتها تُعامل بصفتها أقرب إلى وصيفة مميزة. وكانت متواجدة في الغرفة في اللحظة التي توفيت فيها مارثا جيفرسون، وسمعت جيفرسون يعد زوجته وهي تحتضر بألا يتزوج بعدها أبدًا. ومن الواضح أن سالي قد ازدهرت وأينعت جسدًا وعقلًا، على الأقل منذ ذلك الحين ومنذ

رحيل جيفرسون إلى فرنسا. فكل الروايات تتحدث عن جاذبيتها الأخاذة (كم كان الحصول على صورة شخصية لها سيكون لطيفًا!)، وكانت قريبتا جيفرسون؛ فرانسيس وإليزابيث إيبيس، تنظران بالاحترام الكافي لأخلاقها العالية ومواقفها العقلية، بحيث ائتمنتاها على مهمة تنطوي على قدرٍ من المسئولية.

أما المهمة، فكانت اصطحاب الابنة الصغرى لجيفرسون الباقية على قيد الحياة؛ ماري أو (بولي) عَبر المحيط الأطلنطي عام ١٧٨٧م. فبعد الوفاة المفجعة للوسي، رغب جيفرسون في أن تظل الابنة الصغرى بجواره. فأعطى تعليماته بإحضارها بصحبة إحدى الخادمات الأكبر سنًا، التي لم يعلم جيفرسون أنها كانت حُبلى في ذلك الوقت. ومن ثَّم، كانت سالي — ذات الأربعة عشر ربيعًا — هي من وكّل إليها آل إيبيس المحترمون ذوو المسئولية، تلك المهمة.

والدليل الأول الذي يرشدنا إلى تلك العلاقة ربما يكمن في تلك الحقيقة البسيطة؛ حقيقة أن جيفرسون، بعد أن التقى بسالي وتسلم منها ابنته في خير حال، لم يرسلها إلى الديار مرة أخرى (كما كان ينوي أن يفعل مع المرافقة الأصلية). ولم يطلب أي خدم إضافيين في فندق لانجيك "Hotel de Langeac"؛ مقره المجهز بعناية، الذي كان أخو سالي؛ جيمس، واحدًا من طاقم العاملين فيه، حيث كان يتدرب ليصبح طاهيًا للطعام الفرنسي. ومن المحتمل أن يكون لذلك الاعتبار الأخير أثر في دعوته لسالي بالبقاء. ولكنه لم يكن بحاجة فعلية لمربية أطفال؛ فإن ابنتيه قصدتا مدرسة داخلية. ومن ثَّم، فقد صارت سالي الجميلة جزءًا من أهل البيت الوزاري، دون أن تكون لها مهام محددة فيه. وفي عام ١٧٨٨م، بدأ جيفرسون في إعطائها وأخيها جيمس أجورًا، مع أنه لم يسبق له إعطاء جيمس أجرًا منتظمًا من قبل. والاسترقاق أيضًا لم يُقَرّ باعتباره أمرًا قانونيًّا على الأراضي الفرنسية، الأمر الذي كان جيفرسون على دراية به، والذي كانت سالي ستعرفه عاجلًا أو آجلًا. (وبموجب قانون قلب حياة جيفرسون رأسًا على عقب، سرعان ما ألغت الثورة الفرنسية الاسترقاق في كافة الأراضي الفرنسية، وعبر البحار كذلك.) ومن ثَّم، فمن الجائز القول إنه في حين كانت هناك بالفعل رابطة حب

مشتركة بين سالي وجيفرسون، وعلاقة أقرب إلى النسب عن طريق الراحلة مارثا — التي كانت سالي تشبهها إلى حد ما — فإن العلاقة بينهما لا يمكن وصفها بعلاقة «السيد بالعبد» بذلك المعنى الوضيع الذي عادةً ما يُفهم من مثل تلك العلاقة.

فحتى وقت قريب، تبنى أغلب المؤرخين وجهة النظر التي ترى أن هذه العلاقة الجنسية يستحيل تخيلها على الإطلاق — بالتأكيد «يستحيل تخيلها»، بمعنى أن المؤرخين بالكاد استطاعوا تصور حدوثها — وذلك لسببين: السبب الأول هو ذلك التقزز الذي افتُرض ببساطة أن جيفرسون قد شعر به بالتأكيد، سواء تجاه أية علاقة جسدية مع أحد العبيد أو (وفقًا لأهواء المؤرخ) أية علاقة جسدية مع أية امرأة سوداء. فمثلًا، بالنظر إلى سيرة حياة جيفرسون التي كتبها دوماس مالون "Dumas Malone"، والتي صوّره فيها في صورة مثالية واعتُبرت «معيارًا» لمدة طويلة، ربما تظن أن ذلك المؤرخ كان يجد صعوبة في استيعاب مسألة العلاقة الجسدية من الأساس. فمن حيث مكانة سالي، بالكاد يمكن اعتبارها أمة. ومن حيث «أصلها»، فقد كانت السلالة التي تنحدر منها، بالإضافة إلى مظهرها أقرب ما تكون لبياض البشرة. وقد قام جيفرسون لاحقًا بإعداد رسم بياني إثنوغرافي (أي لوصف الأجناس) شديد التعقيد، يوضح فيه أنه بعد عدد معين من عمليات «التهجين» بين السود والبيض، فإن الوصمة الأفريقية تزول. لقد كانت سالي «خِلاسية» (أي أن أحد أجدادها الأربعة كان زنجيًّا)، وقد تمكنت هي وأبناؤها الثلاثة — الذين لم يعتق جيفرسون سواهم من العبيد — من أن يُقَيَّدوا في إحصاء التعداد السكاني الرسمي لعام ١٨٣٠م باعتبارهم من «البِيض». وقد عاش معظم أحفادهم أيضًا في جانب «البِيض» من ذلك الحد الفاصل الذي لا يزال يعتبر أخطر الحدود الأمريكية، ومن المؤكد أن ذلك يؤهل سالي هيمنجز (التي يقع قبرها الآن في مكان ما أسفل موقف سيارات نُزُل هامبتون في تشارلوتسفيل) لتكون واحدة من الأمهات المؤسسات لجمهوريتنا.

في الدراسة العبقرية الحاسمة التي أجرتها البروفيسور آنيت جوردون ريد "Annette Gordon-Reed"، حول الموضوع بعنوان: «توماس جيفرسون

وسالي: القصة الأمريكية المثيرة للجدل» :Thomas Jefferson & Sally“ An American Controversy”، تشير الكاتبة بازدراء محكم إلى أن أغلب المحللين قد رفضوا حتى مجرد التفكير فيما إذا كانت سالي تملك عقلًا خاصًّا بها، أو إنها ربما تكون — على نحو أكثر إثارة للدهشة — استطاعت أن تتخذ بعقلها هذا قرارًا بإقامة علاقة مع رجل ثري شهير ساحر ذي سلطان. ولا نزال نعجز عن منح الإماء السوداوات الخرساوات «صوتًا»، باللغة الاصطلاحية الحديثة، أو أن نقر بحقهن في ذلك. ولكن لسوء الحظ، فإن سالي لا تزال «خرساء»، فالمجموعة الوحيدة من الرسائل التي ربما يكون جيفرسون قد تبادلها معها، هي وحدها من بين مجموع رسائله الضخم التي قُدر لها أن تضيع. فنحن حتى لا نعرف ما إذا كانت متعلمة؛ الأمر الذي يبدو احتماله واردًا، ولا ما إذا كانت تتحدث الفرنسية؛ الأمر الذي يبدو احتماله أكبر. كل ما لدينا هو شهادة ابنها ماديسون هيمنجز، بأنها أثناء وجودها في باريس، انتزعت من جيفرسون وعدًا بأن يعتق أي أبناء يُنجِبهم منها بمجرد أن يصلوا لسن البلوغ. والدليل «الوحيد» على ذلك الوعد هو أنه عتقهم بالفعل، عتقهم جميعًا، ولم يعتق سواهم من العبيد أبدًا.

فماذا لدينا أيضًا عن شخصية جيفرسون من صفات تدعمها الوثائق على نحو أفضل؟ فأما عن ولعه بالنساء الجميلات فهو أمر مؤكد لا شك فيه، وتشهد بصحته زوجته وزوجة السيد جون واكر — الزوج الذي تعرض للمهانة في أولى «فضائح» جيفرسون المؤكدة. ويشهد بذلك أيضًا السيد كوزواي Mr. Cosway، الزوج الإنجليزي للفاتنة ماريا، التي أقام معها جيفرسون علاقة مفعمة بالمشاعر في أثناء إقامته في باريس. وربما لا نعرف عن يقين ما إذا كانت تلك العلاقة قد تطورت لدرجة العلاقة الجنسية، إلا أن أحد أقوى الخطابات العاطفية — أو حتى غير العاطفية — التي كتبها جيفرسون عن الصراع بين العقل والقلب، كان موجهًا على نحو صريح إلى ماريا كوزواي، ولم يكن ذلك الخطاب هو أطول خطاب كتبه جيفرسون فحسب، ولكنه كتبه أيضًا مستخدمًا يده اليسرى بعد أن كسر معصمه الأيمن أثناء قفزه من

فوق سياج في محاولة لإبهارها. وهناك خطاب آخر منه إليها، كتب بتاريخ ٢٤ أبريل/نيسان عام ١٧٨٨م، نجد فيه ما يأتي:

> «في ستراسبورج، جلست لأكتب إليك، ولكن لعمري، لم يسعني التفكير في شيء في ستراسبورج سوى الأنوف الطويلة البارزة؛ مثل أنف دييجو، وأنف مؤرخه سلوكينبيرجيس "Slawkenburgius"، وموكب أهالي ستراسبورج الذي توجه [هكذا] لملاقاة الرجل ذي الأنف، فلو كنت كتبت إليكِ من ذلك المكان، لكان ذلك استكمالًا لما كتبه ستيرن Sterne عن الأنوف، وأنا أعلم أن الطبيعة لم تؤهلني لأخلف ستيرن.»

وتلك إشارة أخرى من إشارات جيفرسون، التي تبدو له بسيطة ويبدو واضحًا أن السيدة كوزواي قد استوعبتها، إلى رواية «تريسترام شاندي» للورنس ستيرن، التي تحوي فقرة سخيفة مزعجة عن التشابه بين الأنوف والأعضاء التناسلية الذكرية. ومن الواضح أن السيدة كوزواي استوعبت معنى الإشارة؛ الأمر الذي أثار استياءها، مما تسبب في فتور العلاقة بينهما. ولكن ذلك لم يغير شيئًا من حقيقة أن جيفرسون كان متمكنًا من الناحية الجنسية، وكان إلى حد ما متحمسًا، وكانت لهفته واضحة، إلا أنه لم تكن له عشيقة. ولأن ذلك الأمر الأخير كان يُعد انغماسًا في الشهوة — على الأقل علي المستوى العام — فإن مركزه كوزير كان سيجعله أمرًا شاقًّا عسير المنال على أية حال. وعلى الأرجح أن علاقة جيفرسون بسالي لم تبدأ إلا لاحقًا في عام ١٧٨٨م. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، صارت سالي تتقاضى أجرًا، وتقيم في مسكن خاص منفصل كلما سافر جيفرسون خارج باريس، ومُنحت بعض الملابس اللائقة لترتديها في تلك المدينة التي تقدر الأزياء الحديثة. (وقد سجّل في حساباته الخاصة بشهر أبريل/ نيسان عام ١٧٨٩م مائتي فرانك خاصة «بملابس سالي».)

وعندما رحلوا إلى أمريكا، ومع إصرار جيفرسون على أن يكون مجلس سالي في السفينة بجواره، رجّح بعض المؤرخين أنها كانت حُبلى، مع أن

الطفل، إذا كان هناك طفل بالفعل، لم يبق على قيد الحياة، إلا أن كل أبناء سالي التاليين، الذين أُدرجوا كما ينبغي في سجلات «دفتر المزرعة» الخاص بجيفرسون في مونتيتشيللو، قد وُلدوا بعد تسعة أشهر بالضبط من إقاماته القصيرة المتقطعة بكثرة في المنزل. ولم يتواجد في كل هذه الأوقات أي شخص آخر يُحتمل أن يكون هو الأب، الأمر الذي يدحض ذلك الإيحاء المقيت، غير المبرر، الذي أوحى به الكثير من المؤرخين المعروفين، بأن سالي هيمنجز ربما كانت تمنح نفسها أو حتى تبيعها لأي رجل من أفراد أسرة جيفرسون. وقد تحرر كل الأبناء من الرق. وفي ضوء كل ما سبق، لم يكن هناك داعٍ أن تقوم الجريدة العلمية ناتشر "Nature" في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٩٦م، بنشر تحليل دي إن إيه "DNA" مفصّل، أجرته ثلاثة معامل مختلفة كل منها بمعزل عن الآخر وعلى غير دراية بهوية أصحاب العينات، أظهر توافقًا ممتازًا بين عينة دماء جيفرسون والعينات الخاصة بأحفاد آل هيمنجز. ومن بين أشياء أخرى، فإن هذا التوافق الجيني بالتحديد قد استبعد تمامًا كلًّا من بيتر وصامويل كار، أبناء أخوة جيفرسون، وهما القريبان اللذان كان كلٌّ من أحفاد جيفرسون البيض، ومجتمع البِيض بوجه عام، والمؤرخين المتخصصين في «تقليل الأضرار» مثل دوجلاس أداير Douglas Adair؛ على استعداد لتحميلهما ذلك اللوم المبني على أدلة ظرفية، أو الشكوك التي تراكمت مع الوقت. وقد علّق إيميرسون Emerson على هذا الأمر بأن الظروف تكون عادةً مقنعة بقدر الأدلة — «كما تعثر على سمكة سلمون في كوب لبن.» إلا أن الأدلة التي نملكها الآن، التي تمثل للسلمون واللبن ما تمثله القشدة للقهوة، بل وأكثر من ذلك، لا تدع مجالًا لأي شك منطقي.

أول من ألقى «مزاعمه» ضد جيفرسون في حياته كان جيمس كالندر "James Callender"، وهو صحفي من الدرجة الثانية متخصص في المتاجرة بفضائح الناس، وقد كان جيمس مفيدًا لجيفرسون في وقت سابق، إلا أن الخلاف نشب بينهما وصار جيمس مروجًا دعائيًّا للفيدرالية. وقد كان كالندر مجرمًا سكيرًا ذا عقلية شريرة، وكان مهووسًا بكلٍّ من العرق والجنس. وقد أشار في مقالاته إلى سالي بـ«العاهرة»، وإلى أبنائها بـ«القطيع»، وإلى جيفرسون

برجل ماجن شهواني لدرجة أن يستدعي سالي من «المطبخ أو ربما من حظيرة الخنازير». وبالطبع، فإن المقارنة بالحيوانات، وتشبيه «اختلاط الأجناس» بالبربرية، تُعد أمورًا مؤسفة بشدة. ومع ذلك، فقد استمر دوماس مالون — أكثر كتّاب سيرة حياة جيفرسون وقارًا — في الكتابة على هذا المنوال حتى وقت قريب عام ١٩٨٥م، فقد كتب أن ادعاء ماديسون هيمنجز بأنه ينحدر من سلالة سيده لا يعد بأي حال أفضل من «شهادة النسب المطبوعة على الوثائق العديدة الخاصة بفحول الخيل، التي نراها ملصقة على الأعمدة الخشبية داخل الإسطبلات في فصل الربيع. ومهما تكن سلالة الخيل وضيعة أو حتى إذا كانت مجهولة الأصل، فإن المالك يلفق لممتلكاته أصلًا مشرفًا.» ومن بين عدة إساءات أخرى، فإن هذه الصورة تحديدًا تعكس ببساطة وبصورة مباشرة الحقيقة التاريخية للعلاقة بين «الملّاك» و«الممتلكات». بمعنى آخر، فقد شعر المؤرخون لعقود كثيرة أنهم يستطيعون تجاهل قصة كالندر لأنها نشأت عن تعصب أعمى من شخص ذي معتقدات سياسية معينة. ولكننا لا نستطيع تقصي حقيقة ذلك الاستنكار الراسخ في وجدان تلك المجموعة الكبيرة من المؤرخين تجاه الحقائق الواضحة بذاتها، دون أن نقدر أن التمييز على أساس العرق، وعلى أساس الجنس، والمبايعة السياسية؛ كلها أمور تكشف عن وجودها بطرق متساوية في القبح والغلظة، وبأساليب أكثر «موضوعية» من الناحية الظاهرية، وفي قلب حضارتنا التقليدية الجليلة.

الفصل الرابع

مرحلة انتقالية

كان غياب جيفرسون في فرنسا فيما بين عامي ١٧٨٥م و١٧٨٩م مفيدًا لوضعه السياسي فيما بعد؛ فإن ذلك الوقت في فرنسا أكسبه سمت الدبلوماسي والمفاوض رفيع الشأن، ولكن الأهم، أن ذلك جعله بمنأى — بل إلى حد ما يسمو — عن الصراعات الداخلية. وفي أثناء غيابه، انعقد المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا وأشعل دانييل شايز Daniel Shays فتيل الانقلاب، مما أتاح لجيفرسون حرية التعليق على الأحداث دون تحمّل المسئولية. وعلى أية حال، فقد كانت أغلب تعليقاته في جميع الأحوال خاصة، كما ينبغي أن يكون عليه الأمر لمفوض رسمي قدير مثله، غير أن ذلك لم يمنعها من الانتشار على نطاق واسع.

وقد واجه تمرد شايز — الذي كان في الأصل ثورة شعبية ضد الضرائب المبالغ فيها في ماساتشوسيتس — الجمهورية الجديدة بالموضوع المُلح الخاص بالديون. وقد نشأ هذا بدوره من السياسة البريطانية التي تطالب التجار الأمريكيين بتسديد ما عليهم بالعملات الذهبية والفضة. وكما سيحدث مع ويليام جيننجز بريان William Jennings Bryan بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان، فقد صار شايز البطل الشعبي المدافع عن كل المزارعين المُفترض كونهم شرفاء ومكافحين، الذين كانوا يرون أنهم مضطهدون بسبب تطبيق السياسة الائتمانية التي أملتها عليهم صفوة المجتمع المدني. وفيما بين عامي ١٧٨٦م و١٧٨٧م، احتشد الرجال والأولاد من المناطق الزراعية في عدة ولايات حول شايز، الذي كان له من المصداقية ما كان لنقيب سابق في

جيش جورج واشنطن القارّي (Continental) وهو الجيش المكون من أفراد المستعمرات التي ثارت على احتلال إنجلترا لها. وقد كان واشنطن مُطالَبًا ببذل مجهود شاق من جانبه لقمع التمرد بالاستعانة بالمليشيات (أي جند الطوارئ).

وقد كانت هناك وجهتا نظر محتملتان في شايز: إحداهما أنه كان يمثل الروح التقليدية المعادية للضرائب وللسلطة التي سادت عام ١٧٧٦م. أما الأخرى، فإنه كان من المتاجرين بإثارة مشاعر العامة مما يهدد الأساس الكُلي لأمريكا الجديدة. وقد أصر جيفرسون وهو في باريس على تبني وجهة النظر الأولى؛ فقد كتب بعدم اكتراث شديد لزوجة جون آدمز؛ آبيجايل Abigail قائلًا: «إن روح المقاومة ضد الحكومة تكون ذات قيمة عالية في مواقف محددة، مما يجعلني أتمنى أن تظل دائمًا حية. وستظل غالبًا تنشط فقط عندما تسوء الأمور، وإن كان هذا أفضل من ألا تنشط على الإطلاق. إنني أفضل حدوث القليل من التمرد بين الحين والآخر؛ فذاك يُشبه هبوب عاصفة في الجو.»

وعندما كتب جيفرسون ما سبق، لم يكن قد سمع بعد بأنباء إراقة الدماء التي صاحبت التمرد. وحتى عندما سمع بها، لم يتزحزح عن لامبالاته قيد أنملة. فكتب لويليام سميث؛ زوج ابنة آدم يقول: «وما قيمة بضعة أرواح تُزهق في جيل أو جيلين؟ لا بد من إنعاش شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة؛ فذاك هو سمادها الطبيعي.» ويفهم من هذه العبارة أن مفتاحها ليس في كلمة «الوطنيين»، وإنما في كلمة «الطغاة» وإن المُرشح الوحيد لذلك الوصف هو الحكومة التي كان جيفرسون نفسه يخدمها بصفته سفيرًا. وقد لاحظ المؤرخون اللاحقون نزوع جيفرسون في بعض الأحيان إلى القسوة وعدم الاكتراث بالآخرين، وذلك فيما كتبه عن الإصابات التي تسبب في إحداثها بعض الأفراد ممن كانوا ينالون استحسانه، إلا أن تلك النزعة — التي تبدو على الأرجح ضرورية لأي قائد — من المُتوقع أن تُستغل ضد هذا القائد نفسه عندما يصبح هو مركز السلطة. (وقد لاحظ كونور كروز أوبراين "Conor Cruise O'Brien"، وهو أكثر من انتقد

جيفرسون حدة، كيف أن جيفرسون لم يغضبه كثيرًا قمع من لا يميل لهم من المتمردين، مثل العبيد في هاييتي. ولاحظ أوبراين أيضًا أمرًا مثيرًا للقلق؛ هو أنه عندما أُلقي القبض على تيموثي ماكفي "Timothy McVeigh" في أعقاب أعمال العنف في مدينة أوكلاهوما، كان مرتديًا قميصًا خفيفًا مطبوعة عليه الكلمات الآتية في وضوح: «لا بد من إنعاش شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة.» وقد كانت قنبلة ماكفي الأمريكية الفاشية معظمها مصنوع من المخصبات، مما قد يدفع أولئك الذين يقارنون الدماء بالأسمدة بكل بساطة للتروي قليلًا فيما يقولون.)

وماكفي لا يُعد النموذج اللاحق الوحيد الذي يحيي عبارة جيفرسون من جديد ويستخدمها ضد الحكومة الفيدرالية المستبدة. ولكن الحقيقة الخطيرة هي أنه فيما بين عامي ١٧٨٦م و١٧٨٧م، لم تكن «هناك» أية حكومة فيدرالية. الواقع أن شايز شنّ هجومه ضد حكومة ولاية ماساتشوسيتس، قبل أن تتغلب عليه فرق الميليشيات المفوضة من قِبل الرئاسة. وقد كانت هناك حاجة ماسة في ذلك الوقت لدستور يعمل على تقسيم السلطات والمسئوليات، فيما بين الولايات ومركز السلطة. وبهدف تحديد مثل هذه الوثيقة وكتابة مسودتها، انعقد المؤتمر في فيلادلفيا عام ١٧٨٧م، في غياب بطل استعراض فيلادلفيا السابق.

والقول بأن جيفرسون قد استاء فقط من ذلك الغياب الذي أُجبر عليه، هو مغالاة في تبسيط ما شعر به. وقد بقي على دراية بكل ما يحدث، ثم كتب في أغسطس/آب عام ١٧٨٧م، لجون آدمز معبرًا عن شعوره بخيبة الأمل من السرية التي أحاط النواب أنفسهم بها (السرية التي كان يجدها أمرًا ملائمًا بما يكفي عند كتابة إعلان الاستقلال):

> «يؤسفني أنهم بدءوا مداولاتهم بمثل هذه السابقة البغيضة؛ ألا وهي عقد ألسنة الأعضاء عن الكلام. فلا يوجد ما يبرر ذلك إلا أن تكون نواياهم بريئة، وأن يجهلوا قيمة المناقشة العامة. ولا يساورني شك في أن كل الإجراءات الأخرى التي سيتخذونها ستكون سليمة وحكيمة. إنه حقًّا اجتماع لمجموعة من أنصاف الآلهة.»

وقد أسهم هذا التهكم الطفيف في إخفاء انقسام الرأي الذي عاناه جيفرسون نفسه فيما يتعلق بقيمة الدستور. فهل سيجعل الحكومة الفيدرالية شديدة القوة، أم شديدة الضعف؟ لقد ظن في البداية — كما كتب في خطابه لآدمز — أن عامل «القوة» كبير جدًّا، وعلاوة على ذلك، كان هناك مبالغة وإسهاب شديدان سواء في الحديث أو الكتابة عنه، كما يبدو واضحًا في قوله: «ما رأيك في دستورنا الجديد؟ أعترف بأن بعض النقاط فيه تزعزع كافة معتقداتي بقوة.» وبالرجوع إلى شايز، الذي كانت له بصمة واضحة على المداولات، اعتقد جيفرسون أن «اجتماعنا قد تأثر إلى حد بعيد بحالة التمرد في ماساتشوسيتس؛ وكأنهم اتخذوا قرارًا عفويًا بتجهيز حِدَأَة للإبقاء على النظام داخل حظيرة الدجاج.» وأضاف — معارضًا الأساليب الحديثة بأساليب متمرسة لخبير محنك — قائلًا: «إن كل ما ينتج عنه من خير» كان من الممكن أيضًا «صياغته في ثلاثة أو أربعة بنود جديدة تُضاف إلى الهيكل القديم الرائع والمهيب» لبنود الاتحاد الكونفيدرالي (الذي لم يتجاوز عمره وقتها بضع سنوات)، والذي وصفه جيفرسون كذلك، على نحو بدا غريبًا لُمهاجم معتقدات مثله، باعتباره يستحق الحفاظ عليه وكأنه «أثر ديني مقدس».

أما عندما كتب لجيمس ماديسون؛ أحد المؤلفين الرئيسيين لمجموعة المقالات التي تكوّن منها ما نُطلق عليه اليوم «الفيدرالي» ”The Federalist“، فكانت لهجته شديدة الاختلاف. لقد أثّر فيه فصل ثالوث القوى المكوّن من السلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، والكونجرس تأثيرًا إيجابيًّا، ولم يكن قلقًا بشأن مستقبل الولايات المُستقلة، التي شعر أن مصالحها قد توازنت على نحو رائع، إلا أنه كان سريعًا في الاقتباس من المجادلات المعادية للفيدرالية ليشجع ماديسون على صياغة وثيقة حقوق Bill of Rights، وعلينا أن نتذكر أن الأنباء الخاصة بكافة التطورات كانت تصله في صورة صدى للمناقشات المستمرة. وقد رأى حليفه الفيرجيني القديم أن تلك الإضافة — أو ذلك التعديل — للدستور لم يكن ضروريًّا. ولكن جيفرسون زعم أنه على العكس من ذلك، فإن الضمان المدون لحقوق معينة (وقد اختار ألا يستخدم كلمة

«لا يمكن التنازل عنها») يعد تقدمًا ملموسًا. وتعرض أيضًا لاعتبار آخر، «وهو اعتبار له ثقل عظيم عندي؛ ألا وهو، القيود الشرعية التي يضعها هذا الضمان في حوزة السلطة القضائية. وهي كيان، إذا حصل على استقلاله والتزم أعضاؤه بحدود مراكزهم، فسوف يستحق عن جدارة أن ينال عظيم الثقة لنزاهة أعضائه وخبراتهم الواسعة.»

عندما تعرض جيفرسون لقضية وثيقة الحقوق والمراجعة القضائية، وكذلك لقضية تمتع الولايات بالاستقلال والمساواة، لم يكن يدرك أنه بهذا يزرع الأشواك في طريق مستقبله الرئاسي. ولكنه سرعان ما اكتشف أن اقتراحاته المتنوعة، مع ما كان يُفترض أن تكون عليه من سرية، قد جرى «تسريبها». ففي أثناء غيابه، تحولت أمريكا بشدة إلى النظام الحزبي، ومع أن الدستور نفسه قد استعد إلى حد ما — إن كان قد استعد أصلًا لقيام الأحزاب السياسية — فقد كانت هذه النزعة في تزايد مستمر. وقد كان لهذه النزعة على جيفرسون أثران: فعلى المدى القصير، صار من العسير عليه أن يبقى على جانبي القضية في الوقت ذاته (كما حدث عندما أعرب عن أمله في أن تكون موافقة الدستور بأغلبية الولايات، في الوقت الذي أيّد فيه رغبة مناقضة؛ وهي أن بعض الولايات، في ظل غياب وثيقة حقوق، تستطيع أن ترفض الموافقة تمامًا.) وعلى المدى الطويل، صار مستعدًّا لمواجهة السياسات الحزبية التي استُلهمت من الجدل الدائر حول الفيدرالية.

وقد عَبّر جيفرسون ببراعة عن كل ما كان يدور في ذهنه المضطرب من التباسات في الخطاب الذي كتبه لجيمس ماديسون من باريس في سبتمبر عام ١٧٨٩م. ومن الأمور التي ربما تكون ذات مغزى — وربما لا تكون أيضًا — أنه لم يرسل الخطاب بالبريد، ولم يسلمه لماديسون يدًا بيد في أول لقاء لهما بعد عودته من فرنسا، إنما في النهاية أرسله له في نيويورك في يناير عام ١٧٩٠م. وفي ذلك الخطاب، عرض الرأي الذي يقول «إن كوكب الأرض يجب أن ينتمي للجيل الذي يحيا عليه فقط»، والذي ينبغي أن يملك «حق الانتفاع» به، وهو حق يماثل في قوته حق أية أمة مستقلة في التحرر من قيود الأجيال السابقة. وقد حسب دورة حياة الجيل الواحد بتسعة عشر

عامًا، واقترح أن ينتهي أي نوع من أنواع النُّظُم الحكومية أو القوانين أو الديون عند هذا الأجل، وبذلك تتجدد عقود استئجار البشر للخزانة العامة لكوكب الأرض. وقد كانت لآدم سميث وجهة نظر مشابهة؛ حيث زعم أن «كل أجيال البشر المتعاقبة تتساوى في حقها في كوكب الأرض، وفي كل ما عليها»، ولكن ذلك الحوار بين جيفرسون وماديسون لم يكن سوى تمهيد للمواجهة الكبرى، التي ستحدث بعد عامين، بين إدموند بيرك وتوماس بين؛ فقد أعلن بين في كتابه حقوق الإنسان Rights of Man، أن «الإنسان لا يملك الحق في امتلاك الإنسان»، وهي فكرة كان من الممكن أن تقوم بدور إيجابي جدًّا في معارضة الاسترقاق، غير أنها في الواقع تستنكر عُرفًا ومبدأ وراثيًّا باعتبار أنه يمنح الأموات حقوقًا على حساب الأحياء. فقد أكّد بيرك أن المجتمع عقد بين الذين رحلوا عن الحياة، والأحياء، والذين لم يولدوا بعد، وقد سبقه ماديسون في توجيه النقد لجيفرسون. ألم تكن القضية هي أن الأجيال السابقة قد حفرت الطرق وأنشأت الكباري، كي تستخدمها الأجيال التالية؟ هل من الممكن فعلًا القول بأن الأجيال تسلم زمام الأمور لـ«خلفائها» بانتظام كل تسعة عشر عامًا؟ ففي سلسلة مقالات «الفيدرالي»، من المقالة السابعة والأربعين وحتى المقالة الواحدة والخمسين، كتب ماديسون بالفعل نقدًا صارمًا لمسودة دستور ولاية فيرجينيا التي كتبها جيفرسون، وبالتحديد فكرته عن فصل القوى، ووجهة نظره في أن النزاعات الدائرة حول مسألة الفصل هذه يجب حلها بالاحتكام مباشرةً إلى الشعب. ولم يكن هذا مجرد اختلاف حول ما يستحق الاهتمام؛ فقد كانت تقبع وراءه أفكار معارضة بشدة للحكومة.

وما من شك في أن جيفرسون قد تأثر في تلك الأفكار تأثُّرًا عميقًا بالثوار الفرنسيين، وبحماستهم الشديدة لتغيير العالم. وقد تجسد هذا بوضوح شديد في قيامهم بإلغاء التقويم الجديد وإعلانهم بداية جديدة للزمن. وعندما عاد جيفرسون للولايات المتحدة التي تحولت حديثًا للنظام الفيدرالي، كان يحمل معه قناعةً بأن ثورة عام ١٧٨٩م كانت استئنافًا وتعزيزًا لأحداث عام ١٧٧٦م، بالإضافة لكونها ميلادًا لحليف جسور لأمريكا ضد المكائد البريطانية

المستمرة. ولو استوعب جورج واشنطن ما توحي به الأحداث السابقة، فربما لم يكن ليسلم جيفرسون، بمجرد أن وطئت قدماه أرض الوطن، عرضًا بأن يصبح وزيرًا للخارجية.

الفصل الخامس

وزيرًا للخارجية

استسلم جيفرسون لمحاولات واشنطن لإقناعه، بعد أن تظاهر كعادته بنفوره من العرض وعدم الاكتراث به. وربما كان يُفضل أن يُعاد تعيينه في ذلك المنصب في باريس (ومَن ذا الذي لا يفعل، والثورة الفرنسية تتسارع أحداثها ويتصاعد إيقاعها؟). أو بدلًا من ذلك، ربما كان يرغب في تولي مسئولية تربية بناته وتزويجهن والاعتناء بمنزله؛ مونتيتشيللو. وكان جيفرسون في ذلك الوقت قد شارف السادسة والأربعين من عمره، وهي سنّ كانت تُعد متقدمة في ذلك الوقت. ولكنه كان قويًّا معافى وكان أرملًا، اختبر الدنيا ورأى منها الكثير. وقد لدغه عقرب السياسة بقسوة عندما كان خارج البلاد، وبدا واضحًا أمامه أن الاتجاه الذي تتخذه الشئون الأمريكية لا يمكن أن يؤتمن عليه منافسوه كلية، حتى الودودون منهم.

وقد ازداد ذلك الانطباع قوةً بعد توليه لمنصبه، في العاصمة المؤقتة نيويورك، في مارس عام ١٧٩٠م. فقد ظهر في المدينة ميل ملحوظ نحو تأييد الجانب البريطاني المحافظ حتى أثناء الحرب الثورية، حتى صارت تفوح من منتدياتها رائحة مَلَكية أمريكية زائفة، متركزة حول الرئيس واشنطن الذي يبدو لطيف المعشر بصورة مبالغ فيها. ومع أن جيفرسون لم يساوره الشك في أن تكون لواشنطن نفسه ميول مَلَكية (أو ليس في تلك المرحلة على الأقل)، فقد كان على يقين من أن الحاشية المتملقة كانت تسعى لفرض نظام الرُّتب والألقاب. وقبل أن يغادر باريس، أخبره ماديسون أن جون آدمز اقترح أن يُلقّب واشنطن بـ«صاحب السمو، رئيس الولايات المتحدة، وحامي

حرياتها»، وهو أسلوب خطابي استنكره جيفرسون باعتباره «من أسخف ما يكون». ولكن أعضاء الهيئة التشريعية فضلوا صيغة «السيد الرئيس» المبسّطة؛ الأمر الذي شرح صدره، ولكن الخطر كان لا يزال قائمًا. ففي النهاية، آدمز هو نائب الرئيس حاليًّا، ومن المنطقي جدًّا أن يأمل في أن ينتقل إليه لاحقًا أي لقب شرفي يُطلق على جورج واشنطن، سواء عن طريق الوفاة أو الخلافة. إذن، فالأمر يتلخص في تأييد جانب واشنطن الديمقراطي، وصد الإغراء القادم من جهات أخرى.

ولم تكن للأحزاب السياسية وقتها أسماء متوقعة، إلا أن مسميات مثل الفيدرالي والمعادي للفيدرالية كانت الأكثر تداولًا. وعندما سعى جيفرسون لتوصيف المبايعة السياسية، حقق مراده بإضفاء صفة القومية على المسألة، والإشارة إلى نخبة الأعيان ونبلاء المستقبل بمسمّى «المولعين بالإنجليز» أو ”Anglomanes“ أو أي مسمّى آخر يعبر عن الحنين للدولة القديمة ونظام حكمها. وسواء سرًّا أو علنًا في بعض الأحيان، فقد كان يتقبل تمامًا تلك النتيجة الطبيعية، وهي تعريف الأمريكي الصالح على أنه المُتعاطف مع الثورة في فرنسا.

وكانت المدة التي تولى فيها منصب وزير الخارجية بمنزلة تجربة الأداء النهائية للمدة القادمة التي سيقضيها في المنصب. وواجهت الولايات المتحدة، التي كانت وقتها لا تزال مُقتصرة على الساحل الشرقي، مراوغات ثلاث قوى عُظمى، هي: بريطانيا، وفرنسا، وإسبانيا، وكلها تحارب في نفس القارة وتسعى للسيطرة على أعالي البحار. أما الأراضي الغربية والأجزاء الداخلية، فكانت الأمم الهندية المختلفة على استعداد للتحالف مع أي طرف يبدو أنه في الجانب الفائز. أما داخل الحدود السياسية للولاية الجديدة، وكما أظهرت ثورة شايز، فكانت هناك صلة قوية بين أكبر مشكلة محلية — وهي مشكلة المديونية — وبين تقلب السياسة الخارجية. وباعتبار جيفرسون عضوًا في البطانة الخاصة بواشنطن، التي شملت كلًّا من ألكسندر هاملتون، وجيمس ماديسون، وهنري نوكس، وإدموند راندولف، وجون آدمز، لم يكن دوره بأية حال يقتصر على إدارته المختصة بالشئون الخارجية.

وربما يصف البعض الصراع الناتج على أنه صراع مثلثيّ، غير أن المثلث لم يكن بأية حال متساوي الأضلاع. ففي الخارج، كان من الضروري عمل موازنة بين القوى الثلاث المتنافسة ومحاولة الاستفادة من أي صراع يدور بينها. وفي الداخل، كان من الضروري تجنب محاولة أي حزب للهيمنة، وبخاصة الأحزاب المتحالفة بشدة مع أية قوى أجنبية. وعلى الحدود، كانت المراقبة ضرورية لاقتناص أية فرصة لتأمين الميسيسيبي، الذي إذا عجزت الولايات المتحدة عن امتلاكه — وبالنظر إلى منفذه على جزء شاسع من الأراضي الداخلية — فإن أقصى ما تستطيع «الولايات المتحدة» أن تطمح فيه هو أن تكون قوة ساحلية. وقد تعامل جيفرسون مع هذا المأزق الثلاثي الجوانب بالطريقة الآتية: فقد عمل على تشجيع أية بوادر للصدام أو الغيرة بين بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، في الوقت الذي احتفظ فيه سرًّا بانحياز قوي لمصلحة الجانب الفرنسي. وحدد المصالح البريطانية ونظيرتها القومية المحافظة، مع من هم على شاكلة هاملتون الذي أيّد التوجه الأرثوذكسي الصارم فيما يتعلق بالمالية العامة. وكذلك، فقد فحص الحدود بدقة بحثًا عن أية علامة على وجود ثغرة، معتمدًا — على المدى الطويل — على اعتقاده القوي المعادي للفكر المالتوسي الذي يرى أن الأمريكيين من الممكن أن يتزاوجوا خارجيًّا من كل خصومهم، ومن ثَم يملئون — دون أن يستنزفوا مخزونهم من الطعام أو الموارد الأخرى — أية مواقع خالية بمستوطنين جُدد لا يتزحزحون.

والقول بأن هذا قد أقحمه في بعض التغيرات السريعة في المبدأ والولاء هو من قبيل التبسيط الشديد للموضوع. فقد حُسمت واحدة من أوائل المعارك بفعالية وهو لا يزال في طريق العودة من باريس. ففي وزارة المالية، اقترح ألكسندر هاملتون دمج الديون القومية أو الخارجية مع الديون التي تدين بها الولايات للحكومة الفيدرالية الجديدة. وقد كان هذا منطقًا اقتصاديًّا سليمًا من ناحية، إلا أنه يضع المقترضين الأقل قوة في الدولة تحت رحمة المضاربين الذين كان باستطاعتهم شراء سندات المقترضين بأسعار مخفضة. واعتمد الأمر — باعتباره مسألة قدرة على السداد — على تثبيت وتوطيد حالة الموازنة التجارية القائمة مع بريطانيا. ولما كان جيفرسون غير واثق من النقطة التي

ينبغي أن يُهاجم منها هذا التحالف للمصالح الذي كان يمكن الدفاع عنه لقوته وسلامة حجته، فقد وجد نفسه في موقف لا يُحسد عليه. «لقد وصلت في وسط المعمعة»، كما أخبر جيفرسون لاحقًا قرّاء سيرته الذاتية الموجزة المبهمة. «ولكنني كنت غريبًا عن الموضوع، وغريبًا عن المشاركين فيه، وقد غبت عن الساحة لمدة طويلة جدًّا حتى إن الموضوع صار غير مألوف لي، ولّما كنت غير متأكد من هدفه، فقد تجاهلت الأمر برمته.» وذلك التصريح المعقد إلى حد ما يعبر عن حالة الإحباط التي من المؤكد أنه شعر بها في ذلك الوقت، وخاصةً مع تقيده بمحاولة إقناع الكونجرس باعتماد نظام موحد للسلطات والقوانين، ومعاناته من تجدد هجوم نوبات الصداع النصفي.

وسرعان ما أدرك ألكسندر هاملتون أنه يواجه معارضة شعبية يصعُب قهرها لخطته بدمج الديون. فقد كانت تلك الخطة في واقع الأمر تعني فرض الضرائب على الأفراد الأكثر فقرًا في الولايات الأكثر فقرًا (وبخاصة الولايات الجنوبية)، تحقيقًا لمنافع فيدرالية أكبر في المستقبل الافتراضي القريب إلى حد ما. وعند هذه النقطة، وصل الكونجرس لطريق مسدود. وفي نفس الوقت، وصل لطريق مسدود عند نقطة أخرى؛ فقد أوصى الدستور رسميًّا بإنشاء عاصمة قومية، على أن يُخطط لبنائها على مساحة عشرة أميال مربعة من الأرض. ولكنه لم يحدد موقعًا معينًا لبنائها. وفي إحدى ليالي شهر يونيو/حزيران من عام ١٧٩٠م، وفي مدينة نيويورك، تأبط هاملتون ذراع جيفرسون وتوجها معًا إلى منزل الرئيس في برودواي، حيث لازماه متذللين. وقد أكد على أن بقاء الاتحاد نفسه واستمراره هي أقل قضية مرتبطة بأزمة الديون. ولم يكن بوسع جيفرسون تجاهل مثل هذا الإغراء بسهولة، فوافق على استضافة حفل عشاء في الليلة التالية، حيث أدى بنفسه دور الحكم بين هاملتون وخصمه الرئيسي في الكونجرس؛ جيمس ماديسون. وفي نموذج مبكر جدًّا لتبادل المصالح السياسية ومنح الأموال لخدمة تلك المصالح في أمريكا، تقرر في ذلك العشاء أن يحصل هاملتون على عدد أصوات في الكونجرس بقدر ما يستطيع كلٌّ من ماديسون وجيفرسون أن يضمناه، وأنه «تخفيفًا لوطأة الأمر» على الولايات الجنوبية، تؤسس العاصمة الجديدة للبلاد على ضفاف

نهر بوتوماك "Potomac"، مُلتقى ميريلاند وفيرجينيا. وكان المفترض أن يحدث هذا بعد عشر سنوات لإنشاء العاصمة، وفي تلك المدة يُمكن تهدئة بنسلفانيا باعتبارها عاصمة البلاد.

وفيما بعد، استنكر جيفرسون الدور الذي أداه بنفسه في عقد تلك الصفقة، حيث زعم أنها أسهمت في تثبيت «نظام هاملتون» الخاص بالهيمنة التجارية وسيطرة النظام المصرفي على الولايات المتحدة، على حساب المصالح الزراعية النزيهة التي كان يُفترض أن تكون دائمًا الأقرب لقلبه. ومع ذلك، فمن المُستبعد أنه لم يكن على دراية بأن فيرجينيا قد صوتت تقريبًا لمصلحة عدم إقرار الدستور من البداية — غير أنها في النهاية اتبعت نموذج جورج واشنطن المُقنع في إقراره — وأن منطقته الخاصة في تلك الولاية (وهي مقاطعة ألبيرمال في ضاحية بييدمونت) ظلت معادية للفيدرالية على نحو مثير للاستياء. ولم يكن إعجاب جيفرسون بباتريك هنري؛ بطل الثورة الفيرجيني والخصم اللدود لإقرار الدستور، يصل ولو لنصف ما كان يدعيه علنًا. وأدرك جيفرسون أن معارضة هنري لهذا النظام المركزي القوي تنبع جزئيًّا من خشيته أن يؤدي هذا النظام إلى حكومة تملك من القوة ما يخوّلها لاتخاذ إجراءات ضد الاسترقاق، وهي قضية كان جيفرسون ينوي تأجيلها في الوقت الراهن. وحتى لو كان حاضرًا في فيلادلفيا وأثناء المناقشات اللاحقة، فمن العسير تخيله يتخذ موقفًا متعنتًا في معارضة الفيدرالية. ولكن مساهمته في اختيار موقع للعاصمة الجديدة شديد القرب من ريتشموند وويليامسبرج ضمنت له وجود مصالح لفيرجينا في العقود الهائلة الجديدة التي ستأتي لاحقًا، وفي الحكومة الفيدرالية التي كانت توزع تلك العقود. وبالإضافة لذلك، فبتقديمه لخبراته الفنية والمعمارية للبنَائين والمصممين العاملين في المدينة الفيدرالية — مثلما فعل مع بيير لانفان Pierre L'Enfant وغيره — راوده الأمل في أن تترك شخصيته بصمتها على مقعد السلطة والحكومة. ولم تكن تلك التسوية من النوع الذي يمكن أن يقاومه جيفرسون البته، صحيح أن اختيار واشنطن موقعًا للعاصمة ربما يكون قد زاد من ثقل وزن الولايات ذات العبيد، إلا أن هذا وحده لا يفسر أسلوبه في تشجيع خطة لانفان الأصلية لإنشاء «شوارع

وطرق رئيسية»، ثم قيامه بفصل لانفان عندما تجاوز غروره حدود السيطرة، وتعيينه لثورنتون Thornton لتصميم مبنى البرلمان الأمريكي، وفي النهاية تكليفه للاتروب Latrobe بإنهاء المهمة. إن سكان ضاحية كولومبيا — مثلي أنا شخصيًّا — لديهم ما يدفعهم للشعور بالامتنان لحس الذوق العالي الذي — بصرف النظر عن جذوره السياسية — تخطى حدود زمنه.

حين اجتمعت مهارات جيفرسون الدبلوماسية الماكرة مع موهبته الطبيعية كعضو لجان ورجل صراعات داخلية، فقد صار واحدًا من أوائل الأمريكيين الذين حاولوا أن يضمنوا وقوف الصحافة في صفهم. وقد كانت تلك المسألة تُعد نسبيًّا أمرًا بسيطًا في ذلك الوقت؛ فإن المطبوعات العامة قد اقتصرت بصورة أساسية على إصدارات ثلاثة متنافسة فقط — وإن كانت كلها في دائرة الطاعة. أما الإصدار الأول فكان «جازيت أُف ذا يونيتد ستايتس» Gazette of the United States لجون فينّو John Fenno، وأما الثاني (وهو بالأحرى الأكثر إرباكًا) فكان «ناشونال جازيت» National Gazette لفيليب فرينو Philip Freneau، وأما الثالث فكان «جنرال أدفرتيزر» General Advertiser التي كان يحررها بنجامين فرانكلين باك Benjamin Franklin Bache، وهو ابن أخي بن الكبير شخصيًّا. وقد كان فينّو إلى حد ما مؤيدًا قويًّا للفيدرالية. وكان باك يحمل قدرًا هائلًا من البغض والشك تجاه جورج واشنطن، كما يبدو أيضًا من بحثه المسمّى «الفجر الأمريكي» American Aurora. أما فرينو، فكما يمكننا أن نقول الآن، كان لقمة سائغة.

يعتمد فن تسريب المعلومات وتأثير النفوذ على القدرة على الإنكار، وقد أراد جيفرسون التأكد من أن الأنباء القادمة من فرنسا الثورية يجري استقبالها وإفشاؤها بترحاب. وهذا من شأنه أن يعينه على أمرين: الأول هو توصيل سياسته الأجنبية المعادية لبريطانيا، والثاني هو الانتقاص من شأن «المولعين بالإنجليز» والمحافظين الداعين للسلطة الهرمية الذين تمركزوا حول نائب الرئيس آدمز. لقد كان جيفرسون، عن طريق عدة وسائل، يدفع أمامه بابًا مفتوحًا. وقد كان الرأي العام الأمريكي يرحب بالثورة الفرنسية بوجه عام، سواء كفكرة في حد ذاتها (واستكمال لأحداث عام ١٧٧٦م)، أو كضمان أن

إحدى القوى الأوروبية العظمى على الأقل ستظل دائمًا في نفس الزاوية التي تحتلها الولايات المتحدة من حيث الضآلة والهشاشة.

إلا أن جون آدمز لم يكن هو المنافس الحقيقي لجيفرسون في هذا الأمر، بل كان جورج واشنطن. ولكن واشنطن، الذي كان محافظًا بالفطرة بقدر ما كان متحررًا، والذي كان يتمتع بقدر من التأييد العام المطلق يساوي على الأقل ما تمتع به الثوار الفرنسيون، كان آخر من يرغب جيفرسون في خوض نزاع معه. وفي نفس الوقت، كانت الأحداث في باريس تميل بالفعل إلى اتجاه ينزع أي نفوذ من أصدقاء أمريكا وحلفائها، وبخاصة ماركيز دو لافاييت، في حين يضع اليعقوبيون (مجتمع أصدقاء الدستور) Jacobins، المتعصبين القساة، في موضع السلطة. ولكن الرئيس واشنطن لم ينظر لهذا التطور في الأحداث نظرة عقلانية متزنة. ومن ثم، فقد ترتب على هذا إعادة المباحثات بين إدموند بيرك وتوماس بين، ولكن تحت إشراف غير مباشر من الأحزاب السياسية الأمريكية المتحاربة هذه المرة، و«بقيادة» غير رسمية من اثنين من أقدم وأبرز أعضاء مجلس وزراء جورج واشنطن، هما: ألكسندر هاملتون، وتوماس جيفرسون.

وبسهولة، ربح هاملتون الجولة الأولى. واختارت جريدة فينّو «جازيت» نشر أول ما كتبه إدموند بيرك في مهاجمة الثورة الفرنسية، الذي كُتب في أوائل عام ١٧٩٠م وتضمن خطابًا شبه هستيري موجه للبرلمان البريطاني عن الفوضى والجنون في باريس. ومن المحتمل جدًّا أن جيفرسون قد أُعجب بما نُشر، لأنه يفضح بيرك باعتباره عضوًا محافظًا متطرفًا. أما في باقي الأوقات، فكان يتأثر بأية أنباء مقلقة من باريس مثل الأعمال الدعائية البريطانية، وبالاستخدام الحذِر لسلطة وزارة الخارجية الأمريكية في تحديد أي الجرائد التي طبعت التشريعات الفيدرالية بإمكانها «التعامل» مع كيفية تلقي الجمهور لما ورد من أنباء عن الأحداث الفرنسية، إلا أن هاملتون كان يقدر قيمة التجارة البريطانية والروابط البريطانية — التي كانت لا تزال قوية جدًّا في الولايات الشمالية — واتخذ بعض الخطوات لضمان تخصيص الدعاية الحكومية، وهي من الامتيازات الخاصة بوزارته؛ وزارة المالية، لمصلحة جريدة جازيت.

وقد تسبب هذا في تغيير فينّو لنبرته الصحفية في أواخر عام ١٧٩٠م (كما يذكرنا مرة أخرى بأن آباءنا المؤسسين المثقفين ذوي الشعور المستعارة لم تكن لديهم حصانة ضد السياسات السوقية المبتذلة).

ويحتدم الخلاف بين المؤرخين حول مدى إدراك جورج واشنطن، أو مدى اهتمامه، بالخصومات الدائرة بين تابعيه. (ومن الخطأ عمومًا أن نفترض أنه كان فوق مستوى المعركة، أو على غير دراية بها.) وعلى أية حال، فعقب وفاة بينجامين فرانكلين في أبريل/نيسان عام ١٧٩٠م، أوكل الرئيس لهاملتون — دون جيفرسون — مهمة التعامل مع العبارات البلاغية وتعبيرات الإجلال والتقدير التي تدفقت بين المجلس الوطني في باريس والكونجرس الأمريكي. ولكن المعنى الخفي وراء تدفق عبارات الإجلال والتقدير كان يُعد أيضًا مقياسًا لقوة التضامن بين فرنسا وأمريكا، وقد بدا واضحًا أن واشنطن لم يرغب في الإدلاء بأية تصريحات تنطوي على أي قدر من المجازفة حتى يستطيع أن يحدد بدقة من سيتعامل معهم في فرنسا. وربما يكون جيفرسون قد أحنى رأسه للعاصفة في هذه المرحلة، وربما يكون قد أعجب إلى حد ما بفكرة أن ينعي أمريكي محافظ مثل هاملتون الأمريكيَ المُفضل لفرنسا، إلا أنه لم يتخل عن دوره في حرب النواب الدائرة بين أنصار بيرك وأنصار بين.

وفي بضعة أشهر، صارت «حرب المنشورات» الجديدة تلك حربًا مفتوحة أكثر فأكثر. فنُشر «حقوق الإنسان» Rights of Man لتوماس بين لأول مرة في لندن في فبراير عام ١٧٩١م، وكان بمنزلة ردٍّ تهكميٍّ مفصلٍ على منشور «خواطر» Reflections لإدموند بيرك. وقد حملت صفحته الرئيسية إهداءً لجورج واشنطن. وكان في هذا إهمال جسيم، بل تجاوز للحدود؛ فإن بِين لم يسع للحصول على الإذن بإهداء كتابه على هذا النحو. (وقد نما لديه لاحقًا شعور قوي بالكراهية الشخصية لواشنطن، وصار مقتنعًا بأن الرئيس لم يبالِ إطلاقًا بتعرضه للحبس على يد روبسبيير Robespierre.) وقد تسبب جيفرسون عن غير قصد في تفاقم غلطة بِين. فقد تلقّى نسخة أولية مُستعارة من كتاب بين، وكتب لأحد أصدقائه الإنجليز يقول: «لدينا هنا بعض الأسماء المرموقة التي ارتدت عن الإيمان الحقيقي، ولكنهم في الواقع

قلة، أما كيان مواطنينا فهو نقي ويسمو فوق مستوى الشبهات في ظل ذلك النظام الجمهوري. وسوف يكون رد السيد بين على بيرك بمنزلة دفقة من الماء المنعش لعقولهم.» وقد تمادى جيفرسون بعض الشيء، فأرسل نسخته من كتاب بين إلى مطبعة بفيلادلفيا، مُلحقًا بها رسالة توضيحية، كتب فيها أنه، بصفته وزيرًا للخارجية، «أسعده بشدة أن يعرف أنها ستُعاد طباعتها هنا، وأن هناك، أخيرًا، ما سيُذاع علنًا ضد الهرطقة السياسية التي تفشت بيننا. وأنه لا شك لديه في أن مواطنينا سيحتشدون مرةً ثانيةً حول معايير المنطق السليم.»

الرِّدة، الهرطقة ... من المثير للاهتمام أن نجد جيفرسون يستخدم لغة الإيمان عندما يتحدث عن الثورة. وسوف يندم على ذلك، إذا جاز التعبير، لأن الطبعات التالية من «حقوق الإنسان» لبين سوف تُلحق بها تلك الملحوظة، التي أرسلها للناشر والتي تحمل توقيعه، كافتتاحية للكتاب. وأول ما حدث وقتها أنه تلقى زيارة من النائب العام إدموند راندولف، سأله فيها ما إذا كان وضع توقيعه بالموافقة قد تم بإذن منه أم لا. وقد أنكر جيفرسون فورًا أن يكون الأمر حدث على هذا النحو، وبناءً على ذلك (وبناءً على ذلك فقط)، كتب خطابًا شديد التملق لجورج واشنطن. وقد أنكر، بصدق على الأرجح، أية معرفة مُسبقة بالطريقة التي استُغل بها خطابه. وأنكر أيضًا، على نحو أقل مصداقية بكثير، أية نية على الإطلاق لإهانة جون آدمز علنًا باستخدامه لتعبير «هرطقة». وهذا مع أن آدمز — كما استطرد جيفرسون معتدًّا بصحة رأيه في خطابه للرئيس — كان مسئولًا عن كتابة سلسلة من المقالات المعادية للثورة الفرنسية تحت الاسم المُستعار «دافيلا»، وقد اختار واشنطن عدم الرد على دفاع جيفرسون المطوّل عن نفسه، في حين اشتبك معه آدمز بالفعل. حيث تقبل في البداية بسخاء تأكيد جيفرسون المكتوب على أن نشر الملحوظة لم يكن مقصودًا. ولكنه رفض ابتلاع الادعاء اللاحق بأنه لم يكن هو نفسه الهدف المقصود بعبارة «الهرطقة». فقد كان هذا أكثر مما يمكنه تصديقه (وكان يتناقض أيضًا مباشرةً مع خطاب جيفرسون نفسه لواشنطن.) وبسبب هذه المسألة المتعلقة بالشرف، رفض آدمز تبادل أية رسائل مع جيفرسون لسنوات عديدة.

أيًّا كان رأي المرء في تشاؤم بيرك العميق، وولائه العقائدي لفضائل الكنيسة والملك، سواء في بريطانيا أو فرنسا، فالحقيقة أنه عقب صيف عام ١٧٩١م بذل اليعقوبيون أقصى ما في استطاعتهم لإثبات صحة كلامه. وقد أرسل ويليام شوورت — أحد من كانوا تحت حماية جيفرسون والذي خَلَفه في منصبه بباريس — برقيات عاجلة لوزير الخارجية، يحذره فيها من أن أصدقاء أمريكا القدامى، مثل لافاييت، يجري القضاء عليهم بفعل عملية جرائم قتل الأشقاء بعضهم لبعض التي تلت الثورة الفرنسية، ولكن جيفرسون — الذي كان مقتنعًا تمامًا بأن بقاء أمريكا يعتمد إلى حد بعيد على فرنسا — لم يشأ سماع أنباء سيئة، وبذل أقصى ما في وسعه ليضمن ألا تُنشر سوى الأنباء السارة القادمة من تلك الجهة فقط في جريدة فرينو «ناشونال جازيت». ففي ذلك الوقت، صار على دراية تامة بأن خصمه ألكسندر هاملتون كان أيضًا منخرطًا في المفاوضات الأجنبية باعتبارها أحد جوانب السياسة المحلية. وقد حدثت مواجهة بين بريطانيا وإسبانيا على الحدود الكندية أسفرت عن استيلاء إسبانيا على أربع سفن بريطانية في منطقة خليج نوتكا Nootka Sound. ورأى جيفرسون أن النزاع بين لندن ومدريد من شأنه أن يمنح أمريكا الفرصة للحصول على امتيازات من كلا الجانبين، ويقربها أكثر من المسيسبي ذي الأهمية القصوى. ولكن قيام حرب فعلية قد يكون خطيرًا. لقد كانت الحكمة تقضي باللعب على الجانبين أحدهما ضد الآخر. ولكن تلك الحالة الحيادية القائمة أضعفها الاجتماع السري الذي عقده هاملتون مع المبعوث البريطاني، الرائد جورج بيكويث George Beckwith — الذي كان ينظر إلى أفعال بين بذعر واضح — وفي الاجتماع، اطمئن بيكويث إلى أن بريطانيا ستكون لها الحظوة، وأنه سيجري السيطرة على جيفرسون، في حالة نشوء أي صراع مفاجئ. وقد شعر البريطانيون، الذين ازدادت بالفعل حصتهم من التجارة الأمريكية منذ أن تخلصوا من السيطرة الإمبراطورية المباشرة، بامتنان شديد عندما عرفوا أن هناك فعلًا «حزبًا مواليًا لإنجلترا» داخل الحكومة الأمريكية. وبناءً عليه، تمكن المفوض البريطاني في فيلادلفيا؛ جورج هاموند، من طمأنة رؤسائه في لندن إلى أن جيفرسون لم يكن يمثل

وجهة النظر الأمريكية المتحدة عندما شكا من السطو البريطاني على التجارة الأمريكية.

في مايو/أيار عام ١٧٩١م، انطلق توماس جيفرسون وجيمس ماديسون في رحلة استكشافية أثارت الكثير من الأقاويل في تلك المدة، وأفسحت مجال التأمل والتفكير أمام المؤرخين منذ ذلك الحين، وهو ثاني أفضل شيء تسببت فيه. فبحجة القيام «برحلة استكشافية لدراسة النباتات»، تركا ملاذيهما المعتاد في فيرجينيا وذهبا لجمع العينات إلى أعلى وادي هادسون، وعبر غرب نيو إنجلاند متجهيين إلى أسفل النهر. ومع أن تحمسهما لدراسة الحياة النباتية والحيوانية كان أكيدًا، فقد تحايلا لربط لقاءاتهما مع الطبيعة بالاجتماعات السرية التي تنعقد في بيوت المُعادين المحليين لهاملتون. وقد تناولا طعام الإفطار مع فيليب فرينو في نيويورك سيتي، واستغلا الفرصة لتشجيع توجهه الصحفي المعادي للفيدرالية. ويبدو أيضًا أنهما أظهرا اهتمامًا بآرون بور Aaron Burr، الذي تسببت حملته الشعبية في إقالة «الأرستقراطي» الهولندي فيليب شويلر Philip Schuyler — وهو والد زوجة هاملتون — من منصبه كعضو مجلس شيوخ عن نيويورك. ولم ينجح جيفرسون وماديسون في لقاء الحاكم جورج كلينتون — أو ربما لم يهتما بذلك — الذي كان نجمه يبزغ في ذلك الوقت كنموذج مبكر للقائد السياسي للمدينة الكبيرة. ولكنهما كانا ينقبان عن تحالف، أو بالأحرى كانا يتدربان عليه، بين المُعادين للفيدرالية في الشمال وفي الجنوب، ضد الحزب الموالي لإنجلترا المكروه. وقد عاد جيفرسون وماديسون إلى فيرجينيا شاعرين بالرضا، حيث أصبح ماديسون يتحدث نيابةً عن جيفرسون كلما شعر الأخير بحاجته للبقاء على الخطوط الجانبية المتوترة.

وقد بدا النجاح الساحق الذي حققه ذلك «الحزب الإنجليزي» واضحًا في تلك الأثناء عن طريق تأييد هاملتون المتزايد النجاح لتأسيس بنك وطني، يعمل على تنظيم الديون والتجارة والأوراق المالية، ويكون قائمًا على فكرة وجود تجارة مستقرة مع لندن، ومعارضة التزايد المفرط للثورات في فرنسا. وعندما سأل واشنطن جيفرسون عن رأيه، أصر على أن الدستور لم يجِز

مثل هذا الأمر. فقد كان يخشى نمو مركز قوة غير مسئول، مركز له طابع مولع بالإنجليز إلى حد ما. وقد صد هاملتون الهجوم — على نحو مقنع في النهاية — بأنه فيما يتعلق بهذه النقطة، فإن تفسير الدستور مُتاح للتأويل الإبداعي أكثر من الترجمة الصارمة للمعاني أو «المقصد الأصلي»، وأن البند الذي يمنح الكونجرس كافة السلطات «الضرورية واللازمة» يتوافق مع تلك الحالة. ولكن جيفرسون، الذي كان موقفه تجاه تمويل العجز متأثرًا بشدة بديونه الشخصية التي تُعجزه كمزارع من فيرجينيا، لم يسعه أبدًا التخلي عن فكرة وجود شيء غير أخلاقي، ومُنذر بالشر وغير مستقر أيضًا، في فكرة النقود الورقية والاقتراض.

فبدأ في استخدام واحد ممن كانوا تحت حماية ماديسون، ويدعى ويليام برانش جيلز، وهو عضو كونجرس من فيرجينيا ذو أسلوب برلماني حاد لاذع، كمخلب قط. فاقترح جيلز عددًا من القرارات التي تُلزم هاملتون بإصدار كميات هائلة من البيانات الخاصة بوزارة المالية في أقصر مدة ممكنة. ومع الاعتقاد القوي الذي سرى بين أهالي فيرجينيا بأن السرعة التي نقل بها هاملتون الأموال والحسابات من المؤكد أنها تُخفي وراءها أمرًا مُشينًا، فإن وزير المالية تفوق على منتقديه بتقديم بيانات حقيقية تتوافق مع المواعيد النهائية شبه المستحيلة. وقد أجرى جيفرسون — شاعرًا بالإحباط — اقتراعًا عامًّا بسحب الثقة من هاملتون، بسبب «سوء إدارته»، واستغل جيلز في تقديمه للمجلس. ومع رفض الاقتراح، تفوقت أفكار هاملتون التجارية العصرية بسهولة شديدة على مفهوم جيفرسون القروي عن النزاهة المالية. ووافق واشنطن، ومن بعده الكونجرس، على تأسيس البنك، بل على تسليم قيادته بوجه عام لهاملتون أيضًا.

وبجانب القائمة السابقة من الإخفاقات التي مُنِيَ بها جيفرسون، فمن الممكن إضافة قرار تعيين الحاكم موريس في منصب المبعوث الأمريكي لفرنسا إليها. فقد كان جيفرسون ينظر إلى ذلك الرجل ذي الشخصية الفظة والساق الخشبية باعتباره «رجل البلاط الملكي الفذ»، بالإضافة لكونه علامة أخرى على تحفظ جورج واشنطن فيما يتعلق بالقضية الفرنسية. ولكن جيفرسون

قرر أن يضع كل إيمانه في ذلك الإلهام السياسي والأخلاقي المنبعث من الثورة الباريسية، الذي كان يأمل في أن ينتشر في أرجاء العالم محبطًا الخطط المُحكمة لكافة المُحافظين، سواء الأجانب منهم أو أبناء الوطن. وقد أدت به قناعته هذه إلى اقتراف بعض الأخطاء الناتجة عن حماسته المبالغ فيها، التي سيندم عليها فيما بعد.

وكما أخبرته صديقته الفرنسية القديمة كونتس دو أوديتو Comtesse de Houdetot بجدية شديدة، فإن «الفارق البارز بين ثورتكم وثورتنا هو أنه لأنكم لا تملكون ما يمكن تدميره، فإنكم لا تملكون ما يُمكن الإضرار به، ولأن هدفكم هو شعب ذو تعداد قليل وأفراد غير فاسدين، يمتد وطنهم على رقعة هائلة من الأرض، فقد تجنبتم كافة معوقات موقف آخر يتعارض مع موقفكم من كافة الجوانب.» وفي أغلب الأوقات، كما يبدو من كتابات جيفرسون الأخرى، كان سيثني على اعتبار الثورة الأمريكية «أمرًا يحدث لأول مرة»، وبداية جديدة في عالم جديد، لم يتلوث بعد بآثار الهمجية والوحشية التي خلفها النظام القديم. غير أن فرنسا كانت بمنزلة قوته الاحتياطية ضد أنصار هاملتون وأنصار آدمز، وكانت الثقل الموازن الذي أعده لمعادلة بريطانيا. وقد راهن بكل ثقته تقريبًا على كفة اليعقوبيين من الميزان. وقد تفوقت معركة الجرائد والمنشورات الدائرة بينه وبين هاملتون في حدتها على كل ما طُبِع في السنوات السابقة للثورة الأمريكية. (بل إنها أدت أيضًا، على المدى الطويل، إلى فضح علاقة عابرة خرقاء وجامحة بين هاملتون وامرأة ماكرة تدعى ماريا راينولدز. أما كاتب هذا الخبر الدقيق مع وضاعته، فهو شخص يدعى جيمس تي كالندر، وقد سبق أن أتينا على ذكره.) وأستغل جيفرسون أيضًا عبارة — صارت فيما بعد شهيرة في سياق آخر — عندما تحدث عن «الأحقاد الحزبية» باعتبار أنها «أقامت حاجزًا فاصلًا». وكتب باحتقار عن هاملتون، الرجل الذي كان مُعدمًا يومًا ما وهاجر من جزر الهند الغربية وأُشيع عنه أن دماءه «مُختلطة»، موجهًا خطابه إلى واشنطن، حيث قال عنه إن «تاريخه، بدءًا من اللحظة التي توقف فيها التاريخ عن ملاحظته، ما هو إلا مجموعة من الدسائس والمكائد ضد حرية الدولة التي لم

تستقبله وتُطعمه فحسب، بل أغرقته بكثير من الحفاوة والتكريم.» وبالطبع، فإن هذا الأسلوب المُتعالي قد أدى بدوره إلى ازدياد الشعور بالسخط ضد أي «مجلس سياسي فيرجيني» يرأسه جيفرسون.

ولكن في أوائل عام ١٧٩٣م تبين لجيفرسون أنه، في النهاية، قد راهن على الحصان الرابح. واستطاعت الحشود الثورية في فرنسا بسهولة صد غزو ملوك أوروبا المتحالفة المذعورة، وبلهجة عنيفة، تعهدوا بتصدير الثورة للعالم على سنون حِراب النظام الجمهوري. وجاء رد فعل الرأي العام الأمريكي مؤيدًا لفرنسا بحماسة وصلت لدرجة النشوة العارمة. واعتُبر إعدام الملك لويس في فبراير/شباط لا يتعدى كونه نوعًا من العدالة الطبيعية؛ ذلك النوع الذي جرى تطبيقه على تشارلز الأول، ملك إنجلترا. المهم أن الولايات المتحدة لم تكن وحدها؛ لقد كان لديها حليف قويّ عظيم الشأن. ولكن تلك الصورة المشرقة كانت بحاجة لضبط توزيعات الضوء والظلال فيها. فكلما خطت قضية الثورة في باريس خطوة للأمام، تزايد ما يفقده أصدقاء أمريكا القُدامى في المدينة من هيبتهم أو حرياتهم أو حتى رءوسهم. وقد كان أسلوب الحاكم موريس تهكميًّا باردًا فيما يتعلق بهذه النقطة، الأمر الذي بدا واضحًا في تقاريره المعادية للثورة عمومًا والموجهة لوزارة الخارجية. ومن بين الأمريكيين المحافظين، كان هناك من يظنون أنه أيًّا كانت المقارنة بين جيفرسون والملك تشارلز الأول، فإن جيفرسون كان يعد نفسه سرًّا (كما عَبّر جون آدمز عن الموقف) لأداء دور النظير المستقبلي الأمريكي لكرومويل Cromwell.

وقد أصاب ويليام شورت، نائب السفير الأمريكي في باريس، رئيسه المُباشر بحالة من القلق والأسى عندما كتب بلهجة تشاؤمية يصف له مجرى الأحداث هناك. ولكن جيفرسون وجه لشورت ردًّا ذكيًّا لاذعًا يبعث من جديد حالة الحماسة المسمومة التي سادت ذلك الوقت:

> «لقد خاض اليعقوبيون … تجربة الإبقاء على رئيسهم المتوارث. ولكن التجربة فشلت فشلًا ذريعًا، ولو أنها استُؤنِفت، لكادت أن تتسبب في عودة الاستبداد. وقد أدرك اليعقوبيون ذلك، وأدركوا

أيضًا أن التخلص من ذلك الزعيم كان يعد ضرورة قصوى، وقد وافقهم الشعب الرأي، فمهما كان موقف الشعب سابقًا من تأييد الدستور الذي صاغه المجلس الأول، فقد تحول ذلك الموقف الآن عن إرساء الأمل فيه، وصار الشعب كله الآن يعقوبيين. وفي أثناء ذلك النضال الذي كان لا بد منه، سقط الكثير من المذنبين دونما محاكمة، وسقط معهم بعض الأبرياء. وإنني لأرثي أولئك الأبرياء كما قد يفعل أي شخص غيري، ولسوف أرثي بعضهم حتى آخر يوم في حياتي. ولكنني أرثيهم — كما كنت سأفعل — لو أنهم سقطوا على أرض المعركة. لقد كان استخدام قوة الشعب كسلاح أمرًا ضروريًّا، فهو ليس سلاحًا أعمى تمامًا كالقذائف والقنابل، ولكنه أعمى إلى حد معين. فهناك قلة من أصدقائهم الحميمين لاقوا على أيديهم ذات المصير الذي لاقاه أعداؤهم. ولكن الوقت والحق سينقذان ما تبقى من ذكرى أولئك الأصدقاء، ولسوف يبقيانها في مأمن، في الوقت الذي ستتمتع فيه الأجيال التالية لهم بتلك الحرية التي لم يكونوا ليترددوا لحظة واحدة في التضحية بأرواحهم في سبيلها. إن حرية الأرض ومن عليها كانت تتوقف على نتيجة ذلك الصراع، وهل يُعقل الفوز بمثل هذه الجائزة الثمينة مقابل حفنة قليلة كهذه من دماء الأبرياء؟ لقد نزف قلبي دمًا على بعض شهداء هذه القضية، ولكنني أُفضل رؤية نصف هذا العالم يتحول لبرية مقفرة، عن رؤية فشل هذه القضية. فلو لم يتبق سوى آدم وحواء على أرض كل دولة، ولكنهم كانوا أحرارًا، لكان الوضع أفضل مما هو عليه الآن.»

وبالنظر من منظور تاريخي، فإن هذه القسوة المُربكة يمكن إلى حد ما تأويلها على غرار التصريحات التي أدلى بها جماعة الرحّالة الحالمون الذين شعروا أن الصورة النهائية للتاريخ رسمتها الثورات في روسيا والصين وكوبا. الواقع أنه في الإشارة إلى آدم وحواء — وهي استعارة دينية أخرى إذا ما

طُبقت على الثورة — استطاع بعض المتطرفين في معاداة جيفرسون تبين تصوّر مُسبق لفكرة «السنة صفر» في كمبوديا. الأهم من ذلك، كان أسلوب جيفرسون في ترجمة معنى الأحداث الجارية في فرنسا تلقائيًّا إلى دلالتها للأحداث الأمريكية. وكما استطرد مدعيًا في خطابه لشورت، فإن شخصًا في مكانة جورج واشنطن تبنى نفس وجهة النظر:

> «لقد أرادني، بناءً على ذلك، أن أكتب إليك بصدد هذا الموضوع. وأضاف أنه يعتبر (فرنسا بمنزلة مرساة الأمان لهذه الدولة، وصداقتها من الأهداف الأساسية.) [القوسان أصليان.] ولكن هناك بعض الشخصيات في الولايات المتحدة تعتنق المبادئ المضادة؛ بعضهم ذوو مناصب عالية، والبعض الآخر يملكون ثروات طائلة، ولكنهم جميعًا معادون لفرنسا، ويتطلعون بشغف إلى إنجلترا باعتبارها عماد آمالهم. وقد أخبرتك بأسماء أولئك الأشخاص في مناسبة سابقة. ومن المؤكد أن تلك الآمال قد خابت. وباستثنائهم، فإن هذه الدولة جمهورية قلبًا وقالبًا، وشعبها صديق للدستور، حريص على الحفاظ عليه وعلى تطبيقه وفقًا لمبادئه الجمهورية. أما تلك القلة التي ذكرتها آنفًا، فإنهم يؤيدون الدستور فقط باعتباره مَعْبَرًا إلى النظام المَلَكي، ولذا، فقد سعوا عند تطبيقه إلى تقريبه لذلك النظام، تيسيرًا لتحوله النهائي. ولكن نجاح النظام الجمهوري في فرنسا أصاب آمالهم بالضربة القاضية، وأتمنى أن يكون قد أصاب خططهم كذلك.»

وقد بالغت تلك النصيحة التحذيرية الموجهة لشورت في وصف مبايعة جورج واشنطن لفرنسا، إلا أنها لم تبالغ — أو أنها لم تبالغ كثيرًا — في وصف الشعور الأمريكي العام بأن اليعقوبيين كانوا يصوغون التاريخ الأوروبي — بل الجغرافيا الأوروبية أيضًا — بأسلوب قريب لما يتمناه القلب. وربما يكون هذا التوقع المثير قد منح جيفرسون ذلك الفتور الشخصي والموضوعي بشأن مصير أولئك «الأصدقاء» الذين انتهت الحاجة إليهم (مثل توماس بين، الذي

تورط في مشكلة كبيرة في فرنسا لمعارضته علنًا الحكم بإعدام الملك لويس، وهو حدث عَبّر عنه جيفرسون كتابةً أعلاه بعبارة «القضاء على ذلك القائد»). ففي النهاية، ألم يرتجف كلٌّ من جون آدمز وألكسندر هاملتون هلعًا من عدد الولائم والاحتفالات والألعاب النارية التي انطلقت عَبر أرجاء الولايات المتحدة في الوقت الذي انعقد فيه رباط الحرية والإخاء والمساواة؟

ولكن اللحظة التي تحققت فيها سعادة جيفرسون لم تدم طويلًا. وذلك لسبب واحد، فبمجرد أن قطع الثوار الفرنسيون رأس ملك فرنسا، أعلنوا الحرب على ملك إنجلترا. وبالإضافة للمسألة المُقلقة الخاصة بالرد الأمريكي المُلائم على اندلاع الحرب، كان هناك تحرج من المبعوث الفرنسي الجديد، الذي جاء فارًّا من النظام الجديد في باريس ومقتنعًا بسذاجة أن أمريكا هي المكان الذي لن يكف أبدًا عن الترحيب به. أما هذا المبعوث فكان إدموند تشارلز جينيت Edmund Charles Genet، الرجل الذي كان اقتحامه لمسرح الأحداث انصهارًا رائعًا للتراجيدية مع الهزلية، وكلا العاملين كان على حساب جيفرسون في النهاية.

وإليك ما انتهت إليه الأحداث، أو ما وصلت إليه حتى عام ١٧٩٣م: كانت الولايات المتحدة قد وقعت معاهدة تحالف مع فرنسا يعود تاريخ توقيعها إلى عام ١٧٧٨م توثيقًا للأخوة الفرنسية الأمريكية أثناء الحرب الثورية. وكانت قد أبرمت أيضًا اتفاقية تجارية مع فرنسا، تعود إلى عام ١٧٨٦م، وتقضي بأنه في حالة الحرب، تلقى السفن الحربية الفرنسية معاملة خاصة في الموانئ الأمريكية، إلا أن الولايات المتحدة كانت أيضًا في مفاوضات مستمرة مع بريطانيا حول تنظيم العلاقات التجارية والعسكرية بينهما، وحول التوصل لحل نهائي بخصوص ما تمارسه بريطانيا من اعتقال وخطف البحارة من على متن السفن الأمريكية. وقد زعم هاملتون وغيره من أصدقاء أمريكا أن المعاهدات المُبرمة مع فرنسا صارت تعتبر باطلة؛ فإنها أُبرمت مع النظام المَلَكي السابق. واستطاع واشنطن التوصل لحل وسط في هذه المسألة عن طريق «تصريح رسمي» يعلن أن الولايات المتحدة «غير متحيزة» (وليس «محايدة» كما كان هاملتون يتمنى). أما جيفرسون، فقد أراد تحقيق

أمرين في وقت واحد: أن تستفيد أمريكا من أية حرب إنجليزية-فرنسية، ولو حتى بمد الطرفين بـ«الضرورات»، وأن تُهزم إنجلترا بانتشار «النظام الجمهوري» الفرنسي على نطاق العالم. (وفي نفس هذا الوقت تقريبًا، بدأ الأشخاص الذين أعلنوا أنفسهم كـ«جمهوريين» في أمريكا في تكوين جمعيات ومنتديات «ديمقراطية»، يرأسها جيفرسون على نحو غير مُعترف به.) وبناءً عليه، فقد صارت مسئولياته كوزير للخارجية تتصارع صراعًا صريحًا مع آماله السياسية المحلية. وربما أمكنه التعامل مع هذا التناقض ببعض الثقة ورباطة الجأش لولا وجود المواطن جينيت Citizen Genet.

وقد وصلت تلك الشخصية كثيرة الكلام، ذات الحضور الطاغي إلى تشارلستون في مايو/أيار عام ١٧٩٣م، عقب إدلاء واشنطن بتصريحه الحكيم مباشرةً. ولبّى جينيت سلسلة من الدعاوى لحضور حفلات الاستقبال الرسمية والمآدب والاستعراضات — ليس عن أدنى تأثر بإعلان التسوية بل من قبيل أداء الواجب فقط — التي ازدانت بما اقترحه بنفسه من أنخاب وما ألقاه من كلمات مزخرفة، وذلك عَبر طول البلاد وحتى فيلادلفيا. وقد سرى ظنٌّ بأن جيفرسون على أقل تقدير لم يسع إطلاقًا لوقف تلك التظاهرات المُناصرة لفرنسا. ولكن من المؤكد أنه بدأ يندم على ذلك بمجرد أن قدم جينيت أوراق اعتماده للرئيس واشنطن، الذي تعمد إعادة تعليق الصور الخاصة بالملك لويس وماري أنطوانيت على حائط منزله بفيلادلفيا.

كانت الشهور القليلة التالية كابوسًا لجيفرسون؛ فقد أراد أن يشارك في الاحتفاء الجماهيري بوصول جينيت، إلا أن حسه الخاص بالتحفظ الشخصي، ومهارته الحادة في مجال الدبلوماسية، دأبا على دفعه لتجنب حماقات جينيت البالغة. وقد بدا واضحًا أن السفير الفرنسي الجديد كان ينظر إلى «عدم انحياز» الأمريكيين باعتباره وهمًا مهذبًا، ولذا فقد كان على استعداد للتآمر مع أي جانب في سبيل إتاحة الموانئ الأمريكية في الحال للسفن الحربية الفرنسية، والسفن التي استولت عليها، والسفن المسلحة الفرنسية الخاصة، ولم يتورع عن مناشدة الناخبين رغم أنف الحكومة، ولم تقتصر عدم لباقته الظاهرة على مسرح الأحداث في الأطلنطي. ولمّا جددت إسبانيا التحالف مع بريطانيا، تمنى

جينيت لو استطاع إرهاق الجانب الإسباني من حدود لويزيانا، باستغلال مغامري كنتاكي المتعطشين لامتلاك الأرض نوابًا عنه. وهنا، سمح جيفرسون لنفسه بالوقوع في خطأ فادح. فعملًا بنصيحة مسبقة من جينيت، الذي ائتمنه على سره على نحو مثير للحرج «ليس باعتباره وزيرًا للخارجية وإنما باعتباره السيد جيفرسون فقط»، أعلن أنه لا يستطيع الموافقة على استغلال مواطني كنتاكي ضد الأراضي الإسبانية، ولكن — بوضع هذا الاعتبار جانبًا — فإنه «غير مهتم بما سيثور في لويزيانا من تمرد.» وهنا، نجد أن جيفرسون دون شك ترك حماسته للتوسع غربًا ونفاد صبره من تباطؤ المفاوضات مع إسبانيا على الملاحة في المسيسبي يسيطران عليه. ووقع جيفرسون في مأزق عندما اكتشفت السلطات الإسبانية قيام بعض أصدقائه بمراقبة حدودها، وصار مجبرًا على إصدار أوامره بمنع مثل هذه الأنشطة تمامًا، وبلهجة حادة صارمة لم يكن يستشعرها في الواقع.

أخيرًا، ومع بداية يوليو/تموز عام ١٧٩٣م، وفي نفس توقيت احتفالات عيد الاستقلال الأمريكي بالضبط، تمادى جينيت إلى حد بعيد؛ فقد أصر على أن يجري إصلاح سفينة بريطانية استولى عليها الفرنسيون، وأن تنطلق من جديد سفينة مسلحة خاصة، ولم ينتظر الرد على مطلبه. أما حزب هاملتون، فقد كان يرغب في أن تُطلق النار على السفينة — التي تغير اسمها إلى «الديمقراطية الصغيرة» “La petite Démocrate” على نحو مستفز — حتى قبل أن تنطلق للإبحار تحت علمها الجديد، وقد كان الرئيس واشنطن على نفس القدر من الغضب؛ بل اتضح غضبه أكثر عندما علم أن السفينة المسلحة تركت مرساها قبل أن يُتخذ أي قرار حاسم بشأنها. ولكن الثأر وقع على المبعوث الفرنسي، الذي صار جيفرسون فجأة يرى تعيينه بمنزلة «كارثة». وقد وافق على كتابة خطاب مطوّل لباريس مُطالبًا باستدعاء جينيت. وقد كانت الاستجابة لهذا التحرك الدبلوماسي دليلًا أقوى على مسار تقدم الأحداث في باريس. فجينيت، مع كل مواقفه الثورية، كان عضوًا في حزب جيروندين وكان من المغضوب عليهم مع سيطرة حزب اليعقوبيين. ومن ثم، فإن المسئولين سيسعدهم بشدة استدعاؤه، بل وضع عنقه تحت المقصلة

أيضًا. وفي النهاية، اختار جينيت البقاء في أمريكا، حيث تزوج ابنة حاكم نيويورك جورج كلينتون، واتجه إلى العمل الزراعي المُسالم، ليظل — من هذه الجهة على الأقل — تابعًا لجيفرسون.

وكل ما ابتُليت به هيبة الثورة الفرنسية من خزي على المستوى العام من جرّاء الأحداث السابقة أصاب جيفرسون شخصيًّا بالخزي على المستوى الشخصي أيضًا. فقد كان لديه كل ما يلزم لتحجيم الخسائر. وفي مواجهة صيحات الاحتجاج الشعبية الهائلة على سرقات جينيت، أقر مجلس الوزراء نشر الأوراق المتعلقة بالقضية. أما جيفرسون، الذي كانت مهمته كوزير للخارجية هي التكفل بهذا الأمر، فقد نجح في إقحام بعض المواد — المساوية في ضررها — والخاصة بالتهديدات البحرية البريطانية للتجارة الأمريكية. ومن ثم، فقد أفلت — وإن كان بشق الأنفس في الواقع — من غضب الحزب الفرنسي العارم، بل نجح في الظهور في صورة الرجل الذي استطاع إخضاع ميوله الشخصية لمتطلبات وطنه. وختامًا لمدة عمله وزيرًا للخارجية، سلّم الكونجرس «تقريرًا»، مطوّلًا رائعًا، «عن التجارة الأمريكية»، وفي تلك الوثيقة، اقترح فكرة التزام أمريكا بالتجارة العالمية الحرة، دون التقيد بأية دولة، واستعدادها لاستخدام وسائل الإجبار الاقتصادية بدلًا من العسكرية. ومع اقتباسه إلى حد ما من كتاب ثروة الأمم لآدم سميث، فإن التقرير كان هدفه أيضًا أن يكون بديلًا لمذهب ألكسندر هاملتون التجاري (المركنتيلي) المؤيد لبريطانيا.

ثم أعلن جيفرسون أنه سيعود إلى مونتيتشيللو، متنحيًّا عن العمل السياسي إلى الأبد. وقد بدا الأمر مقنعًا من الظاهر فقط؛ فقد بلغ جيفرسون حد النصف قرن من عمره، وبدأ شعره الأصهب يعلوه الشيب. وقد كتب لصديقه وزميله في التآمر؛ جيمس ماديسون، الذي رجاه أن يعيد التفكير في الأمر، يصف له الموقف الذي كان يرغب في الفرار منه:

> «لقد أنهكتني الأعمال من الصباح إلى المساء، يومًا بعد يوم؛ التي أعلم أنها غير مثمرة للآخرين بقدر ما هي مزعجة لي. والتزمت وحدي،

في منافسة أبدية ميئوس منها، ضد حشد من الناس يعملون بدأب على تحجيم حرية ورخاء المجتمع، وحتى ساعات الاسترخاء التي نادرًا ما أحظى بها، أضحي بها من أجل جماعة من الأشخاص لهم نفس النوايا، وأنا مدرك تمامًا مدى كراهيتهم لي حتى في لحظات المودة التي يتمنى القلب فيها أن يسمح بتدفق فيض من مشاعر الصداقة والثقة. وانعزلت عن أسرتي وأصدقائي، حتى تركت شئوني كلها في حالة من الفوضى والجنون. باختصار، لقد تنازلت عن كل ما أحب مقابل كل ما أكره.»

وربما نجح ذلك الموقف المتعنت، الذي يتجاوز بمراحل ما صار يُعرف الآن في السياسة الأمريكية بـ«إعلان شيرمان»، في إقناع جورج واشنطن، الذي حث جيفرسون على عدم التسرع في تقديم استقالته مبكرًا، وأجّل استقالته هو شخصيًّا كجزء من الصفقة التي ساعدته على الاستمرار، إلا أنه لم ينجح على الإطلاق في التأثير في رجال مثل جون آدمز، أصابهم السأم الشديد بالفعل من جيفرسون وما يتخذه من مواقف حساسة لجذب الأنظار. ومن المحتمل أن جيفرسون كان يَعني ما يقوله هذه المرة؛ فإن مدة عمله وزيرًا للخارجية كانت مؤلمة ومحبطة، وشهوره الأخيرة في المنصب طغى عليها ذلك التفشي المروّع للحمى الصفراء في فيلادلفيا، التي لوثت كل ما هو موجود على المستوى المحلي وأصابت الحكومة تقريبًا بحالة من الشلل. ومن المؤكد أن مقاطعة جبال ألبرمال ذات الأجواء المعتدلة البرودة صارت منطقة جذب أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، فمن المؤكد أنه أيضًا كان يدرك تمامًا أنه ترك أمريكا في مأزق حرج، فيما بين الفيدراليين والجمهوريين، وفيما بين إنجلترا وفرنسا، وفيما بين الورثة المزعومين لجورج واشنطن المُسِن.

والأهم من كل ذلك، أن سحر الثورة الفرنسية ربما يكون قد فقد تأثيره عليه. وهذا لسبب ينطوي على تناقض. فصحيح أن أمله في انتشار المُثُل والمبادئ الثورية الفرنسية انتشارًا سريعًا قد تحقق، إلا أنه تحقق بأسلوب لم يرحب به جيفرسون. وبمجرد ظهور «حقوق الإنسان» تقريبًا، بمساعدته

الشخصية، في باريس عام ١٧٨٩م، انطلقت تلك المُثُل عَبر المحيط إلى جزيرة هسبانيولا "Hispaniola"، وذلك الجزء منها الذي كان يُطلق عليه سانت دومينيج "Saint-Dominigue" آنذاك، صار اليوم يُسمى هاييتي "Haiti". وكانت هذه المستعمرة الفرنسية تُدار بواسطة طبقة من المستعمرين البيض وكانت تنتج محصولًا من السكر يُدر أرباحًا هائلة، يعمل على إنتاجه حشدٌ من العبيد الأفارقة المستوردين. وكانت هناك طبقة أصغر من الأشخاص الملونين "gens de couleur"، أو ذوي الأصول المختلطة، تؤدي دورًا وسطًا. لقد كانت ثورتهم ضد سلطة البيض هي، في الأصل، التي عجلت قيام ثورة العبيد على نطاق أوسع في عام ١٧٩١م. ومع أن جيفرسون لم يتخذ في البداية موقفًا قويًّا من هذا التطور — بل أشار، بصورة تقليدية، إلى الصفوة العِرقية في هاييتي (كما سأطلق عليها) بتعبير «الأرستقراطيين» أو «الحكام المطلقين» — فإنه بدأ يقلق عندما أدرك احتمال قيام العبيد السود بثورة كاملة المعالم على مقربة شديدة من الجنوب الأمريكي. وبصفته وزيرًا للخارجية، فإنه لم يعتبرها الثورة الثانية للحرية في نصف الكرة الأرضية، وإنما اعتبرها تطورًا مرعبًا تسبب في دفع المستعمرين الفرنسيين إلى البحث عن ملجأ لهم في أماكن مثل تشارلستون بجنوب كارولينا. ولكن لم يفته على الإطلاق إدراك قوة المقارنة، فكتب لجيمس مونرو في يوليو/تموز عام ١٧٩٣م:

> «إن حالة اللاجئين في سانت دومينيج (باعتبارهم أرستقراطيين) تصرخ مُطالبةً بالرحمة والإحسان. (فلم يسبق أن تعرضت المشاعر الإنسانية لمأساة بهذا العمق.) إنني أرفض أن تكون للحكومة العامة سلطة إنفاق الأموال في مثل هذا الغرض، ولكنني أرفضها وقلبي ينزف حزنًا. فهذه السلطة من حق حكومات الولايات. أرجوكم أن تحثوا حكومتنا على أن تكون كريمة، سخية ... فسيكون لكرمها أثر عظيم من شأنه أن يمحو ذلك الانطباع الذي تخلّف عن إساءاتنا الأخرى بحق فرنسا. إنني أزداد قناعةً يومًا بعد يوم بأن كل جُزُر غرب الهند ستظل في قبضة الأشخاص الملونين، وأنه — سواء عاجلًا

أو آجلًا — سوف يُطرد منها كل البيض. لقد حان الوقت الذي علينا أن نتوقع فيه المشاهد الدموية، التي من المؤكد أن أبناءنا، وربما نحن أيضًا (بجنوب بوتوماك)، سنضطر لخوضها، وأن نسعى لتجنبها.» [القوسان مُضافان.]

ومن هنا، فإننا لا نجد قلب جيفرسون ينزف حزنًا على طبقة من ملّاك العبيد فحسب، بل يعتبر مأزقهم بمنزلة مأساة بالغة العُمق لدرجة أنه لا مثيل لها. فهو يحث إخوانه من أهالي فيرجينيا على تدبير اللازم من أموال الشعب لإغاثة ومساندة أولئك الفارين مما كان سائدًا عام ١٧٨٩م. (وربما لا تكون أفكار عام ١٧٨٩م بالتحديد؛ فالنظام الفرنسي لم يُلغِ الاسترقاق رسميًّا حتى عام ١٧٩٤م، أي العام التالي، ولكن على أية حال، فمع حلول ذلك الوقت كان الاسترقاق قد انتهى تمامًا في هاييتي.) وكان يأمل جيفرسون أن مثل هذا الإحسان سوف يسترضي الرأي العام الفرنسي بعد المهانة التي تعرض لها على أيدي الأمريكيين، وربما تلاحظ أن هذا الخطاب قد أُرسل لمونرو في نفس الشهر الذي تبرأ فيه جيفرسون نفسه من «المواطن» جينيت.

وجدير بالذكر أيضًا أن جينيت كان عضوًا في منتدى سياسي باريسي يُعرف بـ«أصدقاء السود» Les Amis des Noirs، ومعه العديد من زملائه من حزب جيروندين، وأن جيفرسون في المدة التي سبقت عام ١٧٨٩م، أوشك أن يقرّ وجود هذا المنتدى، ولكنه تراجع عن ذلك. الواقع أن ميول جينيت المعادية للعبودية استُغلت لتشويه سمعته بين أهالي الجنوب في مدة عمله مبعوثًا لأمريكا. ومن ثَم، فقد اتخذ جيفرسون من هاييتي نفس الموقف الذي اتخذه من فيرجينيا؛ وهو أن إلغاء الاسترقاق قد يكون بمثل خطورة وأذى الاسترقاق نفسه. ولم يستطع جيفرسون في البداية أن يتبين بوضوح، من ذلك الوميض من التحيز، أن الأحداث في هاييتي سوف تمنحه يومًا ما فرصة ذات أبعاد تاريخية.

الفصل السادس

اعتزال وتأهب

في مونتيتشيللو، كان جيفرسون قد اعتزل في الأيام الأولى من عام ١٧٩٤م، وكان من المحتمل أنه كان ينوي ألا يتراجع عن عزلته؛ فقد رفض، في خريف ذلك العام، دعوة من إدموند راندولف — الذي خَلَفَه في منصب وزير الخارجية — للتفاوض مع إسبانيا حول معاهدة جديدة. ولكن جيفرسون لم يكتف برفض العرض فحسب، وإنما أضاف أنه ما من وسيلة يمكنها إغراؤه بالعودة للعمل السياسي. ومع ذلك، فمن الجائز أيضًا القول بأنه كان يحتفظ لنفسه بفرصة أكثر تميزًا.

وفي تلك السنوات، وتحت ضغط الضرورات الاقتصادية، قام جيفرسون بتخفيض نفقات منزله الشهير، بالإضافة إلى تحديثه. وقد ظل جيفرسون من المهتمين بالشئون الزراعية، سواء فيما يتعلق بمحراثه ذي التصميم الجديد، على أساس تقنية تقطيع الأرض التي لاحظها لأول مرة عندما كان في فرنسا، أو في استيراده من اسكتلندا لنوع أكثر كفاءةً من درّاسات الحِنطة. وأضاف بعض التنازلات فيما يخص الصناعة بتأسيسه مصنعًا للمسامير في المنطقة وتنظيم عمل الشبان الصغار من العبيد في خط إنتاج أوّلي. وبدأ العمل في إعادة بناء شاملة للمنزل الذي صممه المعماري بالاديو، والذي لا تزال بعض تجديداته (مثل المصعد الصغير لحمل الطعام والشراب، والباب الدوّار، والمشاهد التي تبدو من نوافذه) تكشف — إلى حد ما — أمام أعين الزائرين أنها أُعدت بطريقة تقلل إلى أقصى الحدود أي اتصال مباشر مع العبيد.

ومع تجاوز جيفرسون لسن الخمسين وهو ما زال وزيرًا للخارجية، فقد صار جدًّا بإنجاب أحد أبناء مارثا لتوماس مان راندولف "Thomas Mann Randolph". وصار هو نفسه أبًا من جديد بميلاد أول أبناء سالي هيمينجز المقيدين عام ١٧٩٥م. وسواء على المستوى العقلي أو البدني، فقد ظل بصحة جيدة بما يفوق سنوات عمره، وقد داوم على ممارسة التمرينات الشاقة ممتطيًا صهوة جواده، حاملًا معه مسدسه الذي يحتمي به. إذن فما هي احتمالات أن ينجح لمدة طويلة في اجتناب الضرورة الملحة للعودة للعمل السياسي؟ ربما كان سيحدث في حالة ما إذا كان لأعضاء حزبه السياسي اليد العليا في شئون الدولة. ولكن مع اقتراب الشهور الأخيرة من عام ١٧٩٤م، وصلته الأنباء (وعرف أيضًا من مراسليه) بأن الحال لم يكن هكذا. ففي غرب بنسلفانيا، تفجرت ثورة، عُرفت في التاريخ باسم ثورة الويسكي لاحتجاجها على ضريبة فيدرالية فُرضت على تقطير المشروبات الكحولية. وقد عزمت في لحظة معينة، القيادة السياسية لتلك الحركة، التي اقتبست روح الثورة الفرنسية، على أن تُطلق على نفسها «لجنة الأمن الشعبي» على غرار اليعقوبيين. أما جورج واشنطن، وألكسندر هاملتون، وجون آدمز، وجون جاي، فمن جانبهم لم يواجهوا صعوبة في اكتشاف اليد المُخربة ذات النزعة الجمهورية التي تأسست أخيرًا «للجمعيات الديمقراطية». وقد أطلقوا عليها — قاصدين شرًّا — اسم «الجمعيات التي كوّنت نفسها بنفسها» — وكأنه من الممكن أن يكون هناك نوع آخر. واستُدعيت الميليشيات من عدة ولايات متجاورة، ونزلت قوة مكونة من خمسة عشر ألف رجل، بقيادة هاملتون من بين آخرين، إلى أرض المعركة ضد المتطرفين. وهذه الممارسة للسلطة المُطلقة كانت نتيجتها سحق الثورة بسرعة مذهلة.

ومن نتائجها أيضًا إثارة غضب جيفرسون؛ ففي خطاب إلى جيمس ماديسون، زعيم الجمهوريين في الكونجرس، وصف جيفرسون بلاغة وفصاحة الرئيس بأنها «هجوم على حرية الحوار وحرية الكتابة والطباعة والنشر». لقد عاد مرة أخرى، كما فعل في حالة ثورة شايز سابقًا، إلى صورة الصراع الأبدي بين الحرية والطغيان. فالإدارة الحاكمة كانت «مَلَكية»، ونظرتها للعالم

كانت «مبهورة تمامًا ببريق التيجان والأكاليل». وبشيء من المبالغة في وصف الموقف، ظن أنه يرى ميلًا إلى النزعة الانفصالية فيما بين الثوّار؛ الأمر الذي إذا عولج بأسلوب فظ فسوف يهدد الاتحاد بالخطر.

وفي نفس اليوم تحديدًا، التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٧٩٤م، وهو اليوم الذي شنّ فيه واشنطن هجومه على الجمعيات «التي كوّنت نفسها بنفسها»، وقّع أكبر قضاته؛ جون جاي، معاهدة في لندن. وعندما أُعلنت بنود المعاهدة مع بريطانيا، كان من أثرها اشتعال شعبي ووطني هائل كرد فعل، ووافق البريطانيون على إخلاء مواقعهم في الشمال الغربي الأمريكي، وهو أكثر قليلًا مما تعهدوا القيام به عام ١٧٨٣م. أما الأمريكيون، فقد سُمح لهم بالتبادل التجاري دون أية معوقات مع جزر الهند الشرقية البريطانية، ولكن ليس مع جزر الهند الغربية الأقرب لهم. وسُوِّيَت الدعاوى المتلاحقة بالخسائر الناتجة عن صراعات سابقة، ولكن كان ذلك إلى حد بعيد في مصلحة المدينين البريطانيين. أما الأمر الأهم، الذي أدركه الرأي العام بسهولة، فهو رفض البريطانيين لإعلان أية تعهدات بخصوص استيلائهم المثير للغضب، أو بالأحرى خطفهم فعليًّا للبحارة الأمريكيين.

وكان ذلك يمثل لجيفرسون النظير الأجنبي عبر البحار لحالة الولع الشديدة غير الوطنية بالإنجليز لدى واشنطن وآدمز: «معاهدة تحالف بين إنجلترا وأنصارها في هذه الدولة ضد شعب الولايات المتحدة.» لقد اقترب الأمر على وجه التقريب من كونه خيانة؛ اكتمال «النظام» الحقير لهاملتون. ولم يبذل أدنى جهد للاستفادة من القوة التجارية المؤثرة لأمريكا، التي أيدها جيفرسون في شهور عمله الأخيرة وزيرًا للخارجية. ولم يُستغل أيضًا الموقف العسكري البريطاني المعادي بشدة لفرنسا، التي كانت أخيرًا تقوم بكل شيء قبل أن يقوموا هم به على الأراضي الأوروبية. وهناك تلميح، في خطاب كتبه جيفرسون في أبريل/نيسان عام ١٧٩٥م، إلى أن ما وقع أخيرًا ربما يؤدي به في النهاية إلى الخروج من عزلته في مونتيتشيللو؛ فقد كتب إلى ويليام برانش جيلز، وهو عضو جمهوري قدير في الكونجرس، وزميل قديم له في الصراع ضد هاملتون، يقول:

«أهنئك بقوة على النجاح العظيم لحليفينا الأولين؛ الفرنسي والهولندي. وإن كان الشك يساورني إلى حد ما فيما يتعلق بتناول العشاء [في لندن] مع بيتشيجرو Pichegru [الجنرال الفرنسي المنتصر] حيث ربما يغريني ذلك بأن أترك لبعض الوقت حياة الترف التي أعيشها، وأذهب للترحيب بفجر الحرية والنظام الجمهوري الذي بزغ في تلك الجزيرة.»

ولو ذهب جيفرسون إلى لندن، ولو على سبيل المزاح، للاحتفال بانبعاث عامي ١٧٧٦م و١٧٨٩م من جديد، ألن يُغامر بالذهاب حتى فيلادلفيا؟ وبعد عدة شهور، صارت لهجته إلى حد ما أقل دماثة، عندما تصرف الجمهوريون تصرفًا سيئًا غير متوقع في محاولتهم لوضع العوائق أمام معاهدة جاي. ثم في التاسع عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٧٩٦م، أُعْلِن الأمر الذي كان الجميع يتوقع حدوثه والذي لم يستعد له أحد فعليًّا؛ ألا وهو، «خطاب وداع» الرئيس جورج واشنطن. وعلى الفور، شعر كل الجمهوريين بذلك الفراغ الذي أصبح موجودًا بالفعل، في كلٍّ من السلطة الوطنية وزعامتهم نفسها.

وقد بدا الأمر واضحًا لجيفرسون بأن نائب الرئيس، جون آدمز، سيكون على الأرجح الفائز في أية انتخابات لاختيار خليفة لواشنطن، وكان هو سيفضل تلك النتيجة في جميع الأحوال (كما صرح بنفسه). وقد كان هناك ما يمكن قوله لتجنب أية مقارنة مباشرة مع الأب المؤسس للدولة، وما يمكن قوله أيضًا لتجنب شرارة الطموح البالغ، إلا أنه لم يكن من الممكن الاعتراض على موقف الحزب. وبعد إعلام جيفرسون بأنه في جميع الأحوال لن يُرَشّح، اتفق جيمس ماديسون مع قيادة الحزب الجمهوري أن يُعقد مؤتمر حزبي يعلن فيه ببساطة أن توماس جيفرسون وآرون بور أصبحا مرشحين. وقد سارت الانتخابات على نحو من الحيطة المُفترضة. وربما يكون من المُشجع، ومن التفكير الجاد أيضًا، أن نفكر في أنه، في الصراع بين جيفرسون وآدمز عام ١٧٩٦م، كان أمام الناخبين الاختيار بين رئيس المجتمع الأمريكي الفلسفي، ومؤسس الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون، وقد اختاروا الاثنين.

وفي ذلك التاريخ، قام الناخبون الرئاسيون — الذين اختارهم مشرعو الدولة — لكل ولاية بتحديد الهيئة التشريعية، التي كان يحق لكلٍّ من أعضائها الإدلاء بصوتين، على أن يكون أحد الصوتين لمصلحة مرشح من ولاية أخرى. ويتولى المرشحان اللذان حصلا على أكثر الأصوات — بصرف النظر عن حزبيهما — منصبي الرئيس ونائبه على التوالي. ومع أن حملة ١٧٩٦م كانت قصيرة، فإنها لم تكن بأية حال عذبة. ومع ترفع جيفرسون عن العملية ككل وكأنه أحد الآلهة الإغريقية، فإنه تعرض لسلسلة من الإهانات القاسية عن طريق المُلصقات والمنشورات، التي اتهمته بالإلحاد، وتأييد القضاء على الاسترقاق، والتعاطف مع اليعقوبيين ذوي الأيادي الملوثة بالدماء. وفي الاتهامات الثلاثة، يعتبر عامل الصدق — بالنظر إلى الأحداث السابقة — مسليًّا، آخذين في الاعتبار فشل كاتب تلك الملصقات في تقدير عبقرية جيفرسون وصبره على التوصل للحلول الوسطى. وهو لم يأتِ حتى على ذكر الانتخابات في خطاباته، وعندما أُحصي عدد الأصوات، أسعده أن يعرف أن جون آدمز قد حصل على ٧١ صوتًا، وأنه هو نفسه حصل على مركز ثانٍ مشرف بعدد أصوات يساوي ٦٨ صوتًا. أما زميل آدمز الفيدرالي؛ توماس بينكني "Thomas Pinckney"، فقد حصل على ٥٩ صوتًا، في حين اضطر آرون بور بأن يرضى (أو حتى لا يرضى) بعدد أصوات مُخزٍ قدره ٣٠ صوتًا.

ومع رحيل جيفرسون، سرعان ما تحولت السياسات الأمريكية إلى النظام الحزبي على نحو مكشوف، وفي بداية الأمر، كافح كلٌّ من جون آدمز وتوماس جيفرسون لإبقاء تلك المبايعة السياسية في حدود المعقول. فقرر جيفرسون ألا يرسل لآدمز خطاب تهنئة كان قد انتقد فيه ألكسندر هاملتون. وبشهامة، اقترح آدمز أن يقود جيفرسون بعثة رفيعة المستوى إلى فرنسا، لتهدئة حالة الغضب في باريس التي نتجت عن معاهدة جون جاي مع إنجلترا. (ولكن نائب الرئيس الجديد رفض ذلك الشرف، مُفضلًا أن يترأس مجلس الشيوخ، وانتهى به الأمر إلى تأليف كتيب قصير، ذي أسلوب منمق عن النُّظُم والإجراءات، الذي لا يزال قيد الاستعمال.) وقد جرت إجراءات تولي الرجلين لمنصبيهما على نحو ودي هادئ، ولكن كل هذا لم ينجح في تخفيف

حدة الشعور بانعدام الثقة الذي تبادله الرجلان؛ ذلك الشعور الذي بدأ منذ المُناظرة الجدلية التي جرت بَيْن بيرك و«بِين» عام ١٧٩١م، ولم ينجح شيء في طمس الحقيقة الواضحة التي تؤكد أن كلًّا منهما كان ينظر للخصومة الفرنسية–الإنجليزية، وما يعادلها على المستوى المحلي، من وجهة نظر تتناقض مع الآخر تمامًا.

وقد جاء تفسير آدمز لمصطلح «الحيادية» في هيئة دعوة للتأهب العسكري — وإن كان موجهًا بصورة أساسية ضد فرنسا. وفي عام ١٧٩٧م، ألقى خطابًا شجب فيه التهديدات الفرنسية للمصالح الأمريكية. ثم أرسل فريقًا مكوّنًا من ثلاثة مفاوضين إلى باريس، منهم اثنان من الفيدراليين (وهما تشارلز بينكني وجون مارشال)، وواحد فقط من الجمهوريين (هو إلبريدج جيري). ومن تعاملاتهم مع الساخر العظيم الباقي على قيد الحياة؛ تاليراند "Talleyrand"، الذي صار وزيرًا للخارجية، أدرك المفاوضون الثلاثة أن لهم ثلاثة نظراء فرنسيين يلحون في طلب رِشوة كبيرة ثمنًا للتصرف بدبلوماسية. وأراد الثلاثي الفرنسي؛ جون كونراد أوتينجويه "Jean Con-rad Hottinguer"، وبيير بيلامي "Pierre Bellamy"، ولوسيان آندوفال "Lucien Handeval"، الذين يُشار إليهم في التقارير الأمريكية بالعملاء «إكس، واي، زد» وقد طالبوا بأن يقوم الرئيس آدمز بالتنصل من تعليقاته المعادية لفرنسا. وقد كان هذا المزيج من الجشع والتعجرف، الذي صرّح به آدمز للجمهور الساخط، سببًا لإثارة غضب شعبي عارم ألغى أمامه تمامًا رد الفعل السابق ضد خيانة جاي للقضية. (فلأن الجمهوريين هم أول من طالبوا آدمز — سهوًا منهم — بالكشف عن أوراق الإدانة، فإن التأثير كان مُضاعفًا، إن لم يكن أربعة أضعاف.) وصارت الصيحة العامة هي «الملايين من أجل الدفاع، ولكن لا يُدفع سنت واحد إتاوة». ولاستغلال اللحظة خير استغلال، اقترح آدمز مُضاعفة حجم القوات المسلحة الأمريكية، وإنشاء إدارة قوات بحرية. وقد أثار هذا انزعاج جيفرسون بصورة خاصة، حيث أُرغم على أن يُعارض علنًا ما دأب على تأييده سرًّا لمدة طويلة (وذلك لأسباب أخرى، كما سنرى لاحقًا).

إلا أن موقفه في ذلك النزاع الجدلي قد ضعُف إلى حدٍّ خطير ولكن من جهة أخرى. ففي حين كان لا يزال بعيدًا عن الحياة العامة، إلا أنه في أبريل/نيسان عام ١٧٩٦م، أوقع نفسه في مأزق خطير بكتابة خطاب، كان المُفترض أن يكون سريًّا، إلى فيليب مازيي "Philip Mazzei". فقد دُعي مزارع العنب الإيطالي ذاك، الذي يبدو ظاهريًّا غير مؤذٍ على الإطلاق، إلى مونتيتشيللو لمساعدة جيفرسون في مشروع عمره للارتقاء بمستوى النبيذ الفيرجيني. ولكن الخطاب انجرف إلى الحديث عن السياسة الأمريكية، حيث ألمح جيفرسون بازدراء كالمعتاد إلى ذلك «الحزب ذي الميول الإنجليزية المَلَكية الأرستقراطية ... الذي يحمل هدفًا معلنًا هو أن يطبق علينا روح الحكومة البريطانية، كما طبق هيئتها الشكلية من قبل.» لقد شعر جيفرسون أن ذلك «الحزب» ضمّ «الرئيس والسلطة القضائية» و«كافة المسئولين الحكوميين، وكل من يرغب في أن يكون واحدًا منهم، وكل الرجال الجبناء الذين يفضلون هدوء الأجواء وإن كان في ظل الطغيان، على بحور الحرية الثائرة.» فإذا كان كل ما سبق ليس مفصلًا بما يكفي ليكون وصفًا لحكومة واشنطن، فقد استطرد يقول لمازيي: «لتصيبنّك الحمّى لو أنني أطلعتك على أسماء أولئك الزنادقة الذين تطاولوا بتلك الهرطقة والبدع؛ فعلى أرض المعركة هم في قوة شمشون، وداخل المجلس هم في حكمة سليمان، إلا أن تلك الفاجرة التي تدعى إنجلترا قد أطاحت برءوسهم.» (ومن جديد، لا يسعنا إلا أن نلاحظ استخدامه للصور الدينية المُقتبسة من الكتاب المقدس عند مناقشة القضايا المتعلقة بالمعتقدات الثورية.)

وقد ترجم مازيي الخطاب إلى الإيطالية، ونشره في جريدة إيطالية؛ الأمر الذي تسبب في كارثة لجيفرسون؛ فقد وضعت صحيفة فرنسية يدها على النص، وترجمته إلى الفرنسية، ثم التقطته جريدة إنجليزية ونقلته إلى الإنجليزية، وفي خِضم هذه الأحداث المتداخلة، انتقل عبر المحيط الأطلنطي حيث أُلقي في وجه مؤلفه الأصلي. وقد سعى معارضوه بأقصى طاقتهم إلى إجادة استغلال ذلك التعدي والافتراء الواضح على شخصية واشنطن، الذي كان لا يزال يملك أعلى درجات الحصانة، واكتسب المزيد من المجد والشرف

عندما تقاعد في هدوء دون تباهٍ. وعندما رأى جيفرسون بدوره شرفه وكرامته يطعنان علنًا على هذا النحو، وقع بين شقي الرحى. فالحقيقة أنه كتب الخطاب «بالفعل»، ومن ثم، فلكي يثبت أن الخطاب جرى تشويهه إلى حد ما أثناء ترجمته (فقد قال على سبيل المثال «نماذج الحكومة البريطانية» وليس «النموذج» الفعلي للمَلَكية نفسها)، كان عليه أن يكشف عن المزيد من مراسلاته أمام عامة الناس. وعندما وصل الأمر إلى إهانته في الصحافة العامة، فإن شعوره الفطري بالرثاء لذاته، ذلك الشعور الذي جعله دائمًا يرى نفسه أكثر إجلالًا وأرفع مبادئ من الدخول في دروب السياسة الوعِرة، لم ينجح في الصمود طويلًا أمام تكشف حقيقة أنه يدفع لبعض الصحفيين المأجورين في الصحافة الأمريكية الصفراء. وبناءً على ذلك، فقد التزم بحالة من الصمت المطبق؛ الأمر الذي لم يكن في مصلحته على الإطلاق. ويبدو من المؤكد أنه، عقب هذه الحادثة المثيرة للجدل، لم يتكلم ثانيةً مع جورج واشنطن ولم يراسله قط.

وقد رأى جيفرسون أن أكثر الأشخاص تنديدًا بـ«النفوذ الأجنبي» هم أنفسهم أكثر من يمثله. فهو لم يكف أبدًا عن الاشتباه في أن هاملتون كان يُخطط لإحداث ما يشبه الضربة المفاجئة في تأييد بريطانيا. فعن طريق مقعده في مجلس الشيوخ، غالبًا ما تعرض لأشد الإساءات، سواء لشخصه أو ما تبادلته الأحزاب المتنافسة. وقد كان له تعليق ذو أهمية على أحد تلك النزاعات، حيث تطور الأمر بين فيدرالي من كونيكتيكت وجمهوري من فيرمونت من السباب إلى تبادل اللكمات. فكانت ملاحظته المحايدة أن «تلك الحوادث تحط من قدر الحكومة العامة، وتدفع الناس إلى الاتكاء أكثر على حكومات ولاياتهم، التي كانت تدين بالولاء للحكومة العامة.»

واتضح أن تلك الفكرة المتبصرة والحاضرة دائمًا الخاصة بالنزاهة النسبية للولايات، هي سلاحه السري في المعركة السياسية الكبرى التالية. وقد بالغ مؤيدو هاملتون وآدمز في تقدير حجم قدراتهم؛ حيث ألهبت المواجهات البحرية بين السفن الفرنسية والأمريكية حماستهم، ووصلت بهم إلى درجة عالية من الاستياء الأخلاقي من قضية العملاء «إكس واي زد» (وموقف الاعتذار الذي

اتخذه منها جيفرسون وغيره من الجمهوريين). فعملوا على إثارة شعور، يجدر بنا أن نُطلق عليه «الخوف الأعظم» "Une grande peur"، وثارت حالة محمومة من التجسس، والشعور بالكراهية نحو الأجانب، والذعر من الغزو؛ فلم يُسْتَثْنَ شيء. واحتلت الأغنية الوطنية الجديدة «لتحيا كولومبيا» مكان الــ«مارسيليز» (أو النشيد الوطني الفرنسي) في شعبيتها بين الناس. ومما عزز حالة «شبه الحرب» مع فرنسا وجود جيش دائم، وجباية الضرائب لتدعيمه، ووجود سياج داخلي ثابت من اليقظة والاحتراس. لدرجة أنه اقتُرح عمل تحالف عسكري إنجليزي-أمريكي للاستيلاء على أمريكا الإسبانية. وفي ظل هذه الأجواء المحمومة، أسرع الكونجرس إلى تمرير القوانين الخاصة بالأجانب والتطبيع وإثارة الفتن.

وباجتماعها معًا فإن هذه المجموعة من قوانين الطوارئ منحت الرئيس السلطة لحبس أو ترحيل أي «أجنبي» ينتمي لدولة عدوة في وقت الحرب، أو بالأحرى أي شخص غير مواطن أيًّا كانت دولته إذا ما اتُّهم بتعريض الأمن القومي للخطر. وطالت المدة التي يجب على المهاجر أن يقضيها في الدولة قبل أن يصير من مواطنيها إلى أربعة عشر عامًا. وسمحت القوانين بمعاقبة أي شخص يسيء إلى سمعة حكومة الولايات المتحدة، سواء بالقول أو بالنشر. (أو بالأحرى سمعة أغلب أعضاء تلك الحكومة؛ فالواقع أن قانون إثارة الفتن استثنى نائب الرئيس من قائمة المسئولين غير المسموح بانتقادهم.)

ودون أن يتدنى بنفسه للتوقف عند ذلك الشرط السافر، بنى توماس جيفرسون؛ نائب الرئيس، موقفه في البداية على أساس نقطتين: الأولى، أنه اعتقد أن تلك القوانين كانت توجه ضربتها مباشرةً إلى المتطرفين الأجانب والمنشقين الذين كانوا حتى تلك اللحظة يعتبرون الولايات المتحدة موطنهم الثاني. وكان يقصد بذلك رجالًا مثل مفكر عصر التنوير الفرنسي كونستانتين فولني "Constantin Volney"، الذي أسهم جيفرسون بنفسه في ترجمة تحفته الأدبية المناهضة للتدخل الكَنَسي «الأطلال» "The Ruins"، أو البطل البولندي ثاديوس كوسكيوسكو "Thaddeus Kosciusko"، الجنرال المتطوع في الحرب الثورية الأمريكية. فقد شعر كلا الرجلين بأنهما مجبران على مغادرة

الدولة التي شرفها وجودهما فيها. أما النقطة الثانية، فهي أنه اعتبر القوانين الخاصة بالنشر والدفاع بمنزلة رفض صريح للتعديل الأول لدستور الولايات المتحدة، ومن ثم فإنها تتجاوز نطاق السلطة القضائية للكونجرس. وكامتياز بسيط، قام الفيدراليون بتعديل القانون المُقترح واستقصاء «القيود المُسبقة» الخاصة بالنشر، ولكنهم مرروا التعديل باحتفاء مبالغ فيه في يوم الباستيل عام ١٧٩٨م، وفرضوه بشيء من الصرامة ضد المحررين الجمهوريين وكتّاب المنشورات.

وكرد فعل ضد ادعاء السلطة المطلقة في الوسط، أدرك جيفرسون أنه يستطيع أن يلوذ في النهاية — كما ألمح في مجلس الشيوخ — إلى استخدام سلاح «حقوق الولايات». وعند تأريخ الحدث، علينا أن نوضح أنه عندما اختار أن يفعل هذا، لم يحدث الأمر بسهولة. فقد كتب لصديقه من فيرجينيا؛ جون تايلور، في البداية بلهجة تدل على رباطة الجأش، حيث وصف الحرب الدائرة بين الأحزاب باعتبارها حتمية، وتأسّف لفكرة أن الجانب الخاسر سيمثل تهديدًا للاتحاد. فكتب يقول: «فلنتحلَ بقليل من الصبر، ولسوف نرى حكم الساحرات يمضي لسبيله، وسحرهن يتلاشى، ويستعيد الناس بصيرتهم الحقيقية.» وقد قرر تايلور المُشتعل غضبًا أن يوافق جيفرسون في أحد تصويراته السماوية اللاهوتية. فإذا كان السحر هو بالفعل المشكلة (وقد كانت «مطاردة الساحرات» هي الاستعارة المُفضلة عن الذعر الأمريكي منذ أيام سالم Salem وحتى الآن.)[1] إذن فإنه يترتب على ذلك «ضرورة فك هذا السحر بتعاويذ من جانب الجمهوريين.» وبسخرية لاذعة، ذكّر جيفرسون بأنه، في ظل ميثاق فيلادلفيا الأصلي، فإن السلطات التي لم يجر تخويلها للحكومة الفيدرالية، تبقى في حوزة الولايات أو الشعب. فلو لم يكن ذلك هو التوقيت المناسب كي يخرج الجمهوريون برد سريع، فمتى يكون إذن؟

وربما لم يختَر تايلور ألكسندر هاملتون باعتباره نموذجه المُفضل، إلا أن هاملتون في الواقع كتب في «الفيدرالي» يقول:

[1] محاكمة ساحرات سالم هي حكاية رمزية تعبر عن العواقب القاتلة لتقديم اتهامات مثيرة ولكن مغلوطة. وبعد ٣٠٠ عام، لا نزال ندعو الاتهامات الخاطئة ضد عدد كبير من الناس بـ«اصطياد السحر».

«الأمر الذي يمكننا اعتباره — مطمئنين — بمنزلة حقيقة بدهية في نظامنا السياسي، هو أن حكومات الولايات سوف تمنحنا، في ظل كافة الطوارئ المحتملة، الأمان التام ضد انتهاك السلطة الوطنية للحرية الشعبية ... فبإمكانها اكتشاف الخطر من على بُعد، ومن امتلاكها لكل خيوط السلطة المَدنية، ولثقة الشعب، فإنها تستطيع في الحال تبني خطة مقاومة قانونية على الفور، تتجمع فيها كل موارد المجتمع. وتستطيع تلك الحكومات التواصل بعضها مع بعض في الولايات المختلفة بسهولة وسرعة، وتوحيد قواها المشتركة لحماية حرياتها المُشتركة.»

وربما لم تكن تلك هي المرة الأولى التي شعر فيها جيفرسون بشيء من الحرية نتيجةً لغيابه في باريس أثناء الجدال الذي دار حول الدستور. فقد احتل نقطة توازن معينة بين المعاداة العقائدية التقليدية للفيدرالية، والمعاداة الأكثر ارتجالًا. فأسهم، بالاشتراك مع جيمس ماديسون، في كتابة مسودات قرارات خاصة بولايتين ترفض قانوني الأجانب وإثارة الفتن. أقول «ترفض» لأن هناك فارقًا دقيقًا وإن كان عميقًا بين القرارين. فالواقع أن نسخة كنتاكي، التي كتب جيفرسون مسودتها بنفسه، «تُبطل» القانون الفيدرالي من حيث التطبيق داخل حدود تلك الولاية. أما قرار فيرجينيا، الأكثر تأثرًا بماديسون، فإن دارسي القانون الدستوري يعتبرونه تعريفًا لمبدأ «حق التدخل». ووفقًا لهذه الدلالة، تستطيع الولاية التدخل لحماية مواطنيها من السيطرة الفيدرالية، ودعوة ولايات أخرى لاتخاذ قرار بشأن مدى شرعية وعدالة الأمر. (غير أن مراعاة الدقة البالغة، والفروق الطفيفة لم تمنع ألكسندر هاملتون — الذي زادت أهميته أكثر من أي وقت مضى كنموذج عسكري في حكومة آدمز — من اقتراح إرسال كتائب فيدرالية إلى فيرجينيا كي يثبت من بيده زمام الأمور.)

ومن ثم، ففي سنتين، اتهمت جبهة أنصار الاسترقاق جيفرسون بأنه مؤيد لإلغاء الاسترقاق، وأنه أضاف الحجة البلاغية الأخلاقية لحقوق الولايات، التي ستصبح فيما بعد الدعامة السياسية الكبرى للحزب المُناصر للاسترقاق.

وبتتابع الأحداث على نفس المنوال، سدد لأعدائه ضربة سيشعر بأثرها في حياته. وكان جيمس كالندر، النابغة في كتابة كل ما هو سفيه! من بين الصحفيين الجمهوريين الذين وقعوا في شرك قانون إثارة الفتن، فقد كتب ذلك الاسكتلندي المُغترب بوقاحة شديدة موجهًا كلامه ضد أهداف مثل الرئيس آدمز وألكسندر هاملتون، مما تسبب في محاكمته ثُم سجنه. أما جيفرسون، فلمّا رأى موهبة الرجل بنفسه وتعاطف مع مأزقه، منحه في تكتم إعانة مالية، ووضع فيه ثقته على اعتبار أنه ربما يكون مفيدًا يومًا ما. ومن ثم، فقد أطلق بنفسه إشارة البدء لحياة عملية ستبلغ أوْجَها مع أول مرة تُفضح فيها علاقته بسالي هيمينجز فضحًا مدويًّا.

غير أن الصراع المحتمل بين حقوق الولايات والفيدرالية العليا لم يبلغ أبدًا مرحلة تفجر الأزمة والمواجهة. ومن الأحداث التي توافقت عَرَضًا معطيةً للمصادفة مكانتها الضرورية في رواية التاريخ؛ حدثان متزامنان تواليا بالمصادفة: أول هذين الحدثين كان تولي نابليون بونابرت؛ الكورسيكي المُغتصب، زمام السلطة كاملًا في فرنسا. وبعد أن لقّب نفسه بلقب «القنصل الأول» في اليوم الذي لا يزال يُذكر بالثامن عشر من برومير عام ١٧٩٩م، لم ينتظر الديكتاتور العسكري طويلًا ليعلن أن الثورة الفرنسية، بعد عشر سنوات عاصفة بالأحداث، قد انتهت. وقد أُعلن هذا «التصريح» في الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول عام ١٧٩٩م. وفي اليوم السابق لإعلانه، توفي جورج واشنطن. وما من لحظتين كهاتين، سواء اجتمعتا أو تباعدتا، كان بإمكانهما أن تمنحا الأمريكيين شعورًا أقوى بدنو قرن جديد.

وإذا كانت استقالة واشنطن من منصبه رئيسًا قد شقت صدعًا بين الأحزاب المتبارية، فإن وفاته كشفت الانقسامات العميقة داخل حزبه الفيدرالي نفسه. وقد كان أهم تلك الانقسامات متعلقًا بالعلاقات مع فرنسا. وقد انطلق د. جورج لوجان، عضو جماعة الأصدقاء الدينية ذو النوايا الطيبة، في مهمة إلى باريس ليرى إذا كان من غير الممكن استبدال حالة «شبه-الحرب» بمعاهدة. (وقد ظل اسمه حيًّا حتى اليوم عن طريق قانون لوجان، الذي شرعه الفيدراليون ذوو الطباع الحادة لجعل أية محاولات دبلوماسية

سرية يقوم بها أي مواطن أمريكي غير معتمد غير قانونية.) وقد عاد بأدلة مقنعة تثبت حُسن نوايا الجانب الفرنسي، ولو حتى فقط بفعل الهزيمة الساحقة التي مُنيت بها البحرية الفرنسية على يد الأدميرال هوراشيو نيلسون، الذي دمّر مؤخرة الجيش في الحملة التي شنّها بونابرت على مصر عند مصب نهر النيل. وفوجئ جيفرسون بتلك الأحداث تعترض طريقه. أما الرئيس آدمز، فكان يدرك أن الضرائب الجديدة التي فرضها بسبب تزايد المنشآت العسكرية لم تلق قبولًا شعبيًّا — على الأقل في ظل عدم وجود حالة حرب علنية مع فرنسا. وقد تقبل هاملتون ذلك المنطق، إلا أنه طالب بشن تلك الحرب تحديدًا. ولكن آدمز عمد إلى المماطلة بإرسال وفد جديد من المفاوضين إلى باريس. وفي نفس الوقت، ومع قدوم نابليون الإمبريالي المستعمر، شعر جيفرسون بتحرره تمامًا من أي التزام تجاه فرنسا سواء الثورية أو الجمهورية. (وربما يكون في موقفه هذا قد تشبه دون وعي بأعدائه الفيدراليين المكروهين، الذين زعموا أن المعاهدات التي أُبرمت مع الملك لويس صارت باطلة بمجرد أن خلع اليعقوبيون الملك عن العرش.)

وفي ظل هذه الظروف المواتية، حيث أثبتت الأدلة أن جيفرسون نفسه لم يصدق الأمر في البداية (فقد تجنب التفوه بأي كلام على الإطلاق عند وفاة واشنطن)، تفجر أيضًا نزاع مرير بين خصميه؛ آدمز وهاملتون. فقد اتهم آدمز هاملتون برئاسة جماعة سرية تآمرية مع الحكومة، وفصل اثنين ممن اعتقد أنهما متورطان في الأمر (هما جيمس ماكهنري، وزير الحرب، وتيموثي بيكيرينج، وزير الخارجية). وقد رد هاملتون على ذلك الاتهام بخطاب، لم يكن في نيته أن يكون «علنيًّا»، يشجب فيه آدمز ويحث الفيدراليين على مساندة تشارلز بينكني؛ وهو أحد الأبطال المعنويين في قضية العملاء «إكس واي زد». ولكن تلك القضية، وكل تبعاتها، صارت الآن عُرضة لقانون تناقص الغلة، فقد كان نشر خطاب هاملتون مُخزيًا سواء له شخصيًّا أو لهدفه الرئاسي. وفجأة، تعرض الفيدراليون للاستهزاء بسبب «تسرب» المعلومات، وانقسموا فيما بينهم من حيث سياستهم تجاه فرنسا.

وفيما يخص انتخابات عام ١٨٠٠م التي غيرت مجرى التاريخ، لا يبدو أن هناك أية طُرفة نادرة عن تكاسل جيفرسون عن وضع اسمه بين المرشحين. ولكن بدلًا من ذلك، يبدو هناك افتراض عام بأنه سيكون المرشح الجمهوري. وتبدو هناك ثقة عالية، كان لها ما يبررها بوضوح في البداية، في فوزه. فعندما التقى بالرئيس آدمز في مقره الرسمي، بعد فوز الجمهوريين في المجلس التشريعي بنيويورك بوقت قصير، الذي كان آرون بور يديره بحنكة، قال له آدمز بخشونة: «حسنًا، إنني أتفهم أنك ستهزمني في هذا الصراع.» ولكن نائبه أجابه مهدئًا بأنه إذا حدث وتوفي كلاهما، فسوف يستمر الصراع بمبادئ مشابهة، وبالانقسامات عينها. (وتلك هي المدة التي بدأ فيها الأمريكيون احترام فكرة الانتقال المُنظم للسلطة بين الأحزاب المتعارضة؛ الأمر الذي لم يكن قد عُرف بعد في أي مكان آخر في العالم.) ولكن، لم يكن كل المشاركين على نفس القدر من التفاؤل؛ فعندما أدرك ألكسندر هاملتون أن المجلس التشريعي بنيويورك سيقوم بتعيين الجمهوريين في الهيئة الانتخابية — مؤديًا إلى «**ثورة**، على طريقة **بونابرت**»، الذي كان قد شنّ لتوه ثورة مضادة — ضغط هاملتون على الحاكم جون جاي لإبطال النتيجة التي أسهم في إصدارها من سيغتاله مستقبلًا، ولكن جهوده لم تكن مقنعة.

وقد ظهرت حدة انتخابات ١٨٠٠م كأوضح ما تكون في الادعاء الأكثر ابتكارًا من بين الادعاءات التي اتُّهم بها جيفرسون؛ فإلى جانب الاتهامات المعتادة عنه بأنه ملحد وفوضوي، أُضيف الادعاء الذي يبدو بلا إجابة بأنه توفي. وقد لاقت تلك الإشاعة المُغرضة تصديقًا على نطاق واسع، حتى من بعض مؤيديه. حتى ظهر عنوان رئيسي بتاريخ الرابع من يوليو/تموز، ذلك اليوم المشهود، معلنًا أنه لا يزال من الأحياء. واستطاعت المنتديات الديمقراطية التي جرى كبحها من قبل أن تصنع المعجزات في إدارة الحملة الانتخابية وتنظيمها (وكان الاسم الحقيقي الرسمي للائحة مرشحي الحزب هو الحزب الديمقراطي-الجمهوري)، وظهرت النتيجة في البداية باكتساح ساحق ونزيه، بفوز الجمهوريين في كلا مجلسي الكونجرس وفي الصراع على كلا المنصبين الرئيسيين. غير أنه ثبت، بعد الفحص والاختبار، أن جيفرسون عندما أدار

حملته الانتخابية متخذًا آرون بور على لائحة مرشحيه، تلقى نفس عدد الأصوات الانتخابية الذي تلقاه المرشح المنافس. وقد كان واثقًا بشدة من النتيجة لدرجة أنه كتب لبور متأسفًا لأن تعيينه نائبَ رئيس يعني خسارته عضوًا في مجلس الوزراء. ولكن بور أجابه قائلًا إنه على استعداد للانتظار لمعرفة من سيكون الرئيس. وكان هذا بدوره يعني أن مجلس النواب الحالي المعدوم الحيلة، وليس الكيان الجديد المُنتخب الذي سيتولى مهام منصبه في عام ١٨٠١م، كان عليه حسم القضية. وحتى قبل أن يصبح هذا ممكنًا، كان لا بد من إحصاء عدد الأصوات الانتخابية، لكل ولاية على حِدة، في مجلس الشيوخ. وبصفته نائب الرئيس، ترأس توماس جيفرسون مجلس الشيوخ وتولى مهمة هذا الإحصاء.

هناك العديد من الروايات لما حدث بعد ذلك، وسبب حدوثه. وقد أشار البروفيسور بروس أكرمان Bruce Ackerman الأستاذ بجامعة ييل Yale، وزميله المؤلف دافيد فونتانا David Fontana إلى الموقف المثير للحسد الذي وُضع فيه جيفرسون، وذلك في البداية عندما واجه أدلة دامغة على حدوث تلاعب في عملية الاقتراع بجورجيا، إلا أنه، مع ذلك، منح نفسه وبور الأصوات الثمانية الخاصة بالولاية. وما من شك في أن تلك كانت نية الناخبين في جورجيا، لذا، لم تثر قضية غش حقيقية. وعلى أية حال، فقد فاز كلٌّ من جيفرسون وبور بفارق يزيد على أربعة أصوات، ولكن تبقى حقيقة أنه إذا كان أيٌّ منهما نال أقل من سبعين صوتًا، لكان عليهما أن يخوضا انتخابات إعادة مع الثلاثة مرشحين الأُخر؛ آدمز، وبينكني، وجاي.

وقد أضيفت لهذا التضارب المُحير في الحسابات والمصالح تهمة خطيرة ألقاها البروفيسور جاري ويلز Garry Wills؛ (هذا التضارب الذي لم ينجلِ فعليًّا حتى إقرار التعديل الثاني عشر للدستور في عام ١٨٠٤م، الذي لا يزال حتى اليوم يُلجأ إليه كانحراف عن القاعدة إذا ما أثيرت أية تساؤلات عن شرعية الاقتراع في أية ولاية). وفي هذا الشأن، فإن مجموع الأصوات التي حصل عليها جيفرسون قد تضخم بشدة بفعل الأصوات التي مُنحت له نيابةً عن العبيد المحرومين من حق التصويت في الجنوب، الذين جرى إحصاؤهم

في ظل الدستور الفيدرالي باعتبارهم «ثلاثة أخماس» المواطنين، ومن ثَمَّ كان لأصواتهم نفس الثقل في الهيئة الانتخابية، إلا أن «قانون الثلاثة أخماس» لم يعرض على مجلس الشيوخ، والرأي الذي يقول بأن جيفرسون يدين لـ«قوة العبيد»، وأنه على دراية بذلك، لا يزال لا يبرر حماسة البروفيسور ويلز لبينكني. غير أنه من الجائز القول بأنه أظلم الصورة المشرقة لعام ١٨٠١م باعتباره «ثورة ثانية»، أو بداية جديدة للسياسات الديمقراطية.

الحقيقة أن المشهد في المجلس في فبراير/شباط عام ١٨٠١ كان أقل من أن يوصف بالتثقيفي. فقد افترض الكثير من الجمهوريين — إن لم يكن أغلبهم — ببساطة أن بور كان يتنافس على منصب نائب الرئيس فقط، وعلى هذا الأساس، صوّت الكثيرون لمصلحته محاولة لمحو الضرر الذي تسبب فيه أداؤه الضعيف (خاصةً في الجنوب) عام ١٧٩٦م، إلا أن بور كان يملك مزيجًا غير مألوف من الصفات. فبصفته حفيدًا لجوناثان إدواردز؛ الواعظ الكالفيني المتقد الحماسة، كان رجلًا ذا باع طويل في النزاعات، ورجلًا بمعنى الكلمة، وكذلك كان حاله في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء، بالإضافة إلى الكثير من الصفقات المربحة التي تضاف لحسابه، وقد كان قادرًا تمامًا على إقامة صداقات وعداوات تدوم العمر كله أيضًا. ومن أكثر أعدائه عزمًا ألكسندر هاملتون؛ رفيقه من نيويورك، وضحيته مستقبلًا. والواقع أن هاملتون، لمصلحته الشخصية، تغاضى عن كراهيته لجيفرسون بمقته لبور. وقد شارك عدد من الفيدراليين الآخرين هاملتون الاعتقاد بأن انتخاب بور سيكون كارثة. وبعدما لا يقل عن خمسة وثلاثين اقتراعًا في المجلس لم يفض أيٌّ منها إلى نتيجة حاسمة، انتهى التعادل أخيرًا بمبادرة جيمس بايارد من ديلاوار؛ حيث قامت ولايته، بالإضافة إلى ولاية نورث كارولينا، بالتخلي عن بور بتقديم ورقة اقتراع بيضاء، في حين امتنعت ولايتا فيرمونت وميريلاند عن التصويت. ومن ثم، ففي الاقتراع السادس والثلاثين، في فبراير/شباط عام ١٨٠١م، جرى اختيار جيفرسون لمنصب الرئيس الثالث للولايات المتحدة.

وقد استمر بعض الفيدراليين في التصرف بروح عدوانية؛ فجون آدمز، الذي صار أول رئيس للدولة يتعرض للهزيمة، ترك العاصمة الجديدة واشنطن،

قبل تقليد المنصب لخَلَفه. وربما كان عذره تعرضه لفقدان عزيز عليه، حيث كان قد فقد ابنه تشارلز قبل وقت قريب. ومن ناحية أخرى، اقترح ألكسندر هاملتون أنه من ذلك الوقت فصاعدًا، سيتعين على الناخبين الرئاسيين الفصل بين الرئيس ونائبه عند الإدلاء بأصواتهم (وكان هذا هو النظام الذي اعتمد فيما بعد باعتباره التعديل الثاني عشر.) وقد قرر جيفرسون أن يسود حديثه روح المصالحة، وفي مارس عام ١٨٠١م، ألقى خطابًا افتتاحيًّا — بصوت غير مسموع تقريبًا كعادته — أسعد معظم من استمعوا إليه، أو قرءوه:

> «إن كل اختلاف في الرأي لا يعد اختلافًا في المبدأ. لقد أطلقنا ألقابًا مختلفة على إخوة يعتنقون نفس المبادئ. فكلنا جمهوريون، وكلنا فيدراليون. فإذا كان بيننا من يتمنون حلّ هذا الاتحاد أو تغيير هيئته الجمهورية، فليرشحوا أنفسهم دون مَساس، كنموذج على الطمأنينة التي يجب أن نوفرها لهم متغاضين بها عن الرأي الخاطئ، حيث نترك للمنطق الحرية في دحضه.»

تلك الفقرة، بما تحمله من توبيخ ضمني لروح قانوني الأجانب وإثارة الفتن ونصهما، تبدو كأنها محاكاة مقصودة لمقالة «آريوباجيتيكا» "Areopagitica" لميلتون؛ وهي واحدة من أعظم مقالات الثورة الإنجليزية: «ومع أن كافة الاتجاهات العقائدية أُتيحت لها حرية الحركة على وجه البسيطة حتى تنجلي الحقيقة، فإننا نسيء التصرف عندما نخوّل أنفسنا حق المنع والإجازة، حيث نشكك في قوتها. فلندع الحق يصارع الباطل؛ فهل سبق أن انهزم الحق في مواجهة حرة علنية؟» وانبرى جيفرسون، معلنًا إيمانه بمواطنة تتسم بالقومية والديمقراطية، متحدثًا عن نظام حكم حيث:

> «يسمو كل إنسان، بمقتضى القانون، إلى معايير القانون، ويعتبر أي انتهاك للنظام العام مشكلته الشخصية. يقال في بعض الأحيان إنه لا يمكن ائتمان الإنسان على حكمه لنفسه، فهل يا ترى يمكن ائتمانه على حكم الآخرين؟ أم أننا عثرنا على ملائكة في هيئة ملوك لتحكمه؟ فلندع التاريخ يجيب عن هذا السؤال.»

النقطة الأخرى التي تحمل دلالة خطيرة في هذا الخطاب، هي إعلان جيفرسون أنه في حين ستسعى أمريكا لإقامة علاقات ودية مع كل الدول، فإنها ستعمد إلى «عدم التورط في تحالفات مع أحد». وكان هذا رمزًا لتوديعه للفرنسيين، وتعبيرًا عن عزمه على أن تصير الولايات المتحدة قوة قائمة بذاتها. لقد صارت تملك عاصمة جديدة في واشنطن، وقرنًا جديدًا، ورئيسًا جديدًا، ومن كان يتوقع، فربما تبدأ عهدًا جديدًا أيضًا.

الفصل السابع

السيد الرئيس

من الممكن الزعم بأن جيفرسون كان ينتمي لحزب حقوق الولايات الديمقراطي، حتى قبل أن يكون للحزب وجود، وطبيعة التاريخ في فرض الأحداث تجعل من المستحيل التكهن بما كان الوضع سيئول إليه إذا ما فاز بور أو آدمز بانتخابات ١٨٠٠–١٨٠١م. ولكن التاريخ المدوّن، كما وصل إلينا، يتيح لنا القول بأنه في حالة عدم تولي توماس جيفرسون لمنصب الرئيس، فقد يكون من أبعد الاحتمالات على الإطلاق تواجد الولايات المتحدة التي نعرفها اليوم، أو حتى التي عرفناها منذ قرن مضى.

هناك ثلاثة مراحل محددة في حكم جيفرسون لها الفضل في تأسيس هذا الوطن؛ ألا وهي، حرب البربر، وصفقة شراء لويزيانا، ورحلة لويس وكلارك الاستكشافية للغرب. والمراحل الثلاث كلها تشهد على تفرد عقلية جيفرسون المذهلة (بالإضافة إلى ذاكرته الحديدية)، مع الاعتراف بنشأتها جزئيًّا في المدة التي قضاها في باريس. ومن الأسهل أن نتناول كلًّا منها على حِدة أولًا، ثم نتناول العلاقة التي ربطت بينها.

سواحل طرابلس

فيما بين عامي ١٥٣٠م و١٧٨٠م، أحصى المؤرخ روبرت دافيز عددًا كبيرًا يبلغ نحو مليون وربع المليون من الأوروبيين تعرضوا للخطف والاسترقاق على يد الطغاة المسلمين في الساحل الشمالي الغربي لأفريقيا. وتلك التجارة — التي جمعت بين القرصنة، وطلب فدية، والاسترقاق الإجباري — لم تكن مثل عملية

نقل العبيد المشينة المعروفة بـ«الرحلة الوسطى» ”Middle Passage“ التي فقد فيها الكثير من الأفارقة السود، الذين جرت مقايضتهم؛ أرواحهم، ولا كانت على نفس القدر من التنظيم والسعي للربح الذي كانت عليه التجارة «الثلاثية الأضلع» للعبيد التي ازدهرت بين أوروبا وأفريقيا والأمريكتين، غير أنها بطريقة ما تولدت عن تلك التجارة أيضًا؛ حيث إن المتطفلين الأوروبيين على التجارة أعاقوا التدخل المبكر العربي لشمال أفريقيا في عملية نقل العبيد الأفارقة من الشمال للجنوب. ويحكي العديد من مؤرخي ذلك الوقت ذوي المصداقية العالية عن الغارات «البربرية» على المدن الساحلية البعيدة مثل إنجلترا وأيرلندا، بالإضافة إلى أعداد لا تحصى من حالات الاختطاف من على متن سفن في البحر المتوسط وغيره من الطرق البحرية. فيبدو، على سبيل المثال، أن كل ساكني القرية الأيرلندية بالتيمور تقريبًا لقوا مصرعهم عام ١٦٣١م. وقد أشار كلٌّ من صامويل بيبايز ”Samuel Pepys“، ودانييل ديفو ”Daniel Defoe“ ضمنيًّا إلى تلك التجارة في كتاباتهما، حيث يقضي روبنسون كروسو بنفسه بعض الوقت العصيب عندما يؤسر كعبد. وحتى أغنية جيمس طومسون الشهيرة «احكمي يا بريطانيا» Rule Britannia التي جنت شعبية كبيرة عام ١٧٤٠م، بلازمتها عن البريطانيين وأنهم لن يكونوا عبيدًا «أبدًا، أبدًا، أبدًا»، كان الرعب من البربر حاضرًا في الأذهان عندما جرى تأليفها.

لقد كانت السياسة العامة للسلطات الأوروبية هي عقد السلام مع حكام الجزائر والمغرب وطرابلس وتونس، كلٍّ على حِدة، (وكان ضمن سياسة بعضهم أيضًا الحصول على عبيد مسلمين كلما توفرت الفرصة لذلك، بالإضافة إلى إضفاء بعض التنويع على العمل عن طريق شنّ حملة تأديبية من حين لآخر.) إلا أنه مع قيام الثورة الأمريكية، صار نظام الحكم في أغلب العواصم الأوروبية يدفع جزية محددة لقوات «البربر» — التي سُميت بهذا الاسم بسبب سكانها الأصليين من البربر من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب سهولة نطق الكلمة وتناغمها مع اللكنة البربرية غير الفصيحة — في مقابل إما افتداء أسراهم واسترجاعهم أو الحصول على حصانة أكبر ضد السرقة والخطف. وقد اعتُبرت

تلك الجزية جزءًا من كلفة الأعمال التجارية، وكانت مفيدة أيضًا، عن طريق عقد صفقات سرية مع أمير أو سلطان ما، في استبعاد دولة منافسة أو أخرى.

وبالكاد استطاعت الولايات المتحدة التعامل مع هذا الموقف باتزان وحكمة؛ فهي لم تكن تملك القوات البحرية التي تستطيع أن تعتمد عليها في حماية سفنها التجارية أو التهديد بالثأر. الواقع أن تجارتها تدهورت نتيجة لفقدانها تلك الحماية التي كانت الإمبراطورية البريطانية توفرها لها. علاوةً على ذلك، لم يكن الحاقدون في لندن فوق مستوى الشبهات في تشجيعهم لأفارقة الشمال على إصابة السفن الأمريكية، ومن ثَم، تلقين المستعمرين المنسحبين درسًا.

وفي المدة التي عمل فيها كلٌّ من جيفرسون وجون آدمز مندوبين للولايات المتحدة في باريس ولندن، على التوالي، تكوّن لدى جيفرسون شعور بالنفور الشديد مما آلت إليه الأحداث. وفي عام ١٧٨٤م، استولت سفينة قرصنة مغربية على السفينة الأمريكية بيتسي، التي يتألف طاقمها من عشرة أفراد، أثناء إبحارها محملةً بشحنة من الملح من كاديز Cádiz، جنوبيّ إسبانيا، إلى فيلادلفيا. وبعدها بمدة قصيرة، استولت السفن الجزائرية على السفينتين دوفن وماريا في المحيط الأطلنطي. وقد أصدر وزير الخارجية جون جاي، من مكتبه في نيويورك، تعليماته لمندوبيه الأمريكيين باتباع النموذج الأوروبي في عقد معاهدات مع المختطفين. وكان مُصرحًا لهما باقتراض مبالغ مالية كبيرة من البنوك الهولندية لدفع الجزية.

وسعيًا وراء إيضاح الموقف، دعا آدمز جيفرسون إلى لندن لعقد اجتماع خاص مع سفير طرابلس. وفي تلك المناسبة، ذكر السفير عبد الرحمن مبالغ شديدة الارتفاع لافتداء الرهائن، ولبنود «السلام المؤقت» الزهيدة الثمن، وبنود «السلام الدائم» الأعلى سعرًا، دون أن يغفل عن إضافة عمولته الشخصية عن المفاوضات. ولأن الولايات المتحدة لم تسئ إلى السلطات الإسلامية بأية صورة — فهي لم تشترك مثلًا في الحملات الصليبية، ولا في غزو المملكة الإسبانية للأندلس مرة أخرى — فقد أراد آدمز وجيفرسون أن يعرفا بأي حق تُنتزع من وطنهم تلك الجباية. والإجابة، كما كتبها جيفرسون، لجون وللكونجرس، في ٢٨ مارس عام ١٧٨٦م فيما بعد، هي كالآتي:

«لقد أجابنا السفير قائلًا إنها قائمة على القوانين الخاصة برسولهم، وأنها مذكورة في القرآن، وأن أي شعب لا يخضع لسلطانهم يكون أفراده آثمين، بحيث يصير من حقهم وواجبهم شنّ الحرب على تلك الشعوب أينما وجدت، وأن يستعبدوا كل من يقع في أسرهم.»

من العسير أن نتخيل مُلخصًا أفضل من ذلك لكل ما يكرهه جيفرسون، سواء في النظام الملكي أو الدين، إلا أنه لم يسهب في تلك النقطة، مفضلًا أن يوصي الإدارة بأن ترفض دفع أية جزية، وأن تستعد فورًا لتجهيز أسطول بحري أمريكي لزيارة البحر المتوسط. وعلى المدى الأبعد، كتب جيفرسون أن هناك حاجة لعمل اتفاق قوات دولي، يضم كافة الدول التي تتعرض حمولات سفنها لغارات السلب والنهب؛ «فالعدل والشرف يؤيدان هذا التصرف»، واستطرد جيفرسون، دون أن يغفل عن الإشارة إلى أن ذلك سيوفر المال أيضًا في النهاية.

غير أن جون آدمز اختلف مع هذا الرأي تمامًا. فصحيح أنه كان يوافق على أن «الجشع والخوف هما العميلان الوحيدان في الجزائر»، وأنها «ستكون فرصة مناسبة للبدء في تأسيس أسطول بحري»، إلا أنه كان على يقين من أن الكونجرس لن يخصص أبدًا أموالًا من أجل حملة تأديبية، خاصةً وأن الولايات المتحدة لا تملك أي أسطول في الوقت الحالي لتتحدث بشأنه، «وبناءً على الفرضيات السابقة، فإنني أخلُص إلى أنه من الحكمة أن نتفاوض وأن ندفع المبلغ المطلوب دون أن نضيع الوقت. أما قوات القرصنة الإسلامية، فينبغي أن نمتنع تمامًا عن محاربتها، إلا إذا كنا ننوي محاربتها إلى الأبد.» وفي رأيي أن نظرة جيفرسون لآدمز بدأت تتراجع منذ تلك اللحظة، ولكن بصفته الأقل رتبة، فقد أذعن جيفرسون رسميًّا للحكمة الواضحة لتلك السياسة.

ولكن على الصعيد الشخصي، كان جيفرسون قد سبق وقرر قبل وقت طويل أن القراصنة البربر لا يجب الاستهانة بهم أبدًا. وفي الفقرة الخاصة بتجارة العبيد، التي حُذفت من المسودة الأولى التي كتبها لإعلان الاستقلال، أشار جيفرسون، في انتقاد لاذع، إلى الطريقة التي تورط بها «ملك بريطانيا

العظمى المسيحي» في «حرب القرصنة، والسلوك المخزي لسلطاته الكافرة.» ويبدو هذا من وجهة نظري تلميحًا واضحًا إلى الممارسات البربرية. ففي نوفمبر عام ١٧٨٤م، وقبل اجتماعه بعبد الرحمن بوقت طويل، كتب لجيمس ماديسون قائلًا: «علينا أن نبدأ في تأسيس قوة بحرية، إذا كنا نرغب في تولي أمر تجارتنا بأنفسنا. فهل يسعنا البدء فيها في مناسبة أعظم من هذه أو في وجود خصم أضعف من هذا؟ إنني أوافق جون بول جونز الرأي في أننا نستطيع بست بوارج حربية فقط تدمير تجارتهم كليًّا.» ولاحقًا، عندما كان في باريس، بدأت أواصر الصداقة تربط بينه وبين جون بول جونز؛ البطل البحري للثورة الأمريكية الذي غالبًا ما يوصف بمؤسس القوات البحرية للولايات المتحدة. ويبدو أن تلك العلاقة بدأت مع قيام جيفرسون بدور الرسول بين جونز وعشيقته آنذاك؛ مدام تاونسند، وهي أرملة رجل إنجليزي ويقال إنها الابنة غير الشرعية للملك لويس الخامس عشر. ونحن نعرف هويتها فقط من أوراق جيفرسون، فيبدو أنه أدى دوره في الوساطة بينهما بشيء من المهارة (وهو دليل آخر على اهتمامه بالمسائل الجنسية)، غير أنه لم يكن على استعداد لمساعدتها عندما التمست سلفة. وفي أواخر عام ١٧٨٧م، قدم جيفرسون عرضًا مختلفًا تمامًا لجونز؛ فعن طريق بعض القنوات الدبلوماسية، نمى إلى علمه أن الإمبراطورة «العظيمة» كاثرين، إمبراطورة روسيا، ترغب في تعيين البطل البحري قائدًا للأسطول، لهدف محدد هو إخراج الأتراك من البحر الأسود.

وكان جونز في ذلك الوقت في أسوأ حالاته، سواء على المستوى المادي أو العاطفي، ووجد في نفسه ميلًا لقبول الوظيفة، ولكن لمَ عرضها عليه جيفرسون من الأساس؟ يفترض كاتب سيرة حياة جونز أن جيفرسون أراد أن يبقي جونز في مجال العمل، بحيث يكتسب خبرات جديدة في مجال المعارك الحربية، إلى حين أن تتمكن أمريكا من إنشاء أسطولها الخاص. وأعتقد أن جيفرسون كان مهتمًّا أيضًا بعدو جونز المستقبلي المحتمل. فقد كانت ثلاث دول بربرية، من أصل أربع دول — هي الجزائر، وطرابلس، وتونس — تُعد جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. أما بريطانيا،

وهي قوة بروتستانتية، فكانت تملك ثلاث قواعد بحرية على حافة أوروبا الكاثوليكية، في جبل طارق ومايوركا ومالطا. وقد استخدمت بعض العمليات التبادلية مع تركيا والدول البربرية لتساعد على موازنة قواها البحرية. فلماذا إذن لا تسعى أمريكا، بدورها، لمساعدة روسيا سرًّا لتجعل حياة الأتراك جحيمًا؟

وانطلق جونز في طريقه إلى سانت بيترسبيرج في مايو عام ١٧٨٨م، مُبقيًا جيفرسون على اطلاع بالأحداث عن طريق المراسلة. والتقى بالإمبراطورة كاثرين، حيث قدم لها نسخة من دستور الولايات المتحدة الذي أُعلن أخيرًا. وقد كانت السنوات التي قضاها في روسيا شاقة للغاية، حيث تورط في المكائد الفاسدة في بلاط الإمبراطورة، غير أنه أدى بعض المهام الخطيرة في البحر الأسود ونجح في تسديد بعض الضربات المُحكمة للبحرية التركية. وقد اقترح، بمبادرة شخصية منه على ما يبدو، عقد تحالف بين الولايات المتحدة وروسيا ضد قراصنة البحر المتوسط. ودعا إلى «ضرب المصدر» وقيادة سرب بحري روسي في البحر المتوسط لمهاجمة السفن العثمانية فيما بين القسطنطينية ومصر. ونتيجةً لهذا، وما مارسه الملحدون من تجاوزات أخرى، أهدر الداي (الحاكم) الجزائري دمه.

أخيرًا، وبعد أن نال منه خصومه في روسيا، وصار مغضوبًا عليه من الإمبراطورة، وازدادت معاناته من التهاب الكُلى والصفراء، عاد جونز مرة أخرى إلى باريس ومات ميتة حقيرة، وحيدًا في يوليو/تموز عام ١٧٩٢م. وفي هذا الوقت، كان جيفرسون قد استُبدل كمفوض في باريس بجوفرنير موريس Gouverneur Morris، الذي كان منزعجًا ومتأففًا من اضطراره للتصرف في متعلقات جونز الخاصة، تمامًا كما كان عندما اضطر للتعامل مع السجين توماس بين. وقد وصل طرد من وزارة الخارجية باسم جونز بعد وفاته مباشرةً، يحمل دعوة من جيفرسون؛ لقد أراد من جونز أن يرأس وفدًا إلى الجزائر، مهددًا الداي بالعواقب الوخيمة التي ستترتب على استمراره في سياسة الابتزاز التي يمارسها، وكان قد أقنع جورج واشنطن بتوقيع تفويض لجونز بهذا المعنى.

وفي عام ١٧٩٣م، تقاعد جيفرسون من منصب وزير الخارجية. ولكن قضية البربر كانت حينئذٍ قد استغرقت عمرًا بأكمله. وصار المأزق المُحزن للرهائن الأمريكيين في سجون شمال أفريقيا — وهو موضوع العديد من خطابات جونز لجيفرسون — من القضايا الخطيرة في الولايات المتحدة. فالأمر لم يقتصر على معاملتهم بقسوة مخيفة، وإنما كانوا أيضًا مهددين بإجبارهم على اعتناق الإسلام، وعلى ممارسات جنسية — كما أُشيع — تشمئز الأنفس من وصفها. وقد تسببت الخطابات المثيرة للشفقة التي أرسلوها من سجنهم في إثارة الرأي العام بشدة، انتهت إلى إجبار الكونجرس، في عام ١٧٩٤م، بتكليف ست بوارج قتالية بمهمة على سواحل البربر. ومن بين البوارج الست، كانت ثلاث بوارج قد شُيِّدَت بالفعل — وهي يونيتد ستاتس وكونستيتيوشن وكونستيلاشن. لقد بدأت أمريكا في تأسيس أسطولها الدائم، مع أنه، من أوجه المفارقة التاريخية والتعارض الصارخ، كون أتباع جيفرسون الجمهوريين هم أكثر من اعترض على التكاليف التي يتطلبها إنشاء مثل هذه القوة، بالإضافة إلى انتهاكها الضمني للحظر المقدس على الجيوش النظامية. ولكن كما حدث من قبل، فقد كان جيفرسون نفسه بمعزل عن الاشتباكات السياسية الدائرة، لقد كان «متقاعدًا» في مونتيتشيللو، منشغلًا بتوسيع مكتبته. وبتوصيل رسالته للكونجرس عام ١٧٩٠م، التي حملت عنوان «اقتراح باستخدام القوة ضد الدول البربرية»؛ يكون جيفرسون قد حدد الغاية، تاركًا للآخرين اختيار الوسيلة. وفي غيابه، نالت قضيته المفضلة ما تستحقه من اهتمام المجموعة. فقد أفادت من حدوث زيادة في العائدات الفيدرالية (بما فيها تلك التي ارتفعت بفضل ضريبة الويسكي التي هوجمت بشدة)، وأفادت من العداء الفيدرالي لفرنسا أثناء وجود حالة «شبه الحرب» مع سفن القرصنة الفرنسية. ومن ثَم، فعندما نهض جيمس ماديسون معترضًا على الاعتماد المالي الضخم الجديد الذي خُصص للقوات البحرية عام ١٧٩٤م، استطاع القائد الروحي للحزب الجمهوري، من ملاذه الآمن في فيرجينيا، التزام الصمت المطبق. وعندما تفجرت قضية العملاء «إكس واي زد» بعد ذلك بأربع سنوات، مثيرة دعاوى جديدة لإعادة التسليح، ولرفض «الجزية»، استطاع جيفرسون، نائب الرئيس، أن

يتصرف كما فعل مع إخفاق جينيت، حيث وازن بين الغضب العارم من فرنسا والاستياء المستمر من تدخل بريطانيا الخفي في البحر المتوسط. ومع توليه لمنصب الرئيس، لم يصبح مسئولًا عن أسطول بحري جديد فحسب، وإنما أيضًا عن فرق الولايات المتحدة البحرية Marine Corps، التي أحسن إنشاءها جون آدمز في يوليو/تموز عام ١٧٨٩م.

وكان جيفرسون قد عقد العزم منذ وقت طويل على معاملة قوات البربر بعنف وقسوة — لدرجة أنه اقترح أسر بعض بحارتهم على سبيل الثأر وبيعهم في سوق النخاسة الكبير ذي الإدارة المسيحية في مالطا — إلا أن الفرصة صارت مواتية تمامًا لتكشف تلك القسوة عن نفسها بسبب غباء وجشع الباشاوات. فيوسف قرمانلي، حاكم طرابلس، كان من التهور بحيث وجه إنذارًا نهائيًّا للولايات المتحدة في أواخر عام ١٨٠٠م، مهددًا بالحرب في حالة عدم الانصياع لشروطه التي تجاوزت كل الحدود. الواقع أن الرئيس جيفرسون قرر في هدوء شديد أن يعتبر هذا الإعلان المُستتر للحرب بمنزلة حقيقة واقعة. فضمن موافقة مجلس وزرائه على إرسال أسطول بحري، وعزم ألا يزعج الكونجرس بهذا الأمر. وعلى أية حال، فقد كان أعضاء الكونجرس خارج الصورة، ومما لا شك فيه أن الرئيس يملك في أوقات الحروب سلطة التصرف بنفسه؛ ومن ثَم، فبعد ثلاثة أشهر فقط من توليه لمنصبه، كان الأسطول البحري في طريقه للبحار العليا، ولم يُعلم جيفرسون الكونجرس بذلك إلا بعد أن أبحرت السفن الحربية لمسافة أبعد من أن يمكن استدعاؤها. وفي السنوات الأربع التالية، صار ساحل البربر بالفعل في حالة «سلمية» بفعل الحملة العسكرية الأمريكية، التي وصفها الرئيس بإيجاز على أنها «رحلة بحرية» مستمرة. وفي ظل القصف بالقنابل، أو التهديد به، توقفت كلٌّ من الجزائر والمغرب وتونس تدريجيًّا عن التعاون مع الباشا في طرابلس. غير أن يوسف استمر في عناده، لدرجة أنه تجرأ على أسر السفينة الأمريكية فيلادلفيا واقتحامها عام ١٨٠٣م.

عندما شرع هنري آدمز في كتابة دراسته الرائعة عن حكومة جيفرسون، كان قد نضج بما يكفي، كما كان يومًا يافعًا بما يكفي، للإشادة بأسماء

الأبطال الأمريكيين الذين كانت أعمالهم البطولية هي محور قراءاته في صباه. وهناك حدثان، على وجه الخصوص، بلغ نصر الجيوش الأمريكية فيهما الذروة، ولا يزالان في الذاكرة: ففي فبراير/شباط عام ١٨٠٤م، أبحر الكابتن ستيفن ديكاتر "Stephen Decatur" مباشرةً إلى ميناء طرابلس. وأُشعلت النار عمدًا في السفينة الأسيرة فيلادلفيا بدلًا من تركها بين أيدي البربر. وعاد ديكاتر في ذلك الشهر أغسطس/آب، بعد قصف المدينة الحصينة، واقتحام أسطول الباشا نفسه وهو في مرساه، وإنقاذ طاقم السفينة فيلادلفيا من سجنهم الرهيب. ووفقًا للأسطورة، وأقاويل بعض شهود العيان، قام ديكاتر بذبح المحارب المسلم الذي سبق أن قتل أخاه؛ الملازم جيمس ديكاتر. وفي العام التالي، وتحديدًا في أبريل/نيسان عام ١٨٠٥م، قاد الكابتن اليافع ويليام إيتون "William Eaton"، قوة مختلطة من العرب والمُرتزقة وجنود المارينز الأمريكيين في مسيرة صحراوية من داخل البلاد، حيث نجحت القوة في الاستيلاء على ديرنا "Derna"؛ ثاني مدن طرابلس (التي تُسمى اليوم ليبيا). ورفع الملازم بريسلي أوبانون "Presley O'Bannon" العلم الأمريكي على أرض المدينة المهزومة، وكانت المرة الأولى التي يُغرس فيها العلم الأمريكي في أرض المعركة وعلى ساحل دولة أجنبية. وبقيت تلك اللحظة خالدة في أول المقطع الافتتاحي لنشيد قوات المارينز، الذي يبدأ كالآتي: «من قصور مونتيزوما إلى سواحل طرابلس».

وبما أن تلك الانتصارات حدثت بعد صفقة لويزيانا بوقت قصير، فإن تكاليفها المالية المرتفعة (بالإضافة للطابع «الرئاسي» السري إلى حد ما للحرب) أثارت بعض الانتقادات من جانب الفيدراليين. ولكن في الحقيقة لم يكن هناك مجال للمجادلة في ظل هذا النجاح. وقد استغرق الأمر وقتًا أطول قليلًا حتى وقعت كافة دول البربر معاهدات مع الولايات المتحدة، تشجب كل أعمال القرصنة والخطف. غير أن هناك تصرفًا أخرق غير لائق بدر من المبعوث التونسي في واشنطن سيدي سليمان ميلي ميلي؛ حيث توقع أن ينال بعض الاستمتاع مع فتيات الهوى، على حساب الشعب. (وقد دبّر جيفرسون وماديسون، مبرهنين من جديد على إلمامهما بحقائق الحياة، اعتمادًا ماليًّا غير

رسمي من وزارة الخارجية لتلبية تلك الرغبة غير المتوقعة.) وفي السنوات التالية تطلب الأمر شنّ المزيد من الحملات التأديبية ضد الجزائر، إلا أن سياسة جيفرسون في جوهرها كانت تعني بالانتصار المحض للسلام، وتحرير التجارة من الابتزاز باستعمال قوة الجيوش المنظمة. وتعززت سمعة الولايات المتحدة بصورة ملحوظة، وأثبتت قوات ديكاتر البحرية، التي خَبرت المعارك، نفسها في معارك أكثر شراسة في حرب ١٨١٢م.

شراء لويزيانا

قد يكون من المقبول أن نعزو نجاح جيفرسون في شمال أفريقيا إلى سياسة عامة تقضي باستخدام قوة أمريكا إلى جانب الطغيان، ضد الاسترقاق، ولكن أية مقارنة مع سانتو دومينجو/هاييتي سوف تُضعف هذا الادعاء، إن لم تدمره من أساسه. فالواقع أنه في مراسلات جيفرسون، كان يشير إلى هاييتي التي يحكمها العبيد باعتبارها الصورة المُحتملة لـ«جزائر أخرى في البحار الأمريكية»، وهو أسلوب استهجان قوي، وإن لم يكن بنفس وضوح وصراحة تلميحه إلى «آكلي لحوم البشر في الجمهورية المرعبة».

ولأن جيفرسون لم يكن له رأي فعلي في شئون هاييتي منذ استقالته من منصبه وزيرًا للخارجية عام ١٧٩٣م، فإنه لم يتخل أبدًا عن عدائه لثورة العبيد، وخشيته منها. وقد كانت حكومة آدمز، دون موافقة جيفرسون أو حتى تدخله، راضية إلى حد ما عن فكرة استقلال هاييتي عن فرنسا. وقد عكس هذا كلًّا من إصرار بعض الفيدراليين — على الأقل — من نيو إنجلاند على معاداة الاسترقاق؛ مثل وزير الخارجية تيموثي بيكرينج "Timothy Pickering"، وعداوتهم المريرة لفرنسا. أما سياسة جيفرسون بصفته الرئيس، فقد كانت مختلفة إلى حد ما؛ فقد أيد الجهود الفرنسية لاستعادة السيطرة على هاييتي — مع التلميح بأن هذا سيؤدي إلى عودة الاسترقاق — ليس لبغضه لثورات العبيد فحسب، وإنما لأنه كان يأمل في أن تتوسع التجارة الأمريكية الضخمة مع الجزيرة وبقية دول حوض الكاريبي بهذه الطريقة.

وربما نلاحظ هنا أن جيفرسون لم يكن مخلصًا حتى لمبادئه المزعومة فيما يخص مسألة الاسترقاق واللون. وقد اقترح تحرير العبيد الأمريكيين، ثم ترحيلهم إلى أفريقيا أو جزر الهند الشرقية. وذلك المخطط، الذي يُعرف عمومًا بــ«الاستعمار»، اعتمد على وجود بعض الأقاليم في الجوار التي يحكمها السود بحيث يستطيع العبيد الذهاب إليها، أو يُرْسَلون إليها. ومع ذلك، ففيما يخص حق أهالي هاييتي في تأسيس مثل هذه الولاية، فقد استنكره جيفرسون. وقد لجأ المؤرخ مايكل زوكرمان "Michael Zuckerman"، وهو واحد من أكثر من انتقدوه نقدًا لاذعًا، إلى استعارة من سفر الخروج، تلخص سلوك جيفرسون تجاه العبيد على نحو تقشعر له الأبدان: «فحتى في الوقت الذي كان يتوق فيه إلى التخلص منهم، كان يرفض أن يتركهم ليذهبوا لحالهم.»

إلا أن إنهاء نابليون للثورة الفرنسية سمح لجيفرسون أيضًا بأن يكون أكثر واقعية، كما هو الحال بين فرنسا وإنجلترا، لدرجة أنه اقترح، في أول محادثة له مع المبعوث الفرنسي لويس بيشو "Louis Pichon" في يوليو/تموز عام ١٨٠١م، أن تتصالح الدولتان المتحاربتان وأن تشتركا في إعادة النظام في الكاريبي. ومن المؤكد أنه ترك انطباعًا لدي كلٍّ من نابليون ووزير خارجيته تاليراند، بأن أمريكا ستمنح تأييدها لفرنسا في جميع الأحوال. وقد كان هذا التعهد شديد الأهمية للفرنسيين، وازدادت أهميته أخيرًا. أما في هاييتي نفسها، فقد حدثت واقعة غير مسبوقة؛ فقد برز جنرال ثوري عبقري، ربما يكون أول قائد من العبيد بعد القائد شبه الأسطوري سبارتاكوس، متمثلًا في شخص توسان الفاتح "Toussaint L'Ouverture". وبعد أن جمع العبيد وراءه في جيش هائل، أعلن توسان قيام أول جمهورية يحكمها السود في التاريخ. أما نابليون، الذي لم يكن مهتمًّا على الإطلاق بعقد سلام مع إنجلترا، فكان يأمل في القيام بتصرف حاسم لاستعادة السيطرة الفرنسية على المنطقة الواقعة فيما وراء الأطلسي، وهكذا، يستطيع جمع المزيد من الأموال من أجل الإمبراطورية الأكثر اتساعًا التي كان يخطط لها. وفي أكتوبر/تشرين الأول عام ١٨٠١م، أرسل جيشًا وأسطولًا إلى هاييتي بقيادة الجنرال ليكليرك.

وقد رويت بأسلوب جذاب في التحفة الأدبية الرائعة لسي أل آر جيمس «اليعقوبيون السود» "The Black Jacobins"، قصة هزيمة تلك الحملة العسكرية وتعرضها للإبادة تقريبًا على يد كتيبة من العبيد. الحقيقة أن ما أدى لتدمير الجيش الفرنسي وقواته البحرية هي أفكار الثورة الفرنسية (بالإضافة لانتشار الأمراض، على نحو لا يمكن إنكاره). وفي النهاية، أُسر توسان، ونُقل إلى فرنسا، حيث سُجن في زنزانة باردة كالثلج في جبال البيرينيه الفرنسية، وتُرك ليموت بفعل التجاهل القاسي. ولكن في نفس الوقت، فإن آمال نابليون في تجدد الهيمنة الفرنسية على المنطقة كانت قد ضاعت. ولم تتلق جيوشه وسفنه المدمرة في هاييتي التأييد والتعاطف الأمريكيين اللذين كانت تتوقعهما.

ومع أن الأمريكيين عادةً ما يسهون عن تذكر تلك النقطة، فإن لديهم سببًا وجيهًا ليشعروا بالامتنان تجاه الجهود التي بذلها توسان ومن كان معه من ثوار أبطال. فبدونهم ربما لم تكن الولايات المتحدة لتنجح أبدًا في السيطرة على المسيسيبي والغرب الأوسط. وربما يساورنا الشك في أن جيفرسون كان يتوقع تلك الفرصة، أو أنه على أقل تقدير، لم يفعل شيئًا لتأجيلها. ومن جديد، نجد أمامنا دليلًا على تفرد عقليته الطويل الأمد. وفي عام ١٧٨٦م، عَبّر عن الأمر على النحو الآتي:

> «يجب أن يُنظر إلى اتحادنا باعتباره العُشّ الذي سيفرّخ أفرادًا يعمّرون أمريكا كلها، من شمالها لجنوبها. ويجب أن نراعي ألا نعتبر أنه من مصلحة تلك القارة العظيمة (جنوب أمريكا، بالإضافة إلى البرازخ والجزر) أن نسارع في الضغط على الإسبان؛ فهم أفضل من يتولى أمر تلك الولايات. إنما كل ما أخشاه، أن يكونوا أضعف من أن يسيطروا عليها حتى يزيد تعداد سكاننا بما يكفي للفوز بها منهم، قطعة قطعة. أما حق الملاحة في نهر المسيسيبي، فلا بد أن نحصل عليه، وهذا هو كل ما نحن على استعداد لتلقيه، حتى الآن.»

لقد كان جيفرسون يرى، في عقله، صورة لمستقبل أمريكا ممتدة جنوبًا عَبر فلوريدا حتى كوبا على الأقل، ثم من غرب المسيسيبي وحتى أبعد مدى تستطيع بلوغه. وهذه النتيجة كانت تعتمد على أمرين: الإدارة البارعة للخصومات الواقعة بين إنجلترا وفرنسا وإسبانيا، ومولِد عدد كافٍ من الأفراد لتزويد الجزر الجديدة بالمستوطنين.

وقد كانت القوة الرئيسية الموازية على طول المسيسيبي وفي نيو أورليانز، في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، هي إسبانيا. وكان هذا يناسب جيفرسون بوجه عام، لأن إسبانيا كانت ضعيفة ويمكن التعامل معها بتؤدة، إلا أنها كانت تمثل خطرًا، وهو أن يطلب الأمريكيون المستوطنون الجدد الحماية من إسبانيا، متسببين في تحجيم توسع الاتحاد. وفي سنوات الحرب، تناوبت إسبانيا وفرنسا التحالف والعداء، وفي عام ١٨٠٣م، شعر جيفرسون بالقلق عندما نمى إلى علمه أن بونابرت، عن طريق تحالف جديد، قد استولى على كل ما تملكه إسبانيا في الجنوب الشرقي، بما فيها نيو أورليانز ولويزيانا، إلا أن هذه الخطوة كانت نظرية أكثر منها فعلية؛ فإن الهزيمة الفادحة التي مُنيت بها فرنسا في هاييتي جعلتها في وضع لا يسمح لها لا بتدعيم قواتها ولا باحتلال مصب المسيسيبي بحامياتها. وفي سرعة، استوعب جيفرسون دلالة تلك الفجوة بين النظرية والتطبيق، فأرسل صديقه روبرت ليفينستون "Robert Livingston" إلى باريس ليستعلم عمّا إذا كان من الممكن حث تاليراند ونابليون على بيع نيو أورليانز بالسعر المناسب. وقد بدا تاليراند — وهو أحد المنتفعين في قضية العملاء «إكس واي زد» — في البداية رافضًا. ولكن جيفرسون أرسل جيمس مونرو لتعزيز الوفد، وكتب خطابًا لمفاوضيه طلب منهم أن يسمحوا لتاليراند ونابليون بالاطلاع عليه:

> «هناك موضع واحد متفرد، على وجه البسيطة، يملكه عدونا الطبيعي المعتاد. هذا الموضع هو نيو أورليانز، التي لا بد أن يعبر منها ثلاثة أثمان إنتاج أرضنا في طريقه إلى الأسواق. وبفضل خصوبتها فسوف تنتج قريبًا أكثر من نصف إجمالي إنتاجنا، وستضم أكثر من نصف

سكاننا ... إن اليوم الذي تستولي فيه فرنسا على نيو أورليانز، سيصدر فيه حكم عليها بأن تبقى إلى الأبد حبيسة منسوب مياهها المنخفض. وسيقر نهائيًّا الاتحاد بين دولتين، تستطيعان مجتمعتين فرض سيطرتهما الحصرية على المحيط. (ومنذ تلك اللحظة، سيكون علينا أن نربط أنفسنا بالأسطول والشعب البريطاني).» [القوسان مُضافان.]

وكما حدث في حالة دول البربر، فقد فكر جيفرسون ببساطة في أن الالتزام الأمريكي نفسه جرى التفكير فيه والتدرب عليه لمدة طويلة بما يكفي، وأن الوقت قد حان لاتخاذ قرار قاسٍ. ولا يبدو واضحًا تمامًا ما إذا كان الفرنسيون قد صدقوا بالفعل تهديده بالتحالف مع بريطانيا أم لا، ولكن الأمر المؤكد أن كلًّا من نابليون وتاليراند كانا في حاجة ماسة — ربما لأسباب مختلفة — للحصول فورًا على ذهب، من أجل مواصلة الحرب ضد بريطانيا العظمى وروسيا. وحتى قبل أن يحتل مونرو مكانه على مائدة المفاوضات للمقايضة على العرض الأساسي بدفع عشرة ملايين دولار مقابل نيو أورليانز، رجع الجانب الفرنسي إلى ليفينجستون بعرض جديد؛ خمسة عشر مليون دولار لشراء كل الأراضي الأمريكية التي تعرضها فرنسا للبيع؛ وهي مساحة من الأرض أكبر بكثير من لويزيانا لدرجة أن حجمها الفعلي غير معروف. (فعندما سأل ليفينجستون تاليراند عن مساحة الأرض التي يجري الحديث بشأنها، أجابه بلا مبالاة: «لا يسعني إفادتك في هذا الأمر. لقد عقدتم صفقة عظيمة لأنفسكم، وأتوقع أن تستغلوها على أحسن وجه.» ويا له من انتقام رائع من محاولة الابتزاز الخاصة بالعملاء إكس واي زد.) إن أفضل حسبة يمكن إجراؤها في ذلك الوقت هي أن الولايات المتحدة قد ضاعفت مساحة سيادتها تقريبًا بتكلفة أربعة سنتات للأكر من الأرض، وقد عَبّر هنري آدمز عن هذا بأسلوبه القوي المعتاد، كالآتي:

«إن ضمّ لويزيانا يُعد حدثًا استثنائيًّا بما يتحدى كل المقاييس؛ لقد أعطى السياسة وجهًا جديدًا، واحتل منزلة تاريخية مماثلة لإعلان

الاستقلال واعتماد الدستور ويعتبر الناتج المنطقي لهذين الحدثين، ولكن فيما يتعلق بالدبلوماسية، فهو حدث منقطع النظير؛ فهو لم يُكلف شيئًا تقريبًا.»

الحقيقة أنه ليس مؤكدًا على الإطلاق أن ذلك التفاوض السري الخطير كان بأية حال «الناتج المنطقي» لاعتماد الدستور. وقد واجه جيفرسون تلك المسألة الحرجة بمزيج متميز من التحذلق والمرونة؛ في البداية، قام بقراءة الدستور قراءة متأنية، ولكنه فشل في العثور على أية صياغة تسمح للحكومة الفيدرالية بوضع يدها على أي أراضٍ قومية جديدة، أو بإنفاق الأموال الضرورية لذلك، دون الحصول على تفويض. (ولا بد أنه قد تذكر — شاعرًا بالانزعاج أو بالإحراج — عبارته الصارمة بأن الدستور لا يسمح حتى لألكسندر هاملتون بتأسيس بنك قومي.) وفي مرحلة ما، وصل به الأمر لكتابة مسودة تعديل دستوري يتناسب مع تلك الحالة، حيث قال لسيناتور من فيرجينيا الآتي:

«عندما تسمح وثيقة قانونية ما بتفسيرها على وجهين؛ أحدهما آمن والآخر خطير، أحدهما دقيق والآخر مبهم، فإنني أفضل التفسير الآمن الدقيق. لقد كان أحرى بي أن أطالب الدولة بزيادة مساحة السلطة، عند الضرورات، بدلًا من افتراضها عن طريق تفسير قد يجعل سلطاتنا غير محدودة. إن أمننا الخاص في حوزة دستور مكتوب. فدعنا لا نأخذ بالتفسير الذي يجعله مجرد ورقة بيضاء ... فلنكمل مسيرتنا ثم نجعله في أكمل صورة، بأن نضيف إليه، بالتعديلات الدستورية، تلك السلطات التي تنقصه كما أظهر الزمن والتجربة.»

غير أن إشاعتين أثيرتا فأجبرتا جيفرسون على القيام بما لا يرغب به، حيث اضطر فجأةً للتخلي عن مراعاته للدقة فيما يتعلق بالدستور. فقد أُشيع أن نابليون كان يعيد التفكير في مدى حكمة تلك الصفقة التي أبرمها، وصار مفهومًا أن السلطات الإسبانية ربما تناقش الأساس الذي تقوم عليه الصفقة المقترحة، بناءً على أن أحدًا لم يضع حدودًا واضحة للويزيانا. وكان جيفرسون

قد سبق وقرر أنه من الممكن إضافة أراضي فلوريدا التي تملكها إسبانيا إلى حوزته ولكن في الوقت المناسب، ومع أن مدريد سترفض البيع الآن، فإنها «بمجرد أن تصبح في حالة حرب، فسيمكننا أن ندفعهم بيد، ونحمل سعرًا باليد الأخرى، وسوف نحصل على فلوريدا بالتأكيد.» وقد تحققت تلك النبوءة لاحقًا على يد الجنرال أندرو جاكسون "Andrew Jackson"، وعملت في نفس الوقت على ضمان توقيع فرنسا، ومجلس الشيوخ بالولايات المتحدة، على ما جُني في باريس. ومن ثَم، فقد انتقل جيفرسون، دون أن يلتقط أنفاسه تقريبًا، إلى تبني وجهة النظر التي تقول: «كلما قلّ ما يقال عمّا أواجهه من صعوبات دستورية كان ذلك أفضل، وأنه من المفضل أن يقوم الكونجرس بما هو ضروري **في صمت**.»

وقد افترض أنه سيكون هناك تعاطف شعبي هائل مع قفزة بمثل هذه الجرأة رَفَعت من شأن الوطن عاليًا. وتصور أنها ستضع الفيدراليين بشدة على خط المواجهة. وقد كان رأيه صائبًا في الحالتين. وقد تطلب المشروع بما ينطوي عليه من مقاييس حادة وجرأة تأييدًا عامًّا، وقد منحه مجلس الشيوخ أغلبية ساحقة بعد مناقشة شبه روتينية. وبعد توقيع المعاهدة، تحدث روبرت ليفينستون بلسان الأغلبية على الأرجح، حيث قال: «منذ هذا اليوم فصاعدًا، سوف تتخذ الولايات المتحدة مكانهن بين القوى العظمى.» (وقفة لملاحظة تعبير معين: لم يبدأ الأمريكيون في الإشارة إلى الولايات المتحدة بصيغة المفرد «تتخذ مكانها» بدلًا من «تتخذ الولايات مكانهن» حتى ما بعد جيتيسبرج.) وقد علق ألكسندر هاملتون ساخرًا فقال: إن صفقة الشراء يجب أن تنسب إلى «التدخل الرحيم للعناية الإلهية المهيمنة»، واتجهت أغلب الصحف الفيدرالية في نيو إنجلاند على نحو مفاجئ إلى التعليقات الصارمة، وسخرت من الصفقة باعتبارها استبدال للنقود السائلة الثمينة — التي لا تملك الولايات المتحدة منها الكثير — بالأرض، التي تملك منها الكثير بالفعل. وفيما يتعلق بالدستور، كان جون كوينسي آدمز أكثر فصاحة؛ فقد أكد أن الرئيس سوف يتخلص الآن من «محاولة افتراض سُلطة ضمنية أكبر ... من كافة محاولات افتراض السلطة في سنوات حكم واشنطن

وآدمز مجتمعة.» وذلك النقد، كما أدرك جيفرسون في رضا، كان يتسم بالصدق.

واقترح جيفرسون أن يحكم الأقليم الجديد، على الأقل في البداية، حاكم يُعَيَّن و«مجلس أعيان» غير منتخب. وفي خطاباته، أشار إلى أتباعه بنفس الألفاظ بالضبط التي كان الولاة في العهود الإمبراطورية يستخدمونها دائمًا — بمعنى أنه كان يصفهم على أنهم «أطفاله» الذين يحتاجون للتوجيه حتى يصلوا لمرحلة النضج. (وفي لحظة ربما تنم عن سوء نواياه في تلك النقطة، طلب من الماركيز دو لافاييت، الذي كان على الأقل مُصلحًا فرنسيًّا ذا توجهات ديمقراطية، أن يتولى مهمة حكم لويزيانا.)

وقد بدت القضايا الإدارية والدستورية أقل أهمية عند مقارنتها بالقضية الحرجة التي لاحقت جيفرسون بإصرار في كل خطوة يخطوها في حياته العملية. فبعد أن أمّن نيو أورليانز والمسيسيبي بوسيلة مجردة من العواطف هي خيانة الثورة في هاييتي بالإضافة إلى خداع فرنسا، كان عليه أن يجيب على السؤال الآتي: هل ستنكسر حدة إثم الاسترقاق الرهيب بفعل ذلك المكسب الضخم، أو هل ستقل حدته على الأقل؟

ولا يعد ذلك السؤال واحدًا من الأسئلة المتعلقة بقضية الاسترقاق، الذي لا يُطرح إلا بالنظر إلى الأحداث الماضية، أو لا تطرحه سوى الأجيال التي يسهل أن تشعر بالصدمة. لقد كان واضحًا تمامًا في ذلك الوقت، كما كان مطروحًا للنقاش المحتدم. أما توماس بين — الذي كان يلح على جيفرسون في تنفيذ فكرة شراء لويزيانا دون أن يعرف أن جيفرسون كان بالفعل يعمل على ذلك — فقد رجاه أن يبقي الاسترقاق بعيدًا عن الأراضي الجديدة وأن يسمح للمهاجرين الألمان بالاستقرار فيها بدلًا من العبيد السود. وتقدم جيمس هيلهاوس "James Hillhouse" من كونيكتيكت، عضو الكونجرس الفيدرالي، باقتراح تعديل لتشريع لويزيانا يحمي الإقليم من تلك الممارسة، وقد أيّده بحرارة جويل بارلو "Joel Barlow"، الذي كان، مثل بين، أحد أصدقاء جيفرسون المقربين. وقد كانت القضية نظريًّا، وأخلاقيًّا وقانونيًّا أيضًا، لا تختلف عن منع أي استمرار للاسترقاق في ولايات أخرى؛ الأمر الذي

اقترحه جيفرسون بنفسه في مرسوم نورثويست عام ١٧٨٧م، إلا أن الاهتمام بالسُّكَّر انتشر عام ١٨٠٤م، كما سيسود الاهتمام بالقطن لاحقًا. وقد زعم بين، أن لويزيانا ربما تنتج المزيد من السكر على المدى البعيد إذا استوطنها رجال الصناعة الألمان، ولكنها ستنتج سكرًا أقل في الوقت الراهن إذا قُضِيَ على الاسترقاق، وفي الوقت نفسه، سوف يستغل المنتجون المنافسون في جزر الهند الشرقية الفرصة. ومن ثَم، فإن أقصى ما استطاع الرئيس تقديمه هو حظر شراء العبيد المستوردين، كخطوة في طريق إلغاء تجارة العبيد الأجانب نفسها، كما حدث في يناير/كانون الثاني ١٨٠٨م.

وقد أدى رفض جيفرسون الحاسم والمتعمد لتوسيع نطاق الإلغاء إلى الإقرار بلويزيانا نفسها باعتبارها ولاية عبيد، والإقرار الذي تبعه بالولايات التي تكوّنت من الأراضي الأوسع التي اشتُريت، حتى إنه مع حلول عام ١٨١٩م، صارت هناك اثنتان وعشرون ولاية في الاتحاد؛ منها إحدى عشرة ولاية تضم عبيدًا، والإحدى عشرة ولاية الأخرى لا تضم العبيد، وهو النقيض التام مع مقولة «نصفه من الأحرار، ونصفه من العبيد» التي ستزعج لنكولن لاحقًا. وستكون ميسوري — الولاية التالية المكوّنة من أراضي لويزيانا — هي التي ستقلب الموازين.

رحلة لويس وكلارك الاستكشافية

لأنه من المستبعد أن جيفرسون لم يكن على دراية بأن حسن تصرفه في موضوع لويزيانا جعله يتنازل تمامًا عن ثلاثة من مبادئه القديرة — وهي إلغاء الاسترقاق، وأسلوب الجمهوريين في التباهي بالديمقراطية، واستقامة ونزاهة الاتحاد — فمن العدل أن نسأل ما الذي يمكن أن يكون قد دفعه إلى القيام بتلك المخاطرة؟ الإجابة بسيطة نسبيًّا؛ لقد كان يعرف ما لم يعرفه خصومه الفيدراليون ولا حلفاؤه الجمهوريون. لقد ظل لعدة سنوات يفكر في إرسال رحلة استكشافية للغرب ويُعد لها. ومن المؤكد أنه شعر برضا هائل، في ذلك اليوم من أيام يوليو/تموز عام ١٨٠٣م الذي أرسل فيه لويس

وكلارك، عندما استطاع أن يقول لهما إن الزعماء الهنود الذين سيلتقون بهم الآن يدينون بالولاء لدولة جديدة. لقد صارت «الأراضي غير المدوّنة على الخريطة» بالفعل، وإلى حدٍ لم يتوقعه أحد، جزءًا من الولايات المتحدة.

ومن جديد، كانت البذرة التي نمت منها الفكرة موجودة بالفعل في أثناء إقامة جيفرسون الدبلوماسية في باريس، إن لم تكن في الواقع وُجدت قبل هذا بقليل. ففي عام ١٧٨٣م، كان قد طلب من الجنرال جورج رودجرز كلارك "George Rodgers Clark"، وهو من أبطال الحروب على الحدود، أن يذهب لاستكشاف الغرب، ولكن الجنرال لم يلب الطلب. وبعدها بسنتين، في المدة التي خدم فيها في باريس، عرف جيفرسون أن الملك لويس كان يجهز رحلة استكشافية لشمال غرب المحيط الهادي بقيادة الكونت لا بيروس "Comte La Perouse". ومع المزاعم الفرنسية الرسمية بأن المحاولة ذات طابع علمي محض، فإن جيفرسون وجون بول جونز استنتجا أن باريس تسعى لإنشاء مستعمرات على الساحل الأبعد لقارة أمريكا الشمالية. وفي العام التالي، أجرى جيفرسون بعض المفاوضات مع مغامر غريب الأطوار يُدعى جون ليديارد "John Ledyard"، سبق له الإبحار مع الكابتن جيمس كوك "James Cook"، وصار أول أمريكي يزور منطقة شمال غرب المحيط الهادي. وقد وضع ليديارد خطة خيالية، حيث يسافر عَبْر روسيا الأوروبية، ثم يعبر سيبيريا، ثم يجتاز مضيق بيرينج "Bering Strait"، ثم يسير عَبْر القارة حتى الساحل الشرقي ويعد تقريره. وقد شجعه جيفرسون على تنفيذ الفكرة التي لم تتحقق فعليًّا كما تحقق ترحيل جونز إلى روسيا. (وقد اعتقلت الإمبراطورة كاثرين ليديارد ونفته بمجرد أن وصل لسيبيريا.)

ولكن الرحلة الاستكشافية التي قادها الكونت لابيروس لم ترجع أبدًا — وقد عُثر على حطام السفينة بعدها بعقود على إحدى جُزر المحيط الهادي — ومن ثَمّ، فقد ظلت قضية الأراضي الداخلية والغرب عالقة حتى الوقت الذي صار فيه جيفرسون وزيرًا للخارجية. وفي عام ١٧٩٢م، تلقى عرضًا من عالم الطبيعة الفرنسي أندريه ميشو "André Michaux" باستكشاف منابع ومصبات نظام الأنهار الأمريكي. غير أن ميشو، بدوره، تبين أنه ليس مجرد عالم

طبيعة فحسب، وإنما عميل أيضًا؛ فارتباطه بالمصالح الفرنسية والجاسوسية الفرنسية أيضًا عجّل بنهاية الرحلة الاستكشافية قبل الأوان.

أما نظير المبادرة الفرنسية (والحاجة لإيجاد ما يحل محلها)، فإنما يوحي بشيء؛ فعندما اعتزم نابليون بونابرت محاولته الشهيرة لاحتلال مصر مع نهاية القرن التاسع عشر، قام باستدعاء كافة أنماط المؤرخين، ورسامي الخرائط، وعلماء النباتات، وعلماء اللغويات، وعلماء الأنثربولوجيا، والمهندسين المعماريين ليمهدوا له الطريق، ويساعدوا على توسيع نطاق سيادته. ويؤرخ معظم الباحثين ظهور مفهوم الاستشراق الأوروبي في وقت ذلك المشروع المعرفي العظيم، والإمبراطوري أيضًا. لقد أدرك جيفرسون أن الأمريكيين لن يواجهوا أية جيوش ضخمة أو مدن عتيقة عندما تحركوا باتجاه الغرب، ولكنه كان مهتمًّا أيضًا بتحويل تلك الرحلة الاستكشافية إلى مشروع للتعلم، وكذلك لوضع الخرائط للمنطقة، والاستيلاء عليها. وأراد أيضًا إيجاد سوق داخلية لمعادلة الاعتماد على المحيط الأطلنطي والقوى المتقلبة التي لا تزال تسيطر عليه إلى حد ما، ويمكن أن نُطلق على خطته مصطلح «الاستغراب».

وكانت هناك قضية تشغل ذهنه بصورة غير مباشرة، هي القضية التي لم يكن هناك مفر منها والخاصة باقتصاد التبغ والعبيد الذي اعتمدت عليه مكانته، والذي كان يعتبره — دون أن يعي ذلك تمامًا — مقدرًا سلفًا. لقد كان اقتصاد المستعمرة غنيًّا بالأرض ولكن يفتقر للمال — وقد كان هاملتون محقًّا في كل تفاصيل هذه النقطة — وعلاوة على ذلك، فقد كانت تعج بالأيدي العاملة، ولكنها في أمس الحاجة لرأس المال. وقد كان نظام «التبغ الصغير» غير موفر زراعيًّا وغير منظم أيضًا، حيث يستنزف خصوبة التربة سعيًا للحصول على محصول قصير الأجل. أما النظام الطويل الأجل الذي يضم نظام الدورات الزراعية، وإجادة استغلال التربة، فكان سيؤدي للحصول على كمية أقل من العوائد القصيرة الأجل. وقد حاول جيفرسون مواجهة هذا المأزق إلى حد ما في «ملاحظاته حول ولاية فيرجينيا»، حيث كتب، مسلّمًا — على نحو نادر الحدوث — بالتفوق الأوروبي، أن تدني مستوى

الزراعة الأمريكية نتج عن «امتلاكنا لهذه المساحة الهائلة من الأرض التي يسعنا أن نهدرها كيفما نشاء. أما في أوروبا، فهدفهم هو استغلال الأرض على أحسن وجه ممكن، مع وفرة العمالة لديهم. أما في حالتنا، فالهدف هو استغلال عمالتنا على أحسن وجه ممكن، مع وفرة الأرض.»

مثل عددٍ من الذين لم يتخذوا موقفًا أخلاقيًّا حاسمًا من قضية العبودية؛ فإنها تتكرر بصورة يومية في المحافل السياسية، برر جيفرسون (الذي كان يُشْبِه منزلَه مونتيتشيللو: غني بالأرض، فقير للمال) موقفه لنفسه بالاعتقاد بأن الجيل الأصغر سوف يطهر تلك الوصمة الموروثة، وأن توسع أمريكا سوف «يبدد» نظام الاسترقاق حتى يتقلص وينقرض تمامًا من تلقاء نفسه. وهذا الاتحاد بين المثالية والتهكمية تجده بين طيات قصة لويس وكلارك. وقد أشار ستيفن أمبروز Stephen Ambrose بقسوة إلى أن جيفرسون عندما التقى فعليًّا بشباب فيرجينيا وكنتاكي، مثل ميريويذر لويس ووليام كلارك (الأخ الأصغر للجنرال جورج رودجرز كلارك) ودَرَّبهم، لم يسع بأية وسيلة لإقناعهم بمزايا عتق العبيد.

وعلى أية حال، فقد احتلت مهمة الاستكشاف الأولوية، وقد كانت شروط صفقة شراء لويزيانا مبهمة بالتأكيد، لأن أحدًا لم يعلم إلى أي مدى شمالًا تمتد بالفعل حدود ميسوري المفترضة. وقد منح هذا جيفرسون نوعًا من الصلاحية المطلقة. ولكن كما كان الحال مع صفقة الشراء ذاتها، لم يشعر جيفرسون بالقدرة على الكشف عن طموحاته مقدمًا للكونجرس. فسوف يتطلب الأمر اعتمادات مالية، ولكن الحصول عليها لن يكون متاحًا بسهولة إذا طُلبت بغرض «رحلة دراسة نباتات» أخرى. وقد كانت الكذبة النبيلة التي أخبرها الرئيس للفرع التشريعي من جديد قائمة على ميزة اكتسبها من خسارته لمنافسة سابقة مع هاملتون؛ فالدستور يسمح بالفعل بتمويل رحلة استكشافية مخصصة لتوسيع التجارة. وبالنظر إلى التجارة الرائجة للفراء في المناطق الداخلية، لم يكن عسيرًا على الرئيس أن يستحوذ على اهتمام الكثير من أعضاء الكونجرس. ولأنه كان على الأرجح واثقًا من ذلك مقدمًا، فقد مزج بعض الحقيقة بالخداع، وصرح قائلًا: «إن المصالح التجارية تضع

الهدف الرئيسي ضمن السلطات الدستورية، وفي عناية الكونجرس، وإذا حدث وتقدمت عَرَضًا على المعرفة الجغرافية الخاصة بقارتنا، فلا يسعنا إلا أن نعتبر هذا أمرًا إضافيًّا ومرضيًا.» وبهذا الأسلوب المتملق، استطاع أن ينتزع من الكونجرس مجموع ألفين وخمسمائة دولار من أجل أهم وأخطر رحلة استكشافية في التاريخ الحديث.

وفي عام ١٩٤٠م، وهي أول سنة يقضيها دبليو إتش أودن W. H. Auden كاملةً منفيًّا في الولايات المتحدة، قام أودن بكتابة قصيدة طويلة رائعة، أطلق عليها «خطاب العام الجديد». وقد احتفي فيها بضخامة مساحة الولايات المتحدة وما بها من حرية مقارنة بالبؤس والحقارة في أوروبا القديمة. فقد كتب عن الحضارة الأمريكية باعتبارها الحضارة التي لم تقدس يومًا امرأة بقدر ما قدست العلم، ولم تعترف يومًا بمجمع «نيقية» الكَنَسي الذي سعى لتوحيد الطوائف المسيحية، ولا برحلة كانوسا التي قام بها هنري الرابع وما تعرض له من إذلال، لقد اعتبرها بمنزلة روما العظمى، لكل من فقد موطنه أو كرهه.

والأبيات التي وردت بالألمانية، التي تقول: إن أمريكا «لا بها قلاع محطمة، ولا أعمدة رخامية» مأخوذة من قصيدة لجوته Goethe يقول مطلعها: (أمريكا، كل ما بكِ أفضل.) ومن الواضح أيضًا أن أودن كان يقرأ لهنري آدمز، الذي كتب باستفاضة عن التوتر بين قوة المرأة وقوة العلم (مشيرًا للمرأة بالعذراء Virgin وتقدم العلم بالدينامو Dynamo) في مقالاته عن أوروبا وأمريكا.

إن المفهوم الذي شاع حول أمريكا باعتبارها جنة عدن الجديدة، أو الأرض البكر بما فيها من أصناف جديدة من النباتات والحيوانات في انتظار من يكتشفها، كان مقيدًا إلى حد ما لأنه من المعروف أن الجنس البشري كان موجودًا بالفعل. وفيما يتعلق بالكثير من المستوطنين البيض الزاحفين إليها أو الغاصبين، لم تكن تلك المشكلة تمثل أكثر من مجرد مشكلة مؤذية. وأما معظم السكان الأصليين الذين لم يملكوا أية وسيلة لمعرفة حجم الإنتاج والابتكارات التي بدأ محرك الدينامو في تحريكها على الساحل الشرقي الذي

لم يروه يومًا، فإن وصول المتطفلين البيض لم يتعد كونه مجرد معركة قبلية جديدة يمكن حسمها بالأساليب التقليدية.

وعلى ذكر تلك الأساليب، نعود إلى ما كتبه جيفرسون عام ١٧٧٦م. ففي الفقرة السابقة مباشرةً للفقرة الشهيرة (والمعروف أنها أُسقطت عمدًا) عن الاسترقاق، اتهم الملك جورج بما يأتي:

> «لقد تسبب في إثارة العصيان المسلح الداخلي فيما بيننا، وسعى لتحسين قدرات المستوطنين على حدودنا؛ أولئك الهنود الهمج المتوحشين، الذين يُعرف عنهم أن قانون الحرب لديهم هو التدمير بلا تمييز لكل الأعمار والأجناس والظروف.»

وفي منشور سابق لهذا، وكما حدث أكثر من مرة، صاغ توماس بِين الفكرة على نحو أفضل:

> «إجبار أولئك الأفراد المُسالمين على الاسترقاق بخطفهم، وحث الملوك على بيع رعيتهم، وهو أمر ليس من حقهم أن يفعلوه على الإطلاق، وإثارة كل قبيلة ضد الأخرى، سعيًا للقبض على أسرى … إن قمة المهانة التي تبدو موجهة للشعوب الوثنية مارسها من يدعون المسيحية … إن تلك السلطة الهمجية الشيطانية — التي أثارت الهنود والزنوج لتدميرنا — والقسوة، لها إثم مزدوج؛ هو التعامل بوحشية من جانبنا، وبغدر من جانبهم.»

ومع الكلمات الحادة التي استخدمها جيفرسون في صياغة إعلان الاستقلال، فقد كان متلهفًا على التصالح مع الشعوب الهندية. ومن الرائع أن نقر أن جيفرسون في هذه الحالة، على الأقل، لم يُظهر أيًّا من العنصرية، أو النظريات العرقية، التي كانت سائدة بشدة في ذلك الوقت. لقد كانت العنصرية من جانب المستوطنين البيض المحتقرين، وأحيانًا المرعوبين، وكانت النظريات العرقية من جديد نابعة من بوفون ومن سار على دربه من مفكرين، الذين اعتقدوا أن المواطنين الأمريكيين الأصليين لا قيمة لهم. أما جيفرسون، فعلى

النقيض، أقر بأن ذوي البشرة الحمراء هم، من جميع النواحي، المكافئ الطبيعي لذوي البشرة البيضاء. كل ما يلزمهم فقط هو تعلم بعض الزراعة، وإعفاء نسائهم من العمل الشاق، والتزاوج بينهم وبين الأوروبيين، والتخلص من العقائد الهدامة الخاصة بكهنتهم وقساوستهم، وأطبائهم السحرة.

وقد أنشأ غرفة خاصة في مونتيتشيللو لجمع ودراسة كافة المصنوعات المتعلقة بالثقافة الهندية، واهتم بصورة خاصة بدراسة اللغة الهندية ومفرداتها، وجمع عددًا هائلًا منها لم يصل إلينا. وقد اقترح أن تكون عقوبة قتل الهندي مساوية في القانون لعقوبة قتل الرجل الأبيض. إن الفخر الذي شعر به لاعتباره الزعيم الأبيض العظيم أو الأب، ولتلقيه التفويضات من الزعماء الأقل شأنًا في البيت الأبيض، هو أقصى ما شعر به من انغماس في حب المظاهر المَلَكية. والواقع أن تجهيزه لرحلة لويس وكلارك الاستكشافية كانت العكس لنظرية تدريب الأمراء التقليدية. فألكسندر الميكادوني "Alexander of Mecadon"، كان لديه أرسطو كمعلم خاص، وحكام فلورنسا كان لديهم مكيافيلي "Machiavelli". أما لويس وكلارك، فكان لديهما رئيس يعلمهما. ويبدو محتملًا أن جيفرسون علّم ميريويذر لويس القراءة والكتابة، أو على الأقل علّمه كيف يقرأ ويكتب وفقًا لمعايير مقبولة.

القليل من التفاصيل المتعلقة بموضوع التعليم قد أُغفلت، وقد أُرسل لويس إلى فيلادلفيا — المقر الرئيسي للمجتمع الفلسفي الأمريكي الذي يقدره جيفرسون — ليلتقي ببعض رجال العلم والطب المرموقين، مثل دكتور بينجامين رش "Dr. Benjamin Rush". وقد تعرف على مبادئ علم الفلك والملاحة، بالإضافة إلى تلقيه لبعض التعليم في العلوم الطبيعية من بينجامين بارتون "Benjamin Barton" وكاسبر ويستار "Casper Wistar". وتدرب على طريقة جينير في التطعيم ضد مرض الجدري، الذي كان جيفرسون من أقوى المؤيدين له، وجرى حثه على نشر الفكرة بين القبائل التي سيلتقي بها. ومن ثَم، فليس من المبالغة أن نقول إن رحلة لويس وكلارك الاستكشافية كانت تعتبر بمنزلة مشروع تنويري، هدفه نشر المعرفة بقدر اكتسابها، وأيضًا نشر القوة التي من المؤكد أن تلك المعرفة ستمنحها لمن يكتسبها.

وقد أدت حالة المعرفة غير الدقيقة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى الهواجس التي أثيرت، إلى قدر كبير من الاستهزاء الحزبي من جانب الفيدراليين. فقد جرى تصوير جيفرسون في صورة شخص مخبول، يؤمن بالحيوانات الخرافية والعمالقة والوحوش. (الواقع أنه لم ينكر تمامًا بعض الشائعات النابعة من الداخل.) إلا أنه مع وصول الأنباء تدريجيًّا عن الاتساع والتنوع المذهلين في الغرب الحقيقي، بدا الفيدراليون في موقف ضعيف، أو ربما يكون الأفضل أن نقول إن تفكيرهم بدا ضعيفًا — كما حدث في حالة لويزيانا.

ولبعض الوقت، على الأقل، ظل ذلك المشروع التوسعي الاستكشافي محتفظًا بنبله. وقد قوبل لويس وكلارك بود، وتلقيا المساعدة التي لم تكن خالصة من الشك ومحاولة إعاقتهما من قِبَل الكثير من الشعوب الهندية التي التقوا بها. وقد تقبلت بعض القبائل أو الشعوب عرض جيفرسون بالتعايش. ويبدو أنه كان يضع ثقة خاصة في أي شعب يبدأ اسمه بحرف «C»: مثل قبائل أبالاتشايان Cherokees، وتشوكتوس Choctaws، وتشيكاسوس Chickasaws، وكريكس Creeks، وقد التمست القبيلة الأخيرة في الواقع الحصول على الجنسية، وبدأت قبيلة أبالاتشيان في الاستقرار وإنتاج لغة مكتوبة وإصدار صحيفة. وتلك اللحظة الشامخة «المُعدلة»، التي لم تمر دون بعض التنازل والتظاهر بالأبوة من جانب البيض، نراها الآن بحكم الظروف بمنظار معكوس لما سيليها من كوابيس وسفك للدماء. إن فكرة استيعاب تلك الحضارة أفسحت المجال بسرعة شديدة لبديلها المفهوم دائمًا بصورة ضمنية الذي ينتمي أيضًا لجيفرسون؛ هذا البديل هو «ترحيل الهنود»، بتعبير مُلطف في ذلك الوقت. هناك من يقول: إن انتحار ميريويذر لويس عام ١٨٠٩م، الذي تسبب فيه مزيج قاتل من الكحول وبودرة التبغ، وحالة من اليأس الجنوني، هو آخر لحظة كان من الممكن فيها منع الانزلاق من رئاسة جيفرسون إلى رئاسة جاكسون. (بمعنى آخر، ربما ساعدت هيبة لويس على إيقافه.)

ومن ثَم، فقد ضاعف توماس جيفرسون مساحة الولايات المتحدة ووضع خطة محكمة بناءً عليها ستستكمل الولايات المتحدة كيانها في النهاية كقوة قارية ثنائية السواحل. (وحتى محادثاته مع ليديارد في باريس حول مضيق

بيرينج تنبئ باحتلال سيوارد اللاحق لألاسكا.) ولكن حتى على المدى المتوسط، فإن سياساته أيضًا تسببت في مد وإطالة «عُرف الاسترقاق الغريب»، حيث عرضت الأمريكيين الأصليين لانتهاكات قاسية وسريعة، وبسبب طموحاته في الكاريبي وما وراءه، مهد لانتشار الأفكار المغرية الخاصة بـ«المصير المحتوم» «manifest destiny» والتوسع الاستعماري.

الفصل الثامن

إحباط

مدة الرئاسة الثانية

من بعض الجوانب، يعتبر نجاح المدة الأولى من حكم جيفرسون عائدًا لاستفادته من هزائمه السابقة؛ فقد استغل النظام المصرفي الخاص بهاملتون، وقوة آدمز العسكرية والبحرية، والتحالف الأطلنطي مع بريطانيا الذي كان يومًا مكروهًا، بل حتى — كما ادعى أحد المحررين الفيدراليين في نيويورك يُدعى هاري كروسويل — المبادئ الخاصة بقانوني الأجانب وإثارة الفتن. وقد يطلق البعض على هذا تعبير انتهازية، وليس عن ظلم أو إجحاف. وربما يفضل المدافعون عنه القول بأنه كان يتعلم من أخطائه. ولكن الأمر المؤكد أنه عرف كيف يستفيد من أخطاء الآخرين، وظل قادرًا تمامًا على الاحتفاظ بفكرة ثابتة وعلى الانتظار بصبر للحظة تبرئته.

وفي الاجتماع المأساوي بين الملك جورج الثالث وجيفرسون وآدمز عام ١٧٨٦م، من المؤكد أن ملك هانوفر لم يتنبأ بالتوقيت الذي سيصبح فيه ذلك المستوطن السابق، المحدث النعمة القادم من فيرجينيا رئيسًا لدولة قوية جبارة. وليس مؤكدًا أنه كان سيلتزم الأدب أكثر إذا استطاع تخيل ذلك الاحتمال. وعلى أية حال، فإن وقاحته في تلك المناسبة، «التقرحات في العقلية الضيقة الأفق لذلك الكائن المتعنت»، كما وصفه جيفرسون، سيظل أثرها باقيًا لسنوات.

أما الرجل الذي تلقى الرد الثأري المتأخر فهو أنتوني ميري، المبعوث البريطاني لواشنطن. فقد وصل لتقديم أوراق اعتماده، بعد حدوث هفوة في العلاقات بين البلدين، في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٠٣م. والأمر يتطلب أسلوب هنري آدمز الروائي لوصف المراسم الاجتماعية الرفيعة المرهقة التي رُتِّبت لاستقباله، والأثر السيئ الذي ترتب عليها والذي أضر بالعلاقات الإنجليزية-الأمريكية. وقد واجه آل ميري في البداية (فلم يكن من الممكن تجاهل وجود الليدي زوجة السفير) صعوبة بالغة في الحصول على منزل وطاقم عمال لائقين، في عاصمة رطبة بشدة وريفية، ولو حتى بمعايير أقل بذخًا وفخامةً من معاييرهم المعتادة. وعندما ذهب ميري لزيارة جيفرسون، بصحبة جيمس ماديسون، وجد في البداية قاعة الاستقبال الرسمية عارية من الأثاث. وعندما اصطحبوه أسفل الرواق إلى المكتب وقُدِّم بصورة غير رسمية، رفض ميري أن يصدق أنه كان ضحية لذلك الأسلوب غير الرسمي عن غير قصد:

> «لقد وجدت نفسي، وأنا في زيي الرسمي، وفي التوقيت الذي حدده هو بنفسه لاستقبالي، أُقدم لرجل بصفته رئيس الولايات المتحدة، لا يرتدي ملابس غير رسمية فحسب، وإنما (يقف بالفعل أمامي منتعلًا خفين في قدميه) [القوسان أصليان]، وكلٌّ من سرواله ومعطفه وملابسه التحتية تدل على الإهمال المطلق وعدم مبالاته بمظهره.»

ولم يكن هذا أكثر من مجرد تجربة على عدم الالتزام بالملابس الرسمية كما سيحدث في حفل العشاء الذي أقامه جيفرسون بعدها ببضعة أيام. فقد وصل آل ميري إلى البيت الأبيض، ولديهم انطباع بأن الحفلة مقامة على شرفهم. ولقد كان من المحتمل أن يتغاضى آل ميري عن الحضور المزعج لنائب السفير الفرنسي لوي بيشو Louis Pichon، بصفته مندوبًا عن قوة معادية. وكان من المحتمل أن يتسامحوا — بصعوبة بالغة — في الأسلوب الذي سمح به جيفرسون لضيوفه باتخاذ مقاعدهم على مائدة العشاء بصورة عشوائية،

دون النظر للحظوة أو الأقدمية. الواقع أن تلك الأمور كانت بمنزلة النهج المعتاد في السهرات الرئاسية. ولكن عندما أصر جيفرسون على الأخذ بيد دوللي ماديسون Dolley Madison — مع اعتراضها شخصيًّا على ذلك — ليقودها إلى مائدة العشاء تاركًا السيدة ميري لتجد طريقها بنفسها، صار آل ميري مجبرين على تفسير تلك التصرفات على أسوأ نحو ممكن. وقد تبددت أية شكوك متبقية في هذا الصدد عندما زار جيروم بونابرت Jerome Bonaparte، الأخ الأصغر لنابليون، واشنطن بعدها بمدة قصيرة ليتباهى بعروسه الأمريكية المبهرة الجمال إليزابيث باترسون Elizabeth Patterson. وبأناقة، تقدم جيفرسون من الليدي وأخذ بيدها عند تقديم العشاء.

وفي يوم رأس السنة عام ١٨٠٤م، قام ميري — المغتاظ بالفعل — بزيارة مجاملة أخرى للبيت الأبيض، ليجد جيفرسون مندمجًا في حديث مع زائر من زعماء إحدى القبائل الهندية. وبالكاد، قاطع جيفرسون الحديث المتبادل للتعريف بضيفه البريطاني، وبناءً عليه، انفجر ميري غيظًا، محتجًّا على أن «الهمج الملونين» جرى تفضيلهم على ممثل جلالة الملك البريطاني. بل إن غضبه كان سيزداد لو أنه اكتشف آراء جيفرسون المتدنية حول زوجته، التي عبر عنها في خطاب إلى جيمس مونرو، الذي كان وقتها المفوض الأمريكي في لندن. (لقد استطاعت، كما كتب جيفرسون، «أن تحقق درجة من الكراهية فيما بين كافة الطبقات، يعتقد المرء أنه من المستحيل تحقيقها في مثل هذا الوقت القصير.»)

وكانت هناك بعض الإيحاءات المؤكدة، ذات الأهمية التاريخية، التي أدت إلى تطور تلك الضغينة المتبادلة عندما صارت الفرصة سانحة أمام ميري، لاحقًا في عام ١٨٠٤م، للانتقام، وقد أجاد استغلالها ببعض الاستمتاع. ففي حادثة مميزة لا يزال المؤرخون ينقسمون حولها، لم يقترب منه أحد غير نائب الرئيس جيفرسون؛ آرون بور. فقد استمر ذلك الماجن العجوز الانتهازي، الذي ثبت أقدامه في منصبه، في تزعم مجلس الشيوخ برباطة جأش، مع الخزي الذي اعتراه — والاتهام القانوني الذي وجهته له ولايتان — بعد ذبحه لألكسندر هاملتون في مبارزة في يوليو/تموز من ذلك العام. («إنني

في الواقع لم أفكر فيه يومًا باعتباره رجلًا شريفًا، يتعامل بنزاهة»، كما علق جيفرسون لاحقًا على بور؛ رفيقه الحالي الخائن — والمخادع — «ولكنني اعتبرته سلاحًا غير شريف أو أية آلة أخرى فاسدة، لا يمكنك أبدًا التأكد من هدفها.» إن التشبيه الذي أُسيء اختياره لدقة بور بوصفه الهدّاف يبدو غير موفق من ناحيتين؛ فالحق أنه منذ «رحلة دراسة النباتات»، صار مفيدًا على المستوى السياسي.) وقد انتهت الآن آماله في المناصب الرسمية، وفائدته أيضًا؛ فقد أسقطه حزبه السياسي من قائمة مرشحيه في انتخابات الإعادة عام ١٨٠٤م، التي ربحها جيفرسون بسهولة أمام الحاكم جورج كلينتون الذي كان مرشحًا أمامه.

ومع إدراكه أن الاستغناء عنه في السياسات الانتخابية صار أمرًا حتميًّا، عقد بور العزم على إعادة إحياء نفسه مرة أخرى — ولكن هذه المرة كقائد لثورة انشقاقية في الولايات الغربية. وفي حالة نجاحها، كما أشار بور لميري، فإن هذه الخطة ربما تتماشى مع الأحلام الأخرى، التي يتمناها القراصنة الآخرون، من غزو فلوريدا، بل المكسيك. وهي في جميع الأحوال ضربة قاصمة لجيفرسون الذي ترقى حديثًا، وللأراضي التي خضعت حديثًا للسيادة الأمريكية التي مع اتساعها، فإنها غير مؤمنة، وهي الأراضي الخاصة بصفقة شراء لويزيانا. ولأن الأمر سيتطلب الأموال والسفن البريطانية، فقد مرر ميري — سعيدًا — الخطة إلى لندن. وفي اجتماع لاحق، في أواخر عام ١٨٠٥م، بعد عودة بور من مهمة استطلاع، أخبر ميري أن التجهيزات الخاصة بالثورة في تقدم، وأنه إذا لم تستغل بريطانيا الفرصة، فإن فرنسا ستملأ ذلك الفراغ. ولكن يبدو أن ميري فشل في إثارة اهتمام لندن بهذا العرض، فقد كان قادته منشغلين أكثر بساحة الحرب الأوروبية ضد نابليون. وبناءً عليه، تحوّل بور إلى إسبانيا، التي كانت لا تزال مستاءة من خسارتها للأراضي.

ولا تزال التفاصيل المذهلة في تعقيدها للعمل الطائش الذي قام به بور تثير اهتمام المؤرخين (والرواة، مثل جور فيدال Gore Vidal، الذي تحتوي روايته الخيالية عن الموضوع على وصف لافت للأنظار لجيفرسون). ولا يبدو واضحًا إلى أي مدى وصل طموح بور بالفعل، أو إلى أي مدى تورط مع إسبانيا،

أو إلى أي مدى عمل على تحريض الجنرال جيمس ويلكينسون — قائد القوات الأمريكية في الجنوب الغربي — على قيادة تمرد مسلح. غير أن الأمر المؤكد هو أن أسلوبه الخيالي غير العملي (أو الذي يشبه بالأحرى أسلوب العصابات) كان يحمل شيئًا من الجاذبية للمستوطنين على الحدود، الذين كرهوا الحكومة الفيدرالية ولم يثقوا بها، والذين بالأحرى أعجبوا بالرجل الذي قتل ألكسندر هاملتون، صديق المصرفي. أما جيفرسون، فقد أظهر القليل من الأسف، أو لم يظهر أسفًا على الإطلاق، على وفاة هاملتون أيضًا، إلا أن بور كان يمثل تحديًا لسلطاته لم يكن بوسعه تجاهله. فبعيدًا عن أي شيء آخر، كما كان يعرف هو — في حين معظم الآخرين لا يعرفون — لم يكن لويس وكلارك قد عادا بعد من مهمتهما. لقد كان مستقبل الاتحاد الجديد — المتفكك على نحو مُنذر بالخطر الذي كان يتوسع بجنون — غير مؤكد. وفي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٠٦م، صدر أمر رئاسي بإلقاء القبض على آرون بور بتهمة الخيانة.

أعقب ذلك مدة فاصلة، تعاقب فيها الجد والهزل، في الوقت الذي قامت فيه صراعات في جناح بور-ويلكنسون لتغيير ولائهما في حين ما زال هناك وقت لذلك. ولكن جيفرسون، بدلًا من الانتظار لرؤية ثمار هذا الموقف، قدم للكونجرس بيانًا حادًّا بأن الإثم الذي ارتكبه بور «لا مجال لمناقشته». وربما كان من الأفضل تأجيل تلك الملاحظة لما بعد المحاكمة، وليس قبلها، خاصةً أن المشاكل الخاصة بالسلطة القضائية جعلت انعقاد محاكمة لائقة من الأساس أمرًا غير مؤكد. وبعد سلسلة من الأحداث السخيفة، تضمنت إلقاء القبض على بور، ثم إطلاق سراحه، ثم القبض عليه مرة أخرى في المسيسيبي — وهي أحداث حقق المدعى عليه الأصلي منها أقصى استفادة مع ثقته المعتادة بنفسه — جرى تقديم اتهام بالخيانة والتآمر في مارس/آذار ١٨٠٧م، في المحكمة المتنقلة الرابعة بفيرجينيا.

غير أن كل ما شعر به جيفرسون من رضا عندما شهد استدعاء ذلك الوغد الماكر للمحاكمة، سرعان ما تبدد. فالقاضي الذي عُيِّنَ لتولي القضية، هو كبير القضاة جون مارشال "John Marshall"، الذي سبق أن أحرج

الجمهوريين تمامًا في قضية العملاء «إكس واي زد»، والذي كانت ميوله السياسية مُعلنة على نطاق واسع. وبمجرد افتتاح المحاكمة، استبعد مارشال التهمة الرئيسية بالخيانة؛ التي كان إثباتها عسيرًا على أية حال لأنه يتطلب شهادة مباشرة بخصوص تصرفات علنية. وهكذا، تبقى للمحكمة أن تقرر ما إذا كان بور قد تآمر على غزو أراضي قوة صديقة هي المكسيك أم لا. ولكن بور استجمع شجاعته، وطالب بإصدار مذكرة استدعاء للرئيس نفسه للمثول كشاهد، ولإظهار كافة المستندات المتعلقة بالدفاع عنه. وقد وافق القاضي مارشال على ذلك التصرف، الأمر الذي استقبله جيفرسون بالسخط الشديد، حيث صار بذلك أول رئيس أمريكي يلتمس الامتيازات الرئاسية والحصانات الأخرى. وفي النهاية، أسقط الدفاع الطلب بمثول جيفرسون بنفسه، بعد أن كوفئوا بما يكفي من التوثيق الحكومي لتسهيل مهمتهم. أما المحلفون — الذين واجهتهم أطنان من الملابسات القانونية والسياسية الغامضة — فقد توصلوا لحكم قضائي على نفس الغرار؛ فقد وجدوا أن بور «لم تثبت إدانته بتلك التهمة وفقًا لأيٍّ من الأدلة التي قُدمت لنا». غير أن هذا القرار، مع الصدى الذي أحدثه للاختيار الاسكتلندي الذي يقول بـ«عدم ثبوت الإدانة»، لم يبرئ ساحة بور تمامًا. ولكن الأرجح أن إبراء ساحته كان أمرًا أقل أهمية له من حريته، فاختفي بعدها في أوروبا طوال الخمس سنوات التالية، قبل أن يعود إلى نيويورك، ويستأنف ممارسة المحاماة، بالإضافة إلى العديد من عاداته السيئة القديمة الأخرى.

وربما انجذب رجل أقل شأنًا من جيفرسون إلى محاولة إثارة الناس عندما ارتكبت البحرية الملكية البريطانية، في يونيو/حزيران عام ١٨٠٧م، تعديًا فاضحًا، حتى عندما استدعاه فريق دفاع بور للمحاكمة. فقد اعترضت سفينة جلالة الملك «ليوبارد» ”Leopard“، البارجة الأمريكية «تشيزابيك» ”Chesapeake“، وهي في طريقها إلى البحر المتوسط، عند منطقة هامبتون رودز بساحل فيرجينيا، وأمرت بإخضاعها للتفتيش. وعندما رُفض تنفيذ هذا الأمر، تعرضت البارجة «تشيزابيك» بانتظام لطلقات نارية قاتلة، ثم جرى احتلال سطحها، واقتياد أربعة من أفراد طاقمها. وبقدر ما أشعل الفعل

نفسه نار الغضب في الرأي العام الأمريكي، بقدر ما أشعلتها الذريعة لفعله؛ لقد احتفظت بريطانيا العظمى بحقها في اعتراض حركة الملاحة الأمريكية، سواء العسكرية أو المدنية، وذلك إما لـ«خطف» أعضاء جُدد وإرغامهم على الانضمام لطاقم السفينة، أو لاستعادة أولئك الذين فروا من التجنيد في الجيش البريطاني. ففي العام السابق، أرسل جيفرسون جيمس مونرو وويليام بينكني إلى لندن لإعادة التفاوض حول معاهدة جون جاي لعام ١٧٩٥م؛ فإنها كانت تؤثر في مسألة «الخطف»، إلا أن المحاولة باءت بالفشل، ومع حجم سوء ذلك الفشل، فقد ظلت هناك حقيقة قائمة، هي أن رجلًا واحدًا فقط من الأربعة الذين اختطفوا من البارجة تشيزابيك كان «متهربًا من التجنيد». أما الثلاثة الآخرون، فكانوا مواطنين أمريكيين فارِّين من الخطف أصلًا. وقد نُقل الرجل الهارب من التجنيد إلى هاليفاكس بكندا، حيث شُنق، وأُطْلِق سراح الثلاثة الآخرين بشرط أن يُعاد تجنيدهم تحت العلم البريطاني.

لقد كان الغضب عارمًا في البلاد بأسرها، وانتشر الشعور ذاته بين كلٍّ من الجمهوريين والفيدراليين جميعًا، ومن شدة قوة هذا الغضب جمع بين المظالم القديمة والمفهومة من ناحية، والمظالم الجديدة المشتعلة من ناحية أخرى، بحيث كان جيفرسون يستطيع بسهولة أن يضمن إعلان الحرب، إلا أنه اختار أن يلعب بسياسة النفس الطويل؛ فأرسل المبعوثين إلى لندن للمطالبة بالتعويض، وكانت الأخبار القادمة من أوروبا تُرتقب سرًّا. ولأن جيفرسون كان قد فقد معظم أوهامه عن فرنسا، فإنه لم يكن على استعداد للتورط في حرب على أيٍّ من جانبي الصراع الإنجليزي-الفرنسي. وإنما كان ينوي بدلًا من ذلك الاستفادة من توازن تلك المعركة. وقد أدى هذا إلى صراع معين في تفكيره؛ فمن ناحية، «إنني أظن أن مصيرنا سيتوقف على نجاح بونابرت أو فشله. ومن المخزي حقًّا أن نضطر لتمني النجاح لبونابرت وأن نتطلع لضحاياه من أجل خلاصنا.» ولكن من ناحية أخرى، كما صاغها أيضًا، فإن البريطانيين كانوا «طغاة في البحر، بقدر ما كان [بونابرت] على البر.» أما الحل الذي قدمه لذلك الصراع فهو الاستعداد للحرب، وفي الوقت ذاته التفاوض على السلام. وقد أُعدت ميليشيا للهجوم على كندا (الحلم القديم مرة أخرى).

وأفصح التطلع إلى الجنوب عن نفسه من جديد؛ فالحرب كانت تمثل فرصة أخرى للتخلص من الوجود الإسباني إلى الأبد. «إن قواتنا الدفاعية الجنوبية تستطيع الاستيلاء على فلوريدا، وسوف ينضم المتطوعون للجيش المكسيكي إلى صفوفنا … والأرجح أن كوبا ستضم نفسها إلى اتحادنا الكونفيدرالي.» بمعنى آخر، فإنه فيما يتعلق بالتوسع الأمريكي، فإن السبب الأعظم وراء هذا التوسع لن يُتْرك للهواة الجشعين الذين يعملون سرًّا من أمثال آرون بور.

وفي نفس الوقت، فإن سياسة جيفرسون «ذات الاتجاهين»، التي تحرم المياه الأمريكية على القوات البحرية البريطانية من جهة، وتسعى لاستعادة البحارة المختطفين وحسم قضية الخطف القديمة من جهة أخرى، قوبلت بازدراء قاسٍ من جورج كانينج، وزير الخارجية المنتمي للحزب المحافظ. فقد كان يعتبر بريطانيا هي الطرف المتضرر في القضية، ووقف بجانب «قرارات المجلس» التي ادعى القصر عن طريقها الحق في منع حركة السفن في أي وقت استمرارًا لحصارها لبونابرت. وبناءً عليه، اتخذ جيفرسون قرارين كانا ختامًا لسنوات عمله بالمنصب الرئاسي: الأول في ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٠٧م، أعلن أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى للرئاسة، وهو تصرف فيه تنازل يجدر الإشارة إليه، خاصةً في تلك الظروف. أما الثاني، والذي أعقبه مباشرةً في نفس الشهر: فهو مطالبته للكونجرس بتشريع قانون حظر على التجارة. وقد ضمن له المجلسان إقناع الأغلبيات. وجرى توجيه كلٍّ من الطاقة والوحدة — اللتين كان بإمكانهما مساندة سياسة الحرب، ولأول مرة في التاريخ الحديث — إلى برنامج من الإقرارات السلمية. ومن وقتها فصاعدًا، صار غير مسموح لأية بواخر أمريكية الإبحار إلى موانئ أجنبية، ولا مسموح لأية بواخر أجنبية أن ترسو على الموانئ الأمريكية. ولقد كان تقرير جيفرسون عن الوسائل غير الحربية المتاحة أمام الولايات المتحدة — بصفته وزيرًا للخارجية بعد إخفاق جينيت — يُنذر بهذا التخطيط.

إن التضحيات التي تتحملها الشعوب من أجل حرب طويلة الأمد — ويا للأسف على البشرية — تكون في المعتاد أكبر مما تتحمله من أجل السلام

الدائم. وإن رقي الفكر وعدم التحيز اللذين تميزت بهما سياسة جيفرسون، التي كانت تهدف لإعادة القوتين المتحاربتين إلى صوابهما (فلطالما اقتات الغزاة الفرنسيون على البواخر الأمريكية أيضًا) سرعان ما تبددت. فقد عانى رقي الفكر الضرورة الغاشمة للتنفيذ والإلزام، وتلطخ عدم الانحياز بفكرة أن الحظر كان موجهًا إلى بريطانيا أكثر منه إلى فرنسا. وقد كان للاعتراضين حجته الدامغة؛ فألبرت جالاتين Albert Gallatin، في وزارة المالية، كان مجبرًا على سد المزيد والمزيد من الثغرات في نظام الحظر، وكان من الضروري إحباط محاولات تهريب البضائع على طول الحدود الكندية — التي صارت النشاط الشاغل الأكثر شيوعًا — وذلك عن طريق قوانين جديدة وموظفين حكوميين جُدد. أما ربابين السفن والمسئولون في الموانئ، الذين ابتكروا الأعذار من أجل تحميل بعض الحمولات المُربحة أو إفراغها، فكان من الضروري إخبارهم بعدم وجود أية استثناءات. وقد تأذت الروح التحررية عند الأمريكيين، بالإضافة إلى جيوبهم، وصارت الصورة التاريخية لمحصل الضرائب البريطاني الظالم متجددة بما يكفي لاستحضارها بحرية. وربما يكون من أوجه التناقض أنه في نفس الوقت زُعِم أن الحظر كان ضد فرنسا، وأن معاهدة سرية بين جيفرسون وبونابرت هي التي أقرت به. وقد اجتمع البحارة الذي فقدوا عملهم لتوهم مع الفيدراليين من نيو إنجلاند، حيث ثاروا جميعًا متهمين جيفرسون بسرقة الخبز من أفواه الأمريكيين الكادحين. (وقد كان من السهل استخدام تلك الصورة المجازية «الخبز»؛ فإن جيفرسون قد وضع نفسه في موضع موظف بطاقات الطعام البيروقراطي الاشتراكي عندما قرر أن يبت في أنواع الدقيق المسموح بها.)

أما الأمل الذي كان يعتمل سرًّا في صدر جيفرسون، فهو أن يؤدي الحظر — بالإضافة إلى تلقين أوروبا القديمة درسًا — إلى زيادة بدائل الاستيراد، وتشجيع الإنتاج والمشاريع التجارية داخل البلاد، وإلى تعليم الأمريكيين بوجه عام أن يقللوا من اعتمادهم على الآخرين. والواقع أن الصناعة المحلية تلقت دفعة قوية، وخاصةً في بنسلفانيا. ولكن في الإجمال، وبأي حال على المدى القصير، بدأ المزارعون في الادخار، والتجار في التمرد، والمحامون وموظفو

الضرائب في رفع عدد لا حصر له من الدعاوى القضائية أو قبول الرشاوى. أما قرار جيفرسون بتوظيف الجيش النظامي والقوات البحرية في مهمة حراسة مخارج الأرض والبحر، الذي جاء على قمة كل ما سبق، فقد تُرجم ببساطة إلى قانون مثير للذعر؛ حيث يحتل النظام السياسي السلطوي مكان المثالية.

وقد كان هناك شيء من الحقيقة في الاتهام بأن الحظر على التجارة يشوبه بعض التحيز. فقد اعترف جيفرسون بأن بريطانيا كانت الأكثر عرضة للأذى؛ فإنها دولة جزيرة ولديها عدد أكبر من السفن ومن المستعمرات. وحتى آخر أيامه، اعتقد جيفرسون أن المزيد من المثابرة كان سيؤدي إلى استسلام بريطاني غير مشروط. وبدون شك، فإن قوانين الحظر على التجارة، بإثباتها لتزايد القوة الاقتصادية لأمريكا، قد تسببت بالفعل في حدوث تعسر واضطراب شديدين في الأسواق البريطانية، إلا أن نابليون بونابرت، في نفس الوقت، أثبت بنفسه صحة رأي جيفرسون الذي كان ينظر إلى نابليون نظرة متدنية. فقد اختار، دون وجه حق، ترجمة الحظر لمصلحة بريطانيا تمامًا، وأصدر قرارت بمعاملة كافة السفن الأمريكية في الموانئ الأوروبية وكأنها تُبحر تحت العلم البريطاني. والعزاء الدبلوماسي الوحيد كان تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا — وهي عدوة نابليون — وسرعان ما تبادلت الدولتان السفراء.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٠٨م، فاز المرشح المفضل لجيفرسون جيمس ماديسون، بالانتخابات الرئاسية بأغلبية جمهورية عُظمى، وإن كانت مُنقوصة، في الهيئة الانتخابية. وربما كان هذا سيعتبر موافقة معدلة على الحظر. ولكن يبدو أن العامل الرئيسي لهذا المشروع قد تحطم، وعندما أتيحت الفرصة للكونجرس للتصويت في شهر مارس اللاحق، استبدل قانون الحظر على التجارة بآخر أضعف منه بكثير، هو قانون عدم التعامل. وبمقتضاه، لن يكون هناك المزيد من التدخل الأمريكي الدولي السلمي في الشئون الأوروبية، واستمر ذلك حتى رئاسة وودرو ويلسون Woodrow Wilson بعدها بقرن تقريبًا. وانفتح الباب أمام حرب عام ١٨١٢م على مصراعيه.

وكان توقيع القانون الضعيف (الذي يوحي اسمه بالضعف أيضًا)؛ قانون عدم التعامل، هو آخر عمل قام به توماس جيفرسون كرئيس للدولة. فمدة رئاسته الثانية لم تشهد الحيوية والمجد اللذين شهدتهما المدة الأولى. وفي حين كان يستعد لمغادرة واشنطن لآخر مرة، كتب لبيير دوبون دو نيمور Pierre Dupont de Nemours يقول:

«في بضعة أيام، سوف أتقاعد عائدًا إلى أسرتي وكتبي ومزارعي، ولأنني قد وصلت لهذا الملاذ بنفسي، فإنني سأتطلع إلى أصدقائي الذين لا يزالون يقاومون العواصف بقلق في الواقع، ولكن ليس بحسد. فلم يسبق أن شعر مسجون تحرر من أغلاله بمثل الارتياح الذي سأشعر به عندما أتخلص من قيود السلطة. لقد خُلقت من أجل السعي الهادئ وراء العلوم، الذي أجد فيه منتهى سعادتي، ولكن الفظائع التي شهدتها في حياتي، أجبرتني على المشاركة في مقاومتها، وعلى إلزام نفسي بخوض بحر الأهواء السياسية المتلاطم الأمواج.»

وفي هذه المرة، لم يكن ممكنًا أن نتهم رثاء جيفرسون لذاته بأنه يخفي وراءه أي طموح مستقبلي. ولجوءه إلى الاستعارة الخاصة بالبحار العليا، مع كونها مبتذلة، فإنه يمكن التغاضي عنها في ذلك السياق.

ويصف هنري آدمز أحوال أمريكا عندما صار جيفرسون رئيسًا لأول مرة، قائلًا:

«وفقًا للإحصاء الرسمي للسكان لعام ١٨٠٠م، فقد كان هناك ٥٣٠٨٤٨٣ فرد يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي نفس العام، كانت الجزر البريطانية يعيش بها ما يزيد عن الخمسة عشر مليون نسمة، والجمهورية الفرنسية يعيش بها أكثر من سبعة وعشرين مليون نسمة. نحو خُمس الشعب الأمريكي كان من العبيد الزنوج، أما التعداد السياسي الفعلي، فكان يتكون من أربعة ملايين

ونصف المليون شخص أبيض حُر، وأقل من مليون ذكر صحيح البنية، وقعت على أكتافهم أعباء القارة بأكملها. وحتى بعد قرنين من الصراعات، لم تكن الأرض قد رُوضت بعد؛ حيث كانت الغابات تغطي كل جزء منها، فيما عدا شريطًا من الأرض المزروعة هنا وآخر هناك، وكانت المعادن ترقد هادئة في مخادعها الصخرية، وأكثر من ثلثي الشعب يتعلق بالساحل على طول خمسين ميلًا من شاطئ البحر ... ولم يقرب المستوطنون الشرقيون أية بقعة في الغرب على الإطلاق.»

أما هنا، فنجده يصف أمريكا أثناء تداعي المدة الثانية من رئاسة جيفرسون:

«في ٢ مارس/آذار عام ١٨٠٧م، اعتمد مجلس الشيوخ قرارًا يطالب الرئيس بوضع خطة لإجراء بعض التطويرات الداخلية. وفي ٤ أبريل/نيسان عام ١٨٠٨م، قدم جالاتين تقريرًا مفصلًا، يرسم خطة عظيمة للأعمال العامة. حيث ستُشَقّ القنوات عَبر كلٍّ من كاب كود ونيو جيرسي، وديلاوار، ومن نورفولك إلى خليج ألبمارل — وهكذا يصير هناك مجرى مائي داخلي بطول الساحل بأكمله تقريبًا. بالإضافة إلى أربعة أنهار شرقية عظيمة — ساسكويهانا Susquehanna، وبوتوماك Potomac، وجيمس James، وسانتي Santee أو سافانا Savannah — ستُفْتَح للملاحة من شاطئ البحر وحتى أعلى النقاط الممكنة، ومن ثَم تصير متصلة عن طريق الطرق بأربعة أنهار غربية موازية — هي أليجاني the Allegheny، ومونونجاهيلا Monongahela، وكاناوها Kanawha، وتينيسى Tennessee — حيثما يمكن الاعتماد على الملاحة الدائمة ... وكانت هناك نية بإنشاء جامعة وطنية مهمتها إتمام خطة ذات مجال شديد الاتساع والشمول، بحيث لا يستطيع أي ملك أوروبي، ربما باستثناء القيصر، أن يضاهي مداها.»

وبدون أن يدرك جيفرسون تمامًا، أو حتى بدون أن يقصد تمامًا، فقد ساعد على إرشاد الولايات المتحدة لاجتياز الجسر الذي يؤدي من الاستيطان في مستعمرات إلى السيادة القومية القارية. وصنع منها (أو منهن) قوة صار لها اعتبارها في المجالس العالمية. ولقد تحقق هذا إلى حد ما على حساب مبادئه المثالية الخاصة بالزراعة والمجتمع، وأوقع تكلفة باهظة على العلاقة الدقيقة بين الدستور الفيدرالي والولايات. أما القضايا التي ظلت عالقة، فكانت قضية الاسترقاق الإجباري، وقضية الحدود الدقيقة للدولة الجديدة، ومستقبل القبائل غير الأوروبية. ولكن تلك المسائل، من الآن فصاعدًا، ستُعالج ضمن سياق تتزايد فيه الحداثة الأمريكية المؤكدة.

الفصل التاسع

سنوات الانحدار

لم تعكس العودة الأخيرة لجيفرسون إلى فيرجينيا التحول الذي أشرف بنفسه على تحقيقه؛ أي تحول الولايات المتحدة إلى مجتمع حديث منفتح على الخارج. بل العكس هو الصحيح، فإنه لم يغادر الولاية مرة أخرى أبدًا، وألزم نفسه في المقام الأول بالزراعة وإنتاج المشغولات اليدوية لتزيين وتحسين منزله ومزرعته. غير أنه استمر في أداء دور في حياة وطنه. وكان الموضوعان اللذان سيطرا عليه في سنوات حياته الأخيرة هما التعليم والعلمانية، اللذان ثبت ارتباطهما الوثيق بأساليب غير مريحة في بعض الأحيان. ودائمًا، دائمًا، وأبدًا، ظلت هناك وصمة الاسترقاق وظله.

وكان تأسيس جامعة فيرجينيا واحدًا من ثلاثة إنجازات فقط كان جيفرسون يشعر أنها تستحق أن تذكر على شاهد قبره. وقد بلغت الجامعة الذروة، بعد أن تقدم به العمر وتقاعد، في الاهتمام باعتناق عقيدة جديدة في التعليم بوجه عام، وهو الاهتمام الذي أظهره جيفرسون عندما كان سياسيًّا يافعًا من فيرجينيا. وقد اخترت كلمة «اعتناق عقيدة جديدة» متعمدًا، لأن نيته الخالصة كانت تأسيس حرم جامعي مستقل تمامًا عن كافة الطوائف والكهنة. وربما أراد لهذا السبب أن يُبنى تحت إشرافه إلى حد ما، في مدينة تشارلوتسفيل الصغيرة المجاورة لمونتيتشيللو، وكان يرغب أيضًا في أن يكون تصميمها المعماري كلاسيكيًّا، بدلًا من اتباع النموذج شبه القوطي للكثير من الجامعات الأنجليكانية أو الأسقفية. لقد تقرر أن يكون النموذج من تصميمات بالاديو؛ فلن تكون هناك مقاعد للألوهية أو علم اللاهوت، وستُدَرَّس

المسيحية باعتبارها جزءًا من دراسة التطور والأخلاق. وفيما عدا الالتزام بمقرر محدد سلفًا، سيكون للطلاب الحرية في اختيار المواد الخاصة بهم. أما تصميم المكان — على هيئة بانتيون مهيب يتناقض مع ساحة خضراء مفتوحة، ومجموعة من المباني يستطيع فيها المعلمون والطلاب أن يتلاقوا فيه — فقد كان يجمع بين الألفة والوقار. فبقدر الإمكان، لم يكن مُخططًا لها أن تكون جامعة فيرجينية، وإنما الفرع الفيرجيني من حركة التنوير العالمية. وكان بها كرسي أستاذ واحد فقط خالٍ، هو كرسي القانون والحكومة الذي كان مخصصًا لعالم أمريكي. وهذا التصميم الفسيح للمشروع بكل أروقته وأعمدته — مع تعقيده — يمكن الاستمتاع به وطلب العلم فيه حتى يومنا هذا. ولكن الصراع على الانتهاء من إنشائها لا قيمة له بجانب الصراع، الذي بدأ عام ١٨١٩م، على تولي إدارتها.

إن تعبيرا «الأكاديمي» و«البيروقراطي» لا يزالان شبه مترادفين في القرن الحادي والعشرين، وليس مفاجئًا أن نعرف أن جيفرسون اضطر لتضييع وقت طويل جدًّا في اللجان والمجادلات العقيمة، فهل كانت بنات أفكاره ستقلل من الهيبة التي تتمتع بها جامعة ويليام آند ماري في الأوساط المحلية؛ الجامعة التي تخرج هو نفسه منها؟ هل سيكون هناك تمويل كافٍ؟ هل سيصبح المكان مركزًا للتخريب والإهمال؟ لقد صدم السؤال الأخير بعضًا من ذوي الآفاق الضيقة بقوة خاصة. فتوماس كوبر Thomas Cooper، الذي رشحه جيفرسون لمنصب أستاذ الكيمياء، ربما كان سيُعد إضافة مشرفة لأية جامعة، في أي وقت، وأي مكان، فقد كان زميلًا مقربًا من دكتور جوزيف بريستلي "Dr. Joseph Priestly"، مكتشف الأكسجين. وقد عانى بريستلي، الرجل الإنجليزي، كثيرًا بسبب عقلانيته، وإيمانه بالطرق والأساليب العلمية، وتعاطفه مع الثورة الفرنسية والأمريكية. وقد تحطم معمله في بيرمينجهام بأيدي حشد شرس من الناس الذين اشتعلت حماستهم بهيستيريا «الكنيسة والملك»، وتلك الحالة من سيطرة الرعاع، حدثت بموافقة القصر البريطاني والأساقفة، لاستخدامها كسلاح ضد المنشقين. (وتلك الهيستيريا — التي وجهت أيضًا ضد توماس بين — حدثت بموافقة إدموند بيرك — في واحدة

من أخطائه العديدة.) فإن بريستلي لم يكن يعبث بالتجارب التي تنتهك المقدسات فحسب، بل أسس المذهب المعروف بـ«التوحيدية» (وهو مذهب مسيحي لا يؤمن بألوهية المسيح) "Unitarianism"، التي تنظر إلى يسوع النصراني "Jesus of Nazareth" باعتباره مجرد بشري فانٍ له بعض الآراء الأخلاقية، وليس باعتباره ابن الرب. وقد تبنى دكتور كوبر نفس الرأي، وأمضى بعض الوقت أيضًا في السجن بموجب قانون إثارة الفتن. واعتُبر تفوقه العلمي لا يساوي شيئًا مقارنة بالخطر الذي مثله للآداب العامة. أو أن هذا، على الأقل، هو ما ادعاه مواطنو فيرجينيا من أتباع الكنيسة المشيخية. فقد تبنى زعيمهم؛ جون هولت رايس "John Holt Rice"، وجهة نظر الفريسيين الإضافية والنموذجية التي تقول بأن الرأي العام لن يؤيد تعيين شخص ملحد. وكان هذا شديد الشبه بالمجادلة الريائية التي واجهها جيفرسون قبل ذلك بأربعة عقود في المعركة التي دارت حول تشريع فيرجينيا للحرية الدينية. وأما أتباع الكنيسة المشيخية، فإن رد فعلهم في تلك المناسبة كان أكثر قوة؛ فقد كتب في مرحلة ما أن كل الطوائف «تخشى تقدم العلوم إلى حد الفزع كما تخشى الساحرات اقتراب ضوء النهار، وتتجهم من النذير الحتمي الذي يعلن تدمير الأوهام الخادعة التي يعيشون فيها.» ولكن أتباع الكنيسة المشيخية كانوا «أكثر الطوائف تعصبًا لآرائهم، وكانوا أكثر استبدادًا وطموحًا؛ فقد كانوا على استعداد تام بمجرد تلقي الأمر من المشرع — إذا ما أمكن الحصول على مثل هذا الأمر — لإشعال النار في كل شيء، وإضرام الحريق من جديد في هذا النصف البِكر من الكرة الأرضية؛ ذلك الحريق الذي التهم فيه كالفِن "Calvin" — وسيطهم الروحي — سيرفيتوس Servetus المسكين.»

وقد أشار ميريل بيترسون Merrill Peterson، بما اعتاده من لهجة لاذعة وأسلوب مباشر إلى أن ذلك الغضب العارم من جانب جيفرسون، بالطريقة المذهلة التي عُبر بها عنه، كشف عن تناقض كامن. فلم يكن من المفترض أن يكون هناك أي تعارض بين الديمقراطية والتنوير، بل كان المفترض أن يتقدم الاثنان جنبًا إلى جنب، كما فعلا ضد النظام المَلَكي. فإما أنك تثق بـ«الشعب» أو لا تثق به، وقد ناشد جون هولت رايس موافقة

الأغلبية المهيمنة على ذلك. وعلى أية حال، فقد وافق جيفرسون على التراجع عن تعيين دكتور كوبر. وربما اعتُبر هذا تراجعًا تكتيكيًّا، بالنظر إلى سن جيفرسون المتقدمة عام ١٨١٩م. وكذلك الأمر لاكتشافه أن الوقت ما زال مبكرًا جدًّا على اجتذاب المواهب الأكاديمية الكبرى من أوروبا، كما كان يأمل منذ وقت طويل جدًّا. ولكنه، سعيًا وراء تأمين تأييد سياسي ومحلي للجامعة العزيزة، فإنه كان مستعدًّا للتقدم خطوة واحدة للأمام، والدفاع عن ساحة تشارلوتسفيل الخضراء باعتبارها مكانًا يستطيع فيه المدافعون عن الاسترقاق وحقوق الولايات في المستقبل أن يتحدثوا ويتجولوا.

أما ما يُعرف بتسوية ميسوري لعام ١٨٠٢م، فقد وافقت على الاعتراف بمنطقة ميسوري (وهي نفسها وليدة صفقة شراء لويزيانا) كولاية عبيد. وقد «وازنت» هذا الاكتساب بالاعتراف بماين Maine، التي كانت سابقًا من مقاطعات ماساتشوسيتس، كولاية أحرار. أما في الشمال، فإن تلك الصفقة الخرقاء، غير الفعالة، قد أدت إلى إشعال ثورة عارمة ضد الاسترقاق وامتداداته. وقد كان أغلب هذه الثورة بقيادة أعضاء محافظين وفيدراليين سابقين، مثل روفوس كينج Rufus King، وقد رأى جيفرسون فيهم أعداءً سياسيين وتاريخيين. ولم يكن جيفرسون يترفع عن تقديم الالتماسات إلى الهيئة التشريعية بفيرجينيا، زاعمًا أن فيرجينيا بحاجة إلى جامعة خاصة بها، تجنبًا لاجتذاب الجامعات الشمالية مثل هارفارد لأكثر أبنائها ذكاءً. وقد حذر من أنه ربما يكون هناك عدد كبير يناهز الخمسمائة من قادة الجنوب المستقبليين في الشمال الشرقي حيث يجري تعليمهم مبادئ «معاداة ميسوري» وما هو أسوأ. «إن هذا الداء يتغذى على أساس وجودنا، وإذا لم يُسَيْطَر عليه فورًا، فسوف يتجاوز مرحلة العلاج.» أما «الداء» الذي كان يلمح لوجوده فلم يكن الاسترقاق، بل كان المعارضة الاتحادية له. فقد جرى التخلي سرًّا عن فكرة إنشاء «جامعة وطنية» لمصلحة إنشاء جامعة طائفية. وفي النهاية، وفيما يتعلق بهذا الأمر، فإن جيفرسون كان مع «فيرجينيا أولًا».

غير أن ما سبق وغيره من أساليب كانت لها نتائجها المقصودة، أما الجامعة فقد صُدِّقَ عليها رسميًّا وافتتحت مع حلول عام ١٨٢٥م. وقد

أعلن جيفرسون بجرأة، عندما كانت الفكرة في مرحلة الصياغة، أن: «هذه المنشأة سوف تقوم على الحرية اللامتناهية للعقل الإنساني. لأننا هنا لا نخشى اتباع الحقيقة أينما أودت بنا، ولا نخشى التسامح مع أي خطأ ما دام يترك المجال مفتوحًا للمنطق لدحضه.» وهذا الصدى لأول خطاباته الافتتاحية عبر عن شجاعة لم يُحْتفظ بها حتى النهاية؛ فقد حاول جيفرسون جاهدًا أن يضمن أن تكون النصوص السياسية والدستورية الإجبارية أبعد ما يمكن عن الأرثوذكسية والجمهورية.

وربما يكون جيفرسون قد نجح أكثر من اللازم في تعيين صفوة المجتمع الذين كانوا يتوقون إلى الدفاع عن الجنوب التقليدي، وفي جميع الأحوال، فإن افتتاح الحرم الجامعي أعقبه سريعًا أكثر أنواع العنف الطلابي إزعاجًا وإحباطًا. وقد ظهرت على السطح كافة أنواع السلوكيات الفاسدة والأنانية، وفي النهاية، اضطر الرجل الكبير للانطلاق بنفسه في رحلة مرهقة أسفل الجبل إلى تشارلوتسفيل، ويقال إن دموعه أخجلت المجرمين الصغار منتهكي القانون.

إلا أن أكثر آرائه، حتى الخاصة بالتعليم، كانت تتغير وتصطبغ بسلوكه الدفاعي عن الاسترقاق، لقد كان مجال التعليم هو أكثر المجالات التي أظهر جيفرسون منها معاداته للإكليروسية. وقد سارت حرب عام ١٨١٢م على نحو شديد السوء للولايات المتحدة، أسوأ بكثير في الواقع مما تنبأ به جيفرسون أو أي شخص غيره. ففي الأيام الأولى من الصراع، مستحضرًا وهمًا قديمًا من جديد، تنبأ بأن غزو أمريكا لكندا البريطانية قد يكون «مجرد مسألة مسير». ومع انتهاء الحرب، كان البيت الأبيض قد تعرض للحرق والنهب على يد الأميرال البحري كوكبِرن Admiral Cockburn انتقامًا من إحراق أمريكا لما يُطلق عليه الآن تورونتو، وأتت النيران أيضًا على مكتبة الكونجرس. وقد كتب جيفرسون لعضو الكونجرس صامويل هاريسون سميث Samuel Harrison Smith من ميريلاند، يعرض عليه تعويض هذه الخسارة المفجعة ببيع مكتبته الخاصة. ومقابل تلك المجموعة المبهرة المكونة ممّا يقرب من ٦٤٨٧ مجلد، طلب مبلغ ٢٣٩٩٩ دولار. ولكن بعض الفيدراليين من نيوإنجلاند

رفضوا إتمام الصفقة، وبخاصةً عضو الكونجرس سيروس كينج Cyrus King من ماساتشوسيتس، الذي صرح قائلًا: «رُبما يُستنتج، من شخصية الرجل الذي قام بجمعها، ومن فرنسا حيث جُمِعَت المجموعة؛ أن المكتبة تحتوي على بعض كتب الإلحاد، وبعض الكتب غير الأخلاقية، مثل أعمال الفلاسفة الفرنسيين، الذين تسببوا في تفجير بركان الثورة الفرنسية وأثروا فيه. وهذه الفاتورة ستضع ٢٣٩٩٩ دولار في جيب جيفرسون مقابل حوالي ٦٠٠٠ كتاب؛ ما بين جيد وسيئ ومتوسط، قديم وجديد وبلا قيمة، مكتوبة بلغات لا يستطيع الكثيرون قراءتها، ولا ينبغي أن يقرأها أغلب الناس.»

وربما كان غضب الملك القروي المتشدد سيشتعل أكثر وأكثر لو أنه درس نظام التصنيف والفهرسة الذي استخدمه جيفرسون؛ فقد اتبع خطى فرانسيس بيكون في مقالته بعنوان «تقدم التعليم» The Advancement of Learning عام ١٦٠٥م، فقام بتقسيم الكتب وفقًا لفئات «الذاكرة»، و«الفهم»، و«التخيل»، حيث دأب على وضع الكتب التي تعالج القضايا الدينية والتاريخ الكَنَسي في درجة متدنية من سلم الإنجازات. وقد فعل الشيء ذاته عندما نصح جاره وصهره الفيرجيني روبرت سكيبويذ في تخطيط لتأسيس «مكتبة لرجل مثقف»، بتصنيف الكتاب المقدس في آخر قائمة طويلة من المجلدات، على رأسها «التاريخ القديم». أما ما حدث فعلًا، فهو أن الكونجرس تجاهل تمامًا سيروس كينج وغيره من المعارضين، واشترى كتب جيفرسون مقابل مبلغ مُخفض تخفيضًا طفيفًا بقيمة ٢٣٩٥٠ دولار. وقد شكلت المجموعة والفهرس قلب مكتبة الكونجرس حتى حريق عام ١٨٥١م، الذي دمر ثلثي المكتبة وأسعد الكثيرين ممن تصوروا أنها من بدايتها من صنع الشيطان. أما اليوم، فإن مكتبة الكونجرس، مع وجود أهم محتوياتها في قاعة جيفرسون، تعتبر واحدة من أروع المؤسسات العامة على الإطلاق.

ولم يكن الهجوم على جيفرسون لعدم التقوى بأمر جديد عليه؛ فإن صداقته لتوماس بين وتأليفه لتشريع فيرجينيا للحرية الدينية قد أنذرا المتدينين من احتمال وجود كافة أنواع الهرطقة. ولم يكن لديه سوى القليل لتهدئة هذا النوع من المشاعر، حتى في أوقات الانتخابات. فقد كتب يقول: إنه

لا يهمه على الإطلاق ما إذا كان جاره لا يؤمن بأي إله أو يؤمن بعدة آلهة، لأن هذا يعد رأيًا شخصيًّا «لا يسرق شيئًا من جيبي، ولا يكسر ساقي». وقد بدا هذا الأسلوب المُقتضب للمتدينين شديد التغطرس والوقاحة لدرجة لا يمكن التسامح فيها، وقوبل شجبهم اللاذع له ببرود في المقابل. وعندما هوجم جيفرسون بعنف من قِبَل المسيحيين الأصوليين المتشددين في انتخابات عام ١٨٠٠م، كتب يقول: «إن المنطق السليم الذي عاد لدولتنا، يهدد بإجهاض آمالهم؛ فهم يعتقدون أن أي جزء من السلطة يُعهد به إليّ سوف يُستغل في معارضة خططهم. وهم على حق فيما يعتقدون؛ لأنني أقسمت بعرش الله، أن أعادي إلى الأبد كافة صور الاستبداد التي تستحوذ على عقل الإنسان.»

وقد كان هذا التعهد مكتوبًا في خطاب سري إلى دكتور بينجامين رش، وهو أحد أهم زملاء جيفرسون في جمعية الفلاسفة الأمريكيين وأكثرهم ثقافة، ومن ثَم، فإن ذكر «هيكل الله» لا يمكن أن نعزوه — مثل بعض بيانات جيفرسون الأخرى الأكثر شعبية — لأية رغبة في تجنب تلك التهمة القاتلة سياسيًّا؛ ألا وهي، الإلحاد. لقد كان رش عقلانيًّا ماديًّا، ولكنه كان أيضًا ربوبيًّا، لدرجة أنه قطع علاقته بتوماس بين — الذي حثه على كتابة «المنطق السليم» — عندما نشر الأخير «عصر العقل» The Age of Reason. ومع ذلك، فقد كان بالكاد أقل عزمًا على تطهير المسيحية من تزايد الخرافات ومكائد رجال الدين التي صارت تغلفها. وقد ضغط على جيفرسون أكثر من مرة لتوضيح آرائه الخاصة حول الموضوع. ولكن الرئيس كان ميالًا إلى التماس العذر للأمور الأخرى، في حين كان عقله منشغلًا بالموضوع بوضوح، وقد تلقى دفعة إضافية من الدكتور جوزيف بريستلي العظيم، الذي ألّف كتابه «تاريخ الفساد في المسيحية» History of the Corruptions of Christianity قبل نفيه إلى إنجلترا، وكان هذا الكتاب من كتب جيفرسون المفضلة. وقد تابع بريستلي هذا بأن أرسل لجيفرسون بحثه المُسمى «مقارنة بين سقراط والمسيح» Socrates and Jesus Compared، وبقراءة هذا النص الموجز عام ١٨٠٤م، عقد جيفرسون العزم على وضع خطة أكبر؛ لقد

قرر أن يكتب عن حياة المسيح، فاصلًا الحقيقة عن الخرافة، وآخذًا بعين الاعتبار التحريف في الأساطير، والمبالغات في التاريخ المنقول شفهيًّا، ليصل إلى ما يشبه الحد الأدنى الأخلاقي. الواقع أن جيفرسون كتب ذات مرة: «لا يوجد شاب يعيش الآن في الولايات المتحدة توافيه المنية إلا وهو موحد[٢]»، ومع أن هذا قد يبدو كأنه أسخف نبوءة مضللة، فالواقع أن هناك عدة ملايين من الأمريكيين المتعلمين؛ من مسيحيين ويهود وممن لا ملة لهم، يتبنون الآن آراءً متشابهة.

وهكذا كان توقيره لبريستلي لدرجة أن جيفرسون كان يأمل أن يكون هو الذي يستكمل مشروع تجديد وتنقيح قصة الإنجيل. ولكنه قام ببضع محاولات في هذا الاقتراح بنفسه، وأطلق عليها متحذلقًا: «ملخص لتقييم مزايا مبادئ المسيح، مقارنة بعقائد الآخرين» Syllabus of an estimate of the merit of the Doctrines of Jesus, compared with those of others. وفي تلك الدراسة، وضع العديد من البيانات لما هو واضح بخصوص النصراني: «فمثلما فعل سقراط وأبكتاتوس، فإنه لم يكتب شيئًا عن نفسه»، «وفقًا للقدر المعتاد لأولئك الذين يسعون لتنوير البشرية وإصلاحها، فقد سقط مبكرًا ضحية للغيرة واتحاد المذبح مع العرش»، «إن العقائد التي أوصلها لنا كانت في الإجمال مَعيبة، ولم يصلنا سوى شظايا مما جاء به فعلًا، ووصلتنا مبتورة مشوهة وعادةً غير مفهومة.» وكانت تلك إلى حد ما أمورًا عادية. ووُضع أي عمل أكبر جانبًا بعد وفاة بريستلي عام ١٨٠٥م. ولكن دكتور بينجامين رش أدى خدمة أخيرة؛ فإنه لمّا شعر بالحزن بسبب الخصام الطويل بين جيفرسون وجون آدمز، قام بإجراء مصالحة بين الرجلين، اللذين استأنفا تدريجيًّا المراسلة التي تُعد — في حالتها التي بقيت عليها — أعظم كنوز الرسائل المكتوبة في كل العصور. وقد بدأ تبادل الرسائل في عام ١٨١٢م. ومع حلول عام ١٨١٣م، العام الذي توفي فيه رش، كتب آدم — الذي صار على دراية باتصال جيفرسون ببريستلي — لجيفرسون يحثه على الوفاء بوعده بالكتابة عن الدين. وقد أجابه جيفرسون قائلًا إن العمل قد بدأ بالفعل أثناء

[٢] توجد طائفة مسيحية تؤمن بالتوحيد.

الساعات القليلة الشاغرة من مدة رئاسته الثانية:

> «علينا أن نختصر نسختنا الحالية إلى الصورة المبسطة التي كتبها المبشرون، ونختار — حتى من بين كلماتهم — الكلمات التي نطقها المسيح فقط، مزيحين عنها الغموض النحوي الذي يكتنفها نتيجة النسيان أو عدم فهم ما قاله؛ فقد قدم كُتّابه ما أساءوا فهمه على أنه أقوال المسيح، وشرحوا للآخرين ما لم يفهموه بأنفسهم بأسلوب غامض. وسنجد أنه تبقى لنا أكثر التشريعات الأخلاقية رقيًّا وخيرًا التي قُدمت يومًا للإنسان. لقد قمت بتنفيذ هذا الأمر بنفسي، بأن قطعت الآيات آية آية من الكتاب المطبوع، وأعدت ترتيب ما يبدو بوضوح أنه من كلام المسيح، الذي يبدو مميزًا كالماس في كومة روث.»

وتلك النسخة، التي نُشرت بعنوان «فلسفة المسيح» "The Philosophy of Jesus" عام ١٨٠٥م، وُصفت على غلافها بأنها «مُلخص العهد الجديد لاستخدام الهنود، دون الخجل من المسائل المتعلقة بالحقيقة والإيمان بما يتجاوز مستوى استيعابهم.» ومن المؤكد أن هذا قد توافق مع رأي جيفرسون بأنه يجب حماية الهنود من حملات التبشير المسيحية، ولكن بعض أتباع المذهب التوحيدي فكروا في أنها منحته أيضًا قصة تغطية لا غبار عليها للعمل المنافي للمبادئ المسيحية الذي قام به عندما قطع الكتاب المقدس مُستخدمًا نصل موسى، وألقى كل الأجزاء غير الضرورية والسخيفة المتعلقة بالعبادة. (وهو عمل طالما أردت تكراره مع سيرة القديسين الخاصة بجيفرسون نفسه والمتعددة النسخ، التي اجتهد دوماس مالون Dumas Malone اجتهادًا شديدًا في تأليفها.)

وقرب نهاية حياته، في عام ١٨٢٠م، نشر جيفرسون تنقيحًا أكثر شمولًا، استقطع فيه كل ذكر للملائكة والمعجزات والبعث. وكما شرح، فقد كان ذلك لتوضيح، ليس فقط الاختلاف بين المسيح وترجمة حوارييه، وإنما أيضًا الاختلاف بين الإيمان والمنطق:

«في حين يُقصد من هذا المُلخص وضع شخصية المسيح في صورتها الحقيقية وإلقاء الضوء عليها، باعتباره لم يكن منتحلًا، بل مُصلحًا عظيمًا للتشريع اليهودي للدين، ولا ينبغي كذلك أن يُفهم أنني أوافقه في كل مذاهبه؛ فإنني أتبع المذهب المادي، ويأخذ هو الجانب الروحاني. فهو يُبشر بفعالية التوبة في غفران الخطايا، وأطالب أنا بثقل موازن لها من الأعمال الصالحة للتخلص من ذنبها ... فمن بين الأقاويل والأحاديث التي نسبها له كتّاب سيرة حياته، أجد العديد من الفقرات التي تحتوي على خيال رفيع، وفضيلة سليمة، وأجمل نزعات الخير، ولكنني أجد أيضًا فقرات تنم عن منتهى الجهل والسخف والأكاذيب والدجل والغش، بحيث يستحيل أن ينبع هذا التناقض من الشخص ذاته. ومن ثَم، فإنني أفصل الذهب عن الزبد؛ بحيث أعيد له الأول، وأترك الأخير لغباء البعض، وتدليس البعض الآخر من حوارييه.»

وقد نُشرت نصوص مماثلة للنص السابق باللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، بعنوان «حياة يسوع النصراني وآدابه، مُستخرجة نصيًّا من الأناجيل»، كما يطلق عليه العامة أحيانًا «إنجيل جيفرسون». وفي عام ١٩٠٤م، صار من عادات مجلس الشيوخ أن يقدم لأعضائه الجُدد في يوم أداء القسم نسخة منه. أما كنيسة التوحيد العالمية، فتُضفي على الكتاب أهمية كبيرة، ومع أن هذه الكنيسة لم تنجح في اجتذاب أغلبية الذكور الأمريكيين، كما تنبأ جيفرسون، فإنها بدأت منذ عدة أعوام السماح للنساء بتولي منصب الكاهن. (وهي خطوة لم يكن جيفرسون، على الأرجح، ليوافق عليها، خاصةً مع شكه بوجه عام في جدارة المرأة بتولي مناصب مسئولة.)

ومع اقتراب نهاية حياته، كتب جيفرسون أكثر من مرة لأصدقائه يقول: إنه يواجه النهاية الوشيكة دون أمل أو خوف. وكان هذا أقرب للقول، في أكثر التعبيرات دقةً، إنه لم يكن مسيحيًّا. أما كونه ملحدًا، فعلينا أن نحتفظ بحكمنا، ولو حتى بسبب الحرص الذي كان مُجبرًا على توخيه أثناء حياته

السياسية. ولكن، كما كتب لابن أخيه بيتر كارفي أوائل عام ١٧٨٧م، فإنه يجب على المرء ألا «يخاف من هذه المسألة بسبب خوفه من عواقبها. فلو انتهى الأمر إلى الإيمان بعدم وجود إله، فإنك ستجد الحافز الذي يدفعك للفضيلة، وهو الراحة والسعادة اللذان ستشعر بهما في ممارستها، وحب الآخرين الذي ستجلبه لك.»

وفي مايو عام ١٨٢٤م، قام العالِم الرحّالة، وبائع الكتب المتجول الذي يُدعى صامويل وايتكومب Samuel Whitcomb بزيارة مونتيتشيللو، ووجد جيفرسون يفتح له الباب بنفسه. وقد فشل وايتكومب في إثارة اهتمام الرئيس المتقاعد ذي الإحدى والثمانين سنة بنسخة من كتاب «تاريخ اليونان» History of Greece لميتفورد، الذي وصفه جيفرسون بأنه يحتوي على افتراءات على الديمقراطيين في أثينا القديمة. وقد تحول وايتكومب في سرعة إلى موضوعات أخرى، فوجد جيفرسون يقول عن «الزنوج» إنه «يأمل خيرًا في عقولهم، ولكنه لم ير أبدًا أية دلائل على العبقرية بينهم»، ويقول عن الهنود إنهم «سيتضاءلون جميعًا، ويضيعون وسط عِرقنا عن طريق الإندماج.» وعندما أُثيرت مسألة الدين التي لا مفر منها، احتد جيفرسون وغضب:

> «لقد علّق في رده عليّ بأن بول كان أول من حرّف مبادئ المسيح. وقد كانت لي بعض الملاحظات، وانتهيت إلى القول بأن رجال الدين في دولتنا كانوا يحققون في تلك المسائل باستقلالية كبيرة. ولكنه خالفني الرأي، وعَبّر عن نفسه بحرارة في عبارة أفترض أنها لا تنتمي للإنجليزية وإنما لأية لغة أخرى قائلًا: «إن رجال الدين كلهم …» وبدا واضحًا لي أنه كان ينظر لرجال الدين بوجه عام في منتهى الازدراء، وأنه كان يفكر بدونية في التحقيق اللاهوتي …»
>
> وفي وصفه قال وايتكومب: «إنه طويل، ومستقيم العود تمامًا، فيما عدا عنقه الذي يميل للانحناء. وشعره طويل وخفيف. أما عيناه، ففاتحتان وضعيفتان، ولكنهما حادتان بعض الشيء. وهو غير متكلف، وبسيط، ولا يثير الانتباه، عادي وغير وقور أكثر مما كنت

مستعدًّا لتوقعه. ولا يبدو أنه رجل كريم، إلا أنه شخص إيجابي وحاسم وعاطفي أكثر مما كنت أتوقع. وإنني لا أعتبره فيلسوفًا بقدر ما أعتبره رجلًا حزبيًّا. وأخلاقه هي أكثر شخصيته قبولًا، ولكنها مصطنعة [هكذا]، كلما تحدث هَزّ كتفيه، وفيه الكثير من صفات الرجل الفرنسي، وهو سريع، ومتغير، ومتقلب، وفصيح، ومسلٍّ. ولو لم أكن أعرف عمره الحقيقي، لما فكرت في أنه يتجاوز الستين أو الخامسة والستين.»

وفي نفس المدة التي كان يستكمل فيها عمله في التنقيح التوراتي المتطرف، اتخذ جيفرسون آخر مواقفه اليائسة بخصوص قضية الاسترقاق. وقد صرح في خطاب لأحد صائغي تسوية ميسوري لعام ١٨٢٠م؛ هو جون هولمز، أن التسوية كانت «مثل إشارة خطر في وسط الليل، أيقظتني وملأتني رعبًا. فقد اعتبرتها على الفور بمنزلة نعي الاتحاد.» فلم يكن المحارب القديم قد فقد موهبته على الصياغة بعد. وقد استطرد في نفس الخطاب قائلًا: إن تحرير العبيد في حد ذاته «لن يحتاج مني إعادة التفكير فيه مرة أخرى إذا أدى إلى عتق و(تهجير) شاملين [القوسان أصليان]، تدريجيًّا، ودون تضحيات كبيرة. أظن أنه يمكن حدوثه. ولكن كما هو الحال الآن، فإننا في موقف حرج كأننا نمسك الذئب من أذنيه، فلا نستطيع القبض عليه، ولا نستطيع تركه يذهب في أمان. فلدينا العدالة في كفة، وغريزة حب البقاء في الكفة الأخرى.» وانتهى قائلًا: «إنني نادم على أنني سأموت الآن مؤمنًا بأن التضحية عديمة الفائدة؛ تضحية جيل ١٧٧٦م بأنفسهم لتحقيق الحكم الذاتي والسعادة لدولتهم، ستبددها الانفعالات الطائشة، التافهة لأبنائهم، كما أندم على أن عزائي الوحيد سيكون أنني لن أعيش لأبكي على هذا.» إن هذا البؤس من رثاء الذات، بتلميحه النادر إلى الخوف المرتبط بالكهولة، قد دعا جيفرسون إلى التعبير عن نفسه بأساليب أقل كياسة، تكاد توحي بأن «غريزة البقاء» و«العدالة» تحتلان كفتين متساويتين في عقله. «هل سنقدم لعبيدنا الحرية والخنجر؟» كما طلب أن يعرف في خطاب لآدمز. لو استطاع الكونجرس

تجاهل رأي الولايات في قضية الاسترقاق، كما قال لألبرت جالاتين، فأين سينتهي كل هذا؟ «كل البيض في جنوب بوتوماك وأوهايو لا بد أن يقوموا بإخلاء ولاياتهم، والأسعد حظًّا منهم من يستطيع أن يفعل ذلك أولًا.» وهناك حدث بسيط، وإن كان معبرًا، ألقى الضوء على غِلظته بوجه عام؛ فرفيقه القديم، ثاديوس كوسكيوسكو Thaddeus Kosciusko؛ البطل البولندي للثورة الأمريكية، وضحية قانوني الأجانب وإثارة الفتن، توفي في سويسرا عام ١٨١٧م. وقد اختار جيفرسون منفذًا لوصيته، وترك كل أمواله في اعتماد مالي لشراء حرية العبيد السود الصغار ومنحهم التعليم. ولكن حكيم مونتيتشيللو رفض ببرود تنفيذ وصية صديقه عند الموت. ووفر طاقاته لفكرة «تأسيس المستعمرات»، وهو التعبير المُلطف لطرد الأمريكيين السود وإعادة توطينهم في سيراليون وليبيريا.

صار جيفرسون بالتأكيد أكثر تشاؤمًا وأسرع غضبًا عندما وضع نفسه في منزلة ما يُطلق عليه المحافظون في فيرجينيا — بغرور — الصحوة الجمهورية، ووافق على أعمال الكتّاب المزارعين العقائديين مثل صديقه جون تايلور. فبعد فوز جون كوينسي آدم على أندرو جاكسون في الانتخابات، كتب خطابًا شخصيًّا لزميله القديم ويليام جيلز، الذي صار في هذا الوقت حاكم فيرجينيا، استحضر فيه كل عباراته المجازية المستهلكة المعادية للفيدرالية؛ فقد شجب أولئك اللذين «لا يحملون بداخلهم شيئًا من مبادئ عام ١٧٧٦م، ويتطلعون الآن إلى حكومة أرستقراطية منفردة ورائعة، قائمة على المؤسسات المصرفية والشركات الثرية المتخفية في زي وقناع ما يفضلونه من أنواع الصناعات والتجارة والملاحة والقيادة، ومسيطرة على الفلاح المسلوب حقه وصغار ملاك الأراضي الزراعية الفقراء.» ولم يكن هذا هو كل شيء. بل كان على الولايات أن تبقى على حذر من المركز، كما أضاف، وإذا ما وصلت الأمور للاختيار بين «حلّ اتحادنا ... أو الخضوع لحكومة لها سلطات غير محدودة»، فلا بد أن يكون القرار بالانفصال. إذن، فقد اتضح أن الذئب الضخم الشرير (الأسود) هو الذي جذب جيفرسون من أذنيه فعلًا. لقد كان ذلك الخطاب إلى جيلز شخصيًّا، وقد كُتب عام ١٨٢٦م؛ أي أنه لم يكن باقيًا في حياة جيفرسون سوى

أيام معدودة، ولكن جيلز أذاعه بعد وفاته، ومن ثَم، ساعد على خلق الأساس الأخلاقي لأيديولوجية «حقوق الإنسان» لجون كالهون John Calhoun.

وقد زعم المؤرخ جيمس بارتون علنًا في عام ١٨٧٤م، أنه «إذا كان جيفرسون مخطئًا، فإن أمريكا مخطئة. وإذا كانت أمريكا على حق، فإن جيفرسون على حق.» وقد كان هذا التصريح الذي يُذكر عادةً، فاشلًا، سواء كحكمة أو كقول مأثور. فلننح جانبًا قضية ما إذا كان رجلًا أو شعبًا يمكن أن يكون «على حق»، ولنتغاضَ عن مدى السخف في أن تتوقف «شرعية» شعب أو دولة على استقامة فرد واحد، ولننس أن «الحقوق» التي أعلنها الأمريكيون هي إما لا تنتزع أو تنتزع، وإما طبيعية أو لا، وإما موجودة (أو لا)، مستقلة عن إرادة أي إنسان أو شخصيته. الحقيقة أن أمريكا قد ارتكبت أخطاءً وجرائم جسيمة، كما أنها تبنت مبادئ وقيمًا عظيمة. إن المجتمع الأمريكي هو مجتمع حضري ورأسمالي بصورة أساسية، ولكنه أيضًا ريفي بصورة ملحوظة أو — كما يفضل البعض أن يقول — رَعَوي. وهو مجتمع ذو تاريخ إمبريالي، وانعزالي كذلك، مجتمع ذو دستور مدني ولكن طبيعته شديدة التدين، مفرطة في التقوى. إن جيفرسون هو أحد النماذج القليلة في تاريخنا التي لا يمكن تخيل غيابها ببساطة؛ فدوره في توسيع وتحديد الولايات المتحدة أضخم وأهم — حتى من على هذا البُعد — من أن يتضاءل بفعل مرور الزمن. ولكن كل الضغوط والمفارقات السابقة — التي يتجسد معظمها في شخصه — كانت ستتواجد أيضًا حتى لو لم يولد جيفرسون أبدًا.

إن كلمة «تجربة»، كما استُخدمت لوصف الثورة الأمريكية في آخر خطاب عام لجيفرسون، قد اكتسبت من حينها وقعًا مختلفًا ومشئومًا. لقد اعتاد المدافعون عن ستالين أن يُطلقوا على نظامهم «التجربة الاجتماعية العظيمة»، وقد أجروا بالفعل «التجارب» — كما فعل أعداؤهم النازيون المزعومون — على بشر أحياء. (لم يكن كل الشيوعيين بمثل هذا التبلد. فمثلًا هو تشي مين Ho Chi Minh، عندما أصدر إعلان استقلال فييتنام عام ١٩٤٥م، اتبع نموذج مؤتمر سينيكا فولز لحقوق المرأة، وصاغ فقرته الافتتاحية بنفس

كلمات جيفرسون.) إن مصطلح «تجربة»، سواء على لسان جيفرسون أو من قلمه، كان يعني الفضول العلمي لزملائه في جمعية الفلاسفة الأمريكيين؛ العبقرية البشرية لشخص مثل رايتنهاوس، أو رش، أو بارتون، أو بريستلي. إن المهمة التي كان ينبغي اختبارها هي تجربة الحكومة الذاتية. وقد دمرت الثورة الفرنسية نفسها في حياة جيفرسون. ودمرت ثورات أخرى أكثر حداثة نفسها ودمرت غيرها. وإذا كانت الثورة الأمريكية — بعلمانيتها، وفصلها للسلطات، ووثيقة حقوقها، وتحريرها المتدرج للمستبعدين أو من هم أسوأ عند تأسيسها — قد دأبت على فضح نفسها سواء داخليًّا أو خارجيًّا، لكنها مع ذلك تظل الثورة الوحيدة التي لا تزال تحتفظ بأية قوة مُلهمة.

لقد استوعب جيفرسون، على مدار حياته السياسية الطويلة، ما يكفي من «التعدد»، بعبارة والت وايتمان، ليناقض نفسه على نطاق واسع وبسخاء. لقد تراوح بين اتخاذ عدة جوانب لعدة قضايا، بدءًا من تدخل الحكومة في الصحافة وحتى سلطة الكونجرس فيما يتعلق بالإنفاق، وبدءًا من الإبقاء على قوات مسلحة دائمة وحتى المثابرة في المكائد الأجنبية. وفي عدد كبير من تلك الحالات، كان تبريره للإلغاء أو التضارب هو السبب الأسمى لنمو وقوة الجمهورية الأمريكية. وفي عدد أقل من الحالات، ليس عسيرًا أن نفهم أن الدافع هو المصلحة الشخصية. وفي النهاية، فإن استسلامه لقوة العبيد التي كان شبه مبغض لها كان نابعًا من المصلحة الشخصية، كما مثّل تهديدًا لبقاء الجمهورية. وهذا الاستسلام، من رجل ينتمي لحركة التنوير، ورجل ذي نزعة ثورية ديمقراطية حقيقية، هو تذكار آخر بأن التاريخ مأساة وليس حكاية أخلاقية.

رقم إيداع ٢٠٠٨/١١٢٧٥
ISBN 978 977 6263 12 3